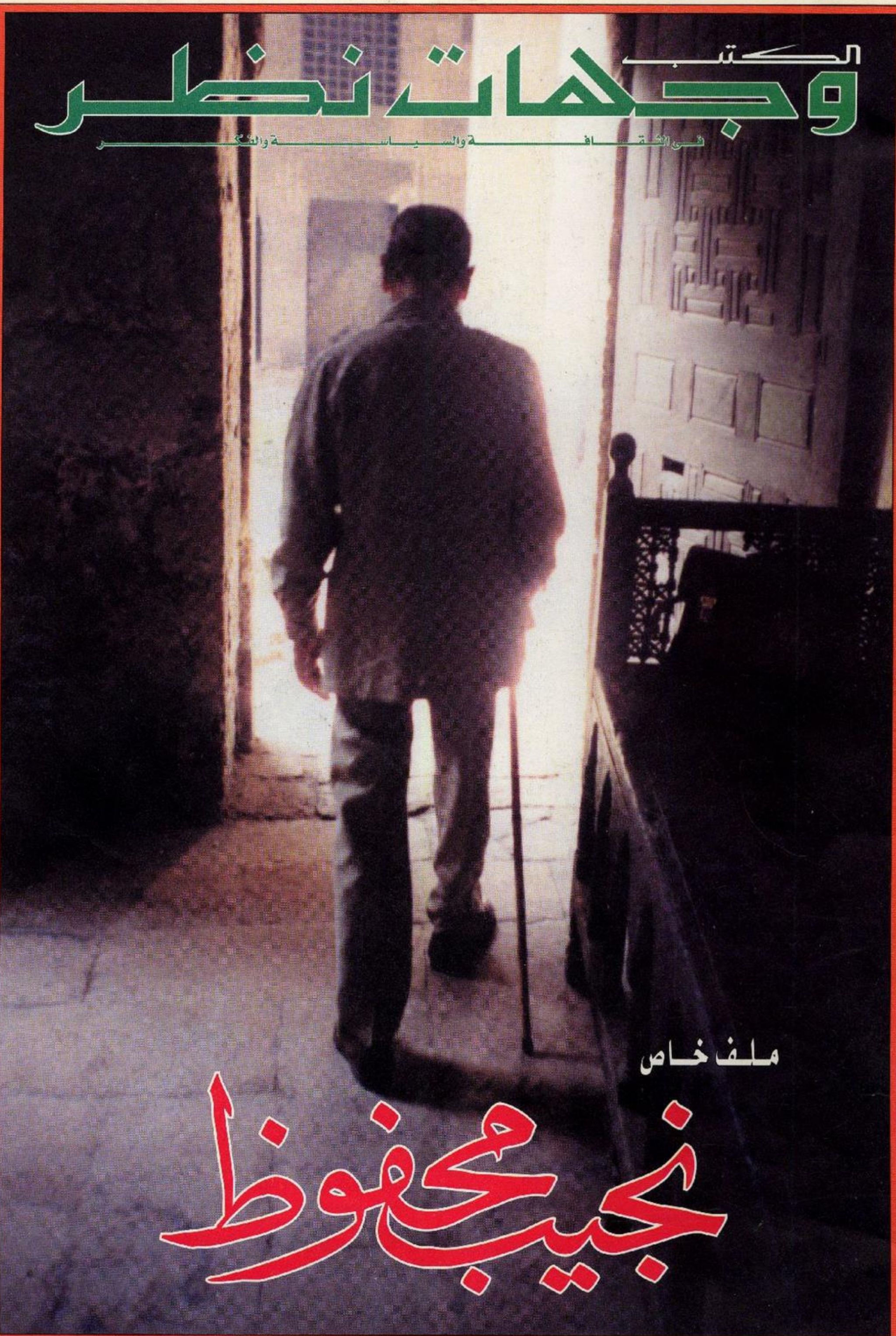


مجلة شهرية. العدد الثالث والتسعون. السنة الثامنة. أكتوبر ٢٠٠٦. الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 8 - Issue 93 - October 2006

السنة الثامنة
العدد الثالث والتسعون
أكتوبر ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- خيري منصور.. كاتب عربي.
- روبرت سكيدلسكي.. أستاذ الاقتصاد بجامعة ووريك بإنجلترا.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفي.
- عبد الصبور شاهين.. أستاذ بكلية دار العلوم.
- عزام التميمي.. مدير معهد الفكر السياسي الإسلامي - لندن.
- عفاف عبد المعطي.. ناقدة ومترجمة.
- فاروق عبدالقادر.. كاتب.
- محمد السطوحي.. صحفي مصري مقيم في واشنطن.
- محمد السعيد مشتهري.. مدير مركز بحوث ودراسات القرآن الكريم.
- محمد مزالي.. الوزير الأول للجمهورية التونسية الأسبق.
- محمد المهدي.. مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- نجيب محفوظ.. روائي مصري راحل.
- هشام السلاموني.. ناقد أدبي وفني.
- وليد محمود عبدالناصر.. كاتب مصري.
- يحيى الرخاوي.. أستاذ الطب النفسي بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجي - سعد الدين شحاتة
Daryle Cagle - Angle Boligan
صورة الغلاف: جمال الغيطاني

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٢٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهماً - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالاً - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٢٠ درهماً - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نون

سلامة أحمد سلامة

الاعتذار عن الماضي.. أو تطهير العقل

■■ مغالبة الماضي واستحضاره، واستعادة تفاصيله وذكرياته، وإعادة النظر في شخوصه وأفكاره، والاعتراف بما انطوى عليه من انتصارات وهزائم، وما أقدم عليه المرء من نزوات أو جرائم في حق نفسه أو في حق الآخرين.. هي جزء من ثقافة الاعتراف وطلب الغفران التي تدعو إليها الأديان، والتي ترجع في الأساس إلى ثقافة التطهر من الآثام والاعتذار عن الماضي.. حيث تصبح عملية التطهر طقساً فكرياً واجتماعياً ودينياً، أشبه بالنزول إلى مياه النهر في بعض العبادات الهندوسية، التي يغتسل المرء فيها من ذنوبه ليعود كيوم ولدته أمه.. أو مثل شعيرة الحج عند المسلمين.

ولعل الأدباء والكتاب هم أكثر الناس خوضاً لهذه التجربة، التي يمتحن الكاتب فيها وجدانه ويستبطن مشاعره وذكرياته كلما أوغل في التفكير والتأمل، واحتك بالأحداث والمتغيرات التي تحيط به. فهو يستمد من أعماق تجاربه الذاتية ما وعته الذاكرة وما نسيته أو تعمدت نسيانه.. ويظل هذا الصراع بين ذكريات وخبرات يحاول أن يتذكرها ويحاول في آن معاً أن ينساها، بحثاً عن نقطة التوازن الداخلي التي تحقق له الاقتناع بأن ما ارتكبه من فعل كان صحيحاً في وقته ومكانه، إرضاء لما يسميه الفلاسفة بالضمير الأخلاقي، أو ما تعتبره الأديان اعترافاً بالذنب طلباً لمغفرة الذات العلية.

غير أن هذا التفاعل الداخلي سرعان ما يتحول ويتحور في أعماق الأديب أو المفكر إلى مصدر للإلهام الفني والإبداع الأدبي والفكري، الذي يتخذ شكل «السيرة الذاتية»، يستعرض فيها الكاتب مراحل حياته وتقلباته، ونجاحاته وانكساراته، وتكوينه وتحولاته. وشذرات كاملة أو مبتسرة من تجاربه الشخصية، تستمد قيمتها الأدبية والتاريخية من عناصر متعددة.. أهم ما يميزها أن تكون على درجة عالية من الصدق والتلقائية بغير تصنع أو زيف، وأن تلقي على شخصية الكاتب أو المبدع في نشأته ومجتمعه والحقبة الزمنية التي عاشها من الأضواء والأجواء ما يسهم في فهمها وإدراك أبعادها، وتقييم أحداثها..

إن كاتب السيرة الذاتية، سواء كان أديباً أو مفكراً، سياسياً أو علماً من أعلام عصره، يظل في الحقيقة صندوقاً مغلقاً على أسرار وخفايا قد لا تتكشف لمعاصريه أو لمن بعدهم، ما لم يمتلك صاحبها من جسارة الروح وشجاعة العقل التي يفض بها مغاليق هذا الصندوق الذي أودعه أسرار طفولته وشبابه، ومجمل حياته، ودقائق تجاربه العاطفية ومشاعره الحميمة. وهو يعلم تمام العلم أنه يقدم نفسه قرباناً للحقيقة، غير نادم ولا عابئ بسهام النقد والتجريح والتشكيك، التي قد تأخذ منه أكثر مما تعطيه، وتظلمه أكثر مما تنصفه، حياً وميتاً.

وقد كانت هذه على الأرجح هي الحالة التي مر بها الكاتب والأديب الألماني الشهير، الحائز على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٩٩، جونتر جراس، أحد كبار الروائيين المعاصرين الذي سيطر على المشهد الثقافي الألماني طوال سنى ما بعد الحرب، ومازال يعتبر أفضل من عبر في كتبه ورواياته ومقالاته ومسرحياته عن الوجدان الألماني بكل آلامه وجراحه، وآماله وأشواقه في أعقاب سقوط النازية واندحارها وهزيمة ألمانيا في الحرب.

فجأة أعلن جراس في اعتراف مثير أحدث صدمة في ألمانيا وفي العالم أنه انضم إلى قوات الحرس الخاص المعروفة بالـ S.S، أشد القوات النازية شراسة وقسوة في عهد هتلر، عندما كان في السابعة عشرة من عمره. وهي فترة وجد نفسه خلالها يتنفس أفكار المثالية الألمانية التي انحرفت تحت وطأة التأثيرات النازية التي سادت في تلك الحقبة، والتي كانت تعلي من روح النظام والجدية والعسكرية، وتبحث عن العبقرية الفردية التي تؤكد قيم العنصرية ونقاء الجنس، وتقدس معاني القوة والتفوق، وهي حقبة ملتبسة، سادت فيها أفكار ونظريات ملتبسة، انتشرت وذاعت في أوروبا والعالم، وأثارت من الجدل والنقاش أمواجاً من العداء والكراهية والحروب التي مزقت أوروبا، وقسمت شعوبها، وأريقت بسببها دماء لم تخلف وراءها غير التعاسة والشقاء.

عندما أعلن جونتر جراس هذه الحقيقة في شهر أغسطس الماضي، ظن الكثيرون أنها مجرد حيلة دعائية وتناقمت الشكوك من كل حدب وصوب.. إنه على أهبة نشر كتاب جديد وهو يحاول لفت الأنظار إليه بهذه الخدعة.. إنه أسلوب رخيص لتسويق كتابه. لم يصدق الكثيرون أن مثل هؤلاء المشاهير يمكن أن تكون لهم أخطاؤهم وسقطاتهم، وأن ماضيهم لا يخلو من العثرات والفضائح والأسرار المخزية.

ولكن الذين افترضوا أن يقدم جراس على اصطناع هذه الحيلة التي يمكن أن تدمر مستقبله ومكانته، لم يدركوا أن إقدامه عليها لم يكن من أجل ترويج كتابه، بل من أجل إنقاذ سمعته وما أنجزه في حياته من مجد أدبي ومكانة أخلاقية شكلت شخصيته ورسمت صورته في أذهان الناس عبر جهد إبداعي شاق متصل، وضعه في مكان الصدارة العالمية.

فقد فرض المناخ الذي ساد ألمانيا بعد الحرب على كتابها ومبدعيها شروطاً ومطالب، وضعتهم في قلب «أزمة الضمير» الذي كان على ألمانيا وشعبها أن يواجهها، وهي عقدة الشعور بالذنب إزاء الكارثة التي حاقت بالعالم من جراء إشعال الحرب العالمية الثانية، وظهور النازية التي دمرت أوروبا وأذلت شعوبها وارتكبت فيها من الفظائع والأهوال ما وضع الشعب الألماني في عداد الشعوب المارقة المحكوم عليها بالعزلة والاستبعاد والإقصاء من الجماعة الدولية. ولم يكن بوسع أديب أو مفكر أو سياسي أو أي شخصية عامة أن يلقى أدنى قدر من الاعتراف أو القبول حتى على المستوى الإنساني، ما لم يعلن براءته من هذه الحقبة النازية وإنكاره لأفكارها ومبادئها، وتنصله من كل ما له علاقة بها. ويمكن القول بأن جيلاً أو أكثر من جيل توارى واختفى من الساحة، أو هاجر إلى أصقاع بعيدة في أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا هرباً من محنة الذل والهزيمة وإلصاق الجرائم والفظائع التي ارتكبت في ميادين الحرب بألمانيا وشعبها. ومازالت جذور هذه الكراهية المشوبة بالخوف والتربص والحذر تلون علاقة ألمانيا بجيرانها وحلفائها حتى هذه اللحظة.

ويدهش المرء إذ يرى أنه بعد أكثر من نصف قرن على مأساة الحرب العالمية الثانية، تغير خلاله العالم تغيراً جذرياً، قامت إمبراطوريات وسقطت إمبراطوريات، ونشأت دول وتفككت دول، وأقيمت تحالفات واندثرت معسكرات، مازالت المخاوف والشكوك كامنة تحت سطح كثير من التعاملات والمواقف الدولية، متأثرة بما خلفته الحرب العالمية الثانية من أطماع وأحقاد وضغائن. ولهذا لم يكن غريباً أن تدور معظم الحوارات التي أجريت مع كتاب ألمانيا وأدبائها ومفكريها خلال هذه الفترة - حول آرائهم السياسية ومواقفهم من أحداث

لا يذكر جراس إن كان قد اختار قوات الـ SS بمحض إرادته أم أنه أرسل إليها، ولكنه في اعتذاره عن الماضي وإزاحته الستار عن هذه السقطة المريعة في صباه، يستخدم أسلوب «تقشير البصل» في إزالة لفائف الغموض الهشة المتراكمة طوال سني الانكسارات والدموع والمعاناة التي مر بها

عالمية مثل قضايا التسلح والسلام الدولي والأسلحة النووية وعلاقات الشرق والغرب والحرب الباردة وسياسات نيكسون وبريجنيف وفيلي برانت وغيرها من عشرات المشاكل والأزمات التي تهدد العالم.

ولم يكن جراس في بداياته معنياً بالسياسة وقضاياها. وبقيت رواياته الأولى بعيدة عن الغوص في مشاكلها، ولكنه بمرور الوقت حاول أن يرتبط بقضايا عصره وانضم إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي، ودخل في مجادلات سياسية دافع فيها عن صديقه المستشار الألماني الراحل فيلي برانت في معاركه السياسية التي خاضها ضد اليمين الألماني المحافظ. وفي نفس الوقت لاقت رواياته «طبل من صفيح» و«القط والفأر» و«ثلاثية دانزيج» من بواكير إنتاجه رواجاً واسعاً في ألمانيا وخارجها، حيث كانت تصور حياة أجيال طحنتها الحرب وخرجت منها مثخنة بالجراح.

وفي هذه الأجواء لم يكن غريباً في هذه المرحلة أن يساند جونتر جراس حق دولة إسرائيل في الوجود عندما زارها لأول مرة في صحبة المستشار الألماني فيلي برانت، وأن تظهر له بعدها بعض كتابات وخطابات عن إسرائيل، لا تتضمن شيئاً عن العرب أو حقوقهم. وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الموقف لم يكن مقصوراً على جونتر جراس وحده، فلم يسع المثقفون والكتاب العرب في أي وقت من الأوقات إلى مد جسور التواصل والتفاهم مع المثقفين من رموز الأدب والفكر في الغرب إلا في حدود ضيقة لم تتعد بعض مشاهير الأدباء في فرنسا، كما أن انكفاء العرب على قضاياهم وكوارثهم حال دون التعرف على إنتاجهم الثقافي والأدبي، إلا في وقت متأخر بعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل. ولم تتح لجراس فرصة زيارة دولة عربية إلا مؤخراً، عندما شارك في ملتقى الرواية العربية الذي عقد بصنعاء قبل نحو ثلاث سنوات بمناسبة اختيارها عاصمة للثقافة العربية. وفي هذه الزيارة الوحيدة لدولة عربية فتن بالعمارة اليمنية القديمة، وأسهم في إنشاء مركز للدفاع عن التراث اليمني المهدد، كما تدخل لدى الرئيس اليمني علي عبدالله صالح لإسقاط القضايا المرفوعة ضد الروائي اليمني وجدي الأهدل الذي كان فاراً وملاحقاً من الشرطة لمحاكمته على روايته «قوارب جبلية».

ليس من المبالغة القول إن جراس مثل جيل بأكمله من الألمان، قد وجد نفسه مسوقاً تحت ضغط الضرورة والإكراه في ظل حكم النازي للذهاب إلى الخدمة العسكرية حين استدعي للخدمة في سن السادسة عشرة.

ويكشف جراس النقاب في سيرته الذاتية التي نشرها أخيراً بعنوان «تقشير البصل» والتي أثارت هذه الضجة، إنه لم يتطوع للانضمام إلى قوات الحرس الخاص الـ SS، الذين كانوا يمثلون مجموعة من سفاكي الدماء، الذين قاموا بأسوأ عمليات الإبادة الجماعية وإدارة معسكرات الاعتقال الشهيرة، ولعبوا دوراً مهماً في «الهولوكوست» المحرقة النازية التي مازالت أشباحها تطارد الشعب الألماني حتى الآن بكل فظائعها.. ولكنه وجد نفسه ملحقاً بصفوفها على كل حال. وكانت الحرب العالمية الثانية في شهورها الأخيرة في ربيع عام ١٩٤٥ وبوادر الهزيمة تدق الأبواب، بينما تستدعي القيادة العسكرية مجندين من الصبية تدفع بهم إلى ميادين القتال.

لا يذكر جراس إن كان قد اختار قوات الـ SS بمحض إرادته أم أنه أرسل إليها. ولكنه في اعتذاره عن الماضي وإزاحته الستار عن هذه السقطة المريعة في صباه، يستخدم أسلوب «تقشير البصل» في إزالة لفائف الغموض الهشة المتراكمة طوال سني الانكسارات والدموع والمعاناة التي مر بها. وكأنه يدعو الآخرين لفهمه وتقدير موقفه. وهو يتعمد إضفاء مسحة من الغموض والإبهام على وعيه بالماضي.

إنها ليست خيانة الذاكرة، ولكنها حائط صد للدفاع عن موقفه عندما تأخر ستين عاماً في الكشف عن ماضيه السياسي خلال صباه. وهو الذي بنى مجده الأدبي على دعاوى أخلاقية، نابعة من التزام بالقيم الإنسانية وداعياً شعبه الألماني إلى إعادة إحياء هذه القيم، والتنكر للمبادئ والأفكار التي غرستها النازية في عقول وقلوب جيل أو أجيال لم تعرف غير الشقاء والتعاسة على يد هتلر ونظامه الفاشي. وهو من أجل وصوله إلى هدفه في إزاحة الماضي، يقيم نوعاً من العلاقة المتوترة بين ما يقول أنه لم يقترفه: فلم يطلق رصاصة ولم يرتكب أي جريمة من جرائم الحرب أو يشارك في أي عمل من الفظائع التي عرفت عن قوات الحرس الخاص، وبين أسباب صمته طوال هذه السنوات، فلا يبوح بها إلا بعد أن هدأت العواصف وسكنت النفوس وتبددت المخاوف وتغير المشهد الأوروبي والعالمي بأسره.

غير أن هناك من يرى قصة جراس بعيون أخرى: فهذا الكاتب العملاق الذي بنى مجده الروائي عبر خمسة عقود من الجهد والعرق، لم تغب عن طموحاته منذ البداية جائزة نوبل. وقد أدرك أنه الوحيد الذي يستحقها من بين مجايليه، ولكنه رأى كيف أن زيارة واحدة قام بها الأديب الأرجنتيني الشهير خورجي ل. بورجيس لديكتاتور شيلي بينوشيه، كلفته ثمناً باهظاً فاستبعد من الترشيح للجائزة.. فهل كان من الممكن لشخص خدم في الحرس الخاص لهتلر أن تتاح له هذه الفرصة؟

ولكن بعد أن حصل جراس على نوبل عام ١٩٩٩، واستقر به المقام شخصية أدبية مرموقة ومعترفاً بها على الصعيد الألماني والعالمي، بدأت تؤرقه أشباح الماضي لو ظهرت بعد موته وهو يناهز الثمانين. ولابد أنه أدرك بذكائه أن مكانته وشهرته لن تمنع الباحثين والمنقبين والنابشين في القبور من الصحفيين الذين يبحثون عن الإثارة، أن يعثروا حينئذ على سره الدفين، ويشعلوا النيران في كل ما شيده من مجد بقلمه وفكره. وفي عالم اليوم لم تعد هناك أسرار يمكن إخفاؤها، وقد تتحول حكايته وتاريخه هو إلى قصة تلوكها الألسن وتدمر سمعته.

ويعتقد الكثيرون أن الوصول إلى هذا السر لم يكن بالأمر العسير، بل لعله كان قاب قوسين أو أدنى، بعد أن رفع الحظر مؤخراً عن الأرشيف السري لجهاز «الاستاسي» الذي راكمته أجهزة التجسس في ألمانيا الشرقية وحفظت فيه أوراق الرايخ الألماني الهتلري ووثائقه، وبدأت السلطات في برلين تسمح بالإفراج عنه والاطلاع عليه لمن يريد. وهكذا اختار جراس أن يزيح بيديه الستار عن الماضي ويخرجه بطريقته، ولا يتركه نهباً بين يدي المشوهين والخباصين والمزورين المحترفين والباحثين عن الفضائح.

نون

من الذى يملك عندنا فى عالمنا العربى الجرأة على مواجهة ماضيه، لاسيما عندما يبلغ الكاتب أوج شهرته وعطائه عالمياً، ثم يجد نفسه طائعاً أو مكرهاً، مدفوعاً للهبوط من قمة الجبل إلى السفح

من الطبيعى ألا تظل صورة جونتر جراس كما كانت، وسوف تتأثر على الأرجح بما سيثيره أدعياء النقاء ومحترفو توظيف العداء للسامية لأهداف سياسية من اتهامات.. ولن تغفر الآلة الدعائية لدعاة الصهيونية وضحايا النازية القدماء الذين تحولوا هم أنفسهم إلى نازيين جدد، يمارسون أساليبهم، ويتفوقون فى تطبيقها على ضحاياهم من العرب باسم الدفاع عن أمن إسرائيل وسلامة الجنس اليهودي، خطأ صبى ارتكبه فى سن المراهقة تحت تأثير الدعاية الجبارة لنظام لم تقهره غير حرب عالمية، وامتلك شجاعة الاعتراف به عندما واتته القدرة على مواجهة ماضيه والاعتراف به والاعتذار عنه.

وأكبر الظن أن كثيراً مما كتبه جراس فى رواياته، كاشفاً عن هشاشة الإنسان فى مواجهة أقداره، وما يثوى فى أغوار النفس البشرية من قابلية للفساد والإفك، جنباً إلى جنب مع ما تنطوى عليه من إخلاص وتضحية وسمو، إنما ينبئ عن الطبيعة المعقدة والمركبة لما تنقاد إليه النفس البشرية من آثام وأخطاء تعذب ضميره فى لحظات الصحو ومحاسبة النفس.. وهذا هو ما سوف يبقى معنا وما سوف يخلد فى التراث الأدبى للإنسانية.

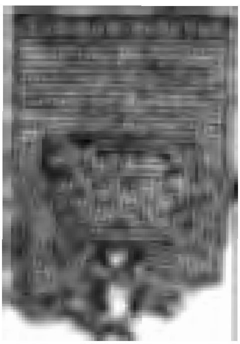
ولكن من الذى يملك عندنا فى عالمنا العربى الجرأة على مواجهة ماضيه، لاسيما عندما يبلغ الكاتب أوج شهرته وعطائه عالمياً، ثم يجد نفسه طائعاً أو مكرهاً، مدفوعاً للهبوط من قمة الجبل إلى السفح ومن أعلى الشجرة إلى ما دونها؟! لا يحاسب نفسه على أخطاء شخصية ونزوات عاطفية وانحرافات جنسية، ولكنه يحاسب نفسه على جريمة الصمت أمام رأى عام عاطل، يجلس على منصته قضاة تجرفهم الأهواء السياسية ونوازع الأنانية.. دون اعتبار للظروف والعصر والقدرة على التمييز والاختيار؟ وهذه هى المعضلة!! ◆

تحـــــولات الــــــــروح

يا رب
قربتنى إليك حتى إذا دنوتُ بعُدت
رفعتنى من وهدة الضلال حتى إذا ارتقيت هبطت
رققتنى روحاً وبدناً حتى إذا شففت غلظت
أخرجتنى من ظلمة الجهل حتى إذا رأيتُ عميتُ
بصرتنى بالجمال حتى إذا أدركت تركت
زودتنى بالعقل حتى إذا عرفتُ جهلت
أترعت قلبى بالحب حتى إذا امتلأت فرغت

يا رب
أغدقت علىَّ من نعمك فبطرت
أسقيتنى من خمر وصلك فسكرت
أوقفتنى على حقيقتى فاغتررت
صفيت نفسى من أدرانها فنكصت
بحثت حولى عن اليقين فضللت
أعشت عينى أضواء الطريق فما أبصرت

يا رب
أنر بصيرتى حتى أراك
واجعلنى أرى ما يستحق أن يرى
وأسمع ما يستحق أن يُسمع
وأعرف ما يزيدنى علماً بك



واقرأ باسمك أسرار عظمتك
وأسلك الطريق الذى لا أضل فيه أبداً

يا رب
قطرة أنا فى بحر الوجود تتخبط
لحظة أنا من عمر الزمن كلمح بالبصر
ريشة فى فضاء الكون عبثت بها الريح
ذرة فى الهباء تضاءلت واختفت
من يملك مسيرتى وصيرورتى غيرك؟
فى قضائك قدرى وفى قدرى قضاؤك

يا رب
أخرجنى من حيرتى كلما ادلهمت
وثبت يقينى كلما تزعزع
وجنبنى عثرة الطريق لحظة الشك
لا تذلنى لسواك..
ولا تجعل علىَّ سلطاناً لغيرك
ولا تنزل فى قلبى خوفاً إلا منك
ولا حاجة إلى إليك
ولا رجاء إلا عندك

يا رب
أخرجنى من ثقوب الحياة السوداء
واكفنى شرور العولمة والهيمنة
وجنبنى الوقوع فى براثن الطغاة وأزلامهم
ولا تبتلنى بأمراض العصر وأوبئته
ولا تجعل خاتمتى تحت أنقاض الزلازل والأعاصير

يا رب
قنى من شر عدو لا يرحم
وصديق لا يصدق
وانأ بى عن حبيب شيمته الغدر
ورئيس مجبول على الجهل
وطاغية يعميه الظلم

يا رب
امنحنى القدرة على تغيير ما أستطيع تغييره
والصبر على ما أعجز عن تغييره
وأدخلنى فى رحمتك
يا أرحم الراحمين!

سلامة أحمد سلامة

الأعمال الكاملة




كفى
الرفاعي شرفا تقبيل
يد المصطفى

فرق ومذاهب.. مرويات وتفسيرات

السنة النبوية

اتفاق لا اختلاف

محمد السعيد مشتهري

إن ظاهرة التفرق التي يشهدها العالم بين المسلمين، وتشرب قلوبهم لثقافة التخاصم، تنذر بخطر عظيم يهدد مستقبلهم ورسالتهم للشهادة على العالمين. إن تفرق الأمة إلى مذاهب عقائدية ترمي بعضها بالفسق والضلال وبمخالفة سنة رسول الله، يفقد كثيرا من الناس الثقة في فاعلية رسالتها في مواجهة التحديات المعاصرة. لقد دفع المسلمون ثمن هذه الفرقة (عبر العصور) دماء سفكت بغير حق!!. وتقف هذه الفرق المتخاصمة صفا واحدا في مواجهة عدوها المشترك، ثم عندما تظهر لها علامات النصر يبدأ بعضها في قتال بعض من أجل الوصول إلى الحكم وكل منهم يعتبر نفسه الفرقة الناجية التي يجب أن تتولى حكم البلاد والعباد!!. أما أن يصل الأمر إلى أن يفجر أتباع فرقة أنفسهم وسط أتباع فرقة أخرى، وتسفك دماء المدنيين الأبرياء باسم الإسلام وتحت راية التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، فهذا مؤشر خطير يوجب علينا إعادة النظر في تديننا الوراثي!!. إن الإسلام هو الحجة على الناس، وتدين المسلمين وفهمهم لنصوصه حجة عليهم وليس على الإسلام!!. إن صحابة رسول الله لم يعرفوا إلا: إلها واحدا، ورسولا واحدا، وكتابا واحدا، وقبلة واحدة. لم يكن رسول الله وصحبه الكرام أصحاب مذاهب دينية مختلفة، كما حدث للمسلمين بعد وفاة رسولهم، فكيف السبيل إلى العودة إلى ما كان عليه الرسول وصحبه الكرام؟!!. إن هدف هذه الدراسة هو بيان أن السنة النبوية طريق واحد يسلكه كافة المسلمين أمة واحدة، منذ عصر الرسالة وإلى قيام الساعة، الأمر الذي لا يتحقق إلا إذا كانت نصوصها التي تستقي منها لا تتبدل ولا تتغير، محفوظة بحفظ الله لها، عبر رحلتها من عصر الرسالة وإلى يوم الدين!!!.

قبل ظهور الفرق والمذاهب
السنة النبوية حقيقة قرآنية
محمد السعيد مشتهري
تقديم: عبدالصبور شاهين
القاهرة - دار مصر المحروسة - ٢٠٠٦

أرجو من القارئ الكريم، عالما كان أو داعيا أو مفكرا، أن يقرأ هذه الكلمات ويتدبر مقاصدها الحقيقية، دون أي خلفية دينية مذهبية، وذلك قبل أن يعلق أو أن ينتقد أو يحكم على كاتب هذه الدراسة بأي حكم شاء!!.

أنا كمسلم، نشأت في بيئة علمية دينية، أشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأقيم أصول الإسلام والإيمان التي فرضها ربي علي، أحمل مؤهلات وأدوات البحث العلمي المخلص الجاد، تفرغت سنوات تفرغا كاملا للبحث والدراسة العلمية للوقوف على أسباب تفرق علماء المسلمين إلى فرق ومذاهب مختلفة متخاصمة متصارعة، يستحل بعضها دماء بعض بغير حق وتنشر مأساتهم هذه (وخاصة فوضى الفتاوى الفقهية التكفيرية) على القنوات الفضائية، وشبكة الإنترنت العالمية بصورة هزلية مؤسفة، جني المسلمون ثمارها عبر العصور تخلفا وذلا وانتهاكا لهويتهم ومقدساتهم، وإلى يومنا هذا!!!.

نحن نعيش مأساة أبرز مظاهرها تفرق علماء الفرق الإسلامية، بل وعلماء مذاهب الفرقة الواحدة، وبعد أن تبين لي بالبحث العلمي وبما لا يدع مجالا للشك أن هذا التفرق ليس من باب التعددية الفكرية التي يسمح بها في الإسلام، وإنما هو مما حذر الله المسلمين منه في كتابه الحكيم، والذي كان هو محور دراساتي الرئيسي.

وليعلم القارئ الكريم أن أي باحث يخرج على قومه بما يخالف ما تعودوا ويهدم ما ورثوه من تدين مذهبي، يتهم على الفور بالردة عن هذا الدين (والحقيقة أنها ليست بردة لأن المولود يفرض عليه مذهب آبائه يوم يولد)!!.

أو يتهم بالعمالة لجهة أجنبية أو بالعمل على إقامة تنظيم يهدف إلى هدم دينهم. لذلك نجد أن أنصار ودعاة الفرقة والمذهبية يسارعون على الفور بإثارة الناس ضده، ليشلوا حركته في الحياة، فينعزل عن حياتهم الاجتماعية ويضيق عليه في الرزق، ظنا منهم أنهم يملكون مفاتحه!!.

واللافت للنظر أن هؤلاء «المكفرين» يعلمون جيدا أنه لا سبيل أمام الباحث الذي يريد أن يتعرف (في القرن الخامس عشر الهجري) على طبيعة وخصائص النص الإلهي الذي أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين باتباعه، ليقيم على أساس ذلك تدينه إلا بدراسة أمهات الكتب الدينية التي ورثتها الفرق والمذاهب المختلفة، ليقف على طبيعة نصوصها وخصائصها المميزة لها مقارنة بطبيعة النص الإلهي المنزل وخصائص هذا النص واجب التصديق بصحة نسبته إلى الله تعالى أولا والإيمان به كمصدر تشريعي إلهي.

كذلك فإن الباحث اليوم لا يملك للتحقق من صحة ما نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث إلا بدراسة كتب المرويات التي ورثتها الفرق والمذاهب المختلفة كل وفق شروطه في الصحة والضعف. ولا يستطيع أحد من علماء الفرق والمذاهب المختلفة أن يدعي أن الله تعالى قد أوحى إليه بما صح من هذه المرويات ليقول أنه قد وقف على صحة نسبة هذه المرويات إلى رسول الله يقينا.

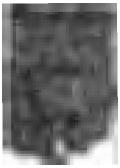
إن القضية ليست قضية تشكيك في تراث الأمة الديني، وإنما هي قضية تحقيق علمي، على كل طرف من أطراف النزاع أن يقدم الدليل والبرهان على صحة ما ذهب إليه، بحرية كاملة، ودون أن ينظر كل طرف إلى الآخر نظرة تكفير أو عداء أو تخاصم. لقد وجدت، وأنا أقوم بتدوين صفحات هذه الدراسات العلمية (وأنا خارج دائرة التقليد المذهبي) أن محور تفكيري لا يرى بصورة رئيسة واضحة إلا عصرين من الزمان:

عصر الرسالة الخاتمة: الذي أشهد شهادة علمية أن كل ما نقله القرآن عنه حق ثابت ثبوت القرآن نفسه. والعصر الذي أعيش فيه: ذلك الذي لا أستطيع أن أشهد فيه شهادة علمية تقوم على يقين قطعي الثبوت أن ما حملته الفرق والمذاهب من مرويات تشريعية منسوبة إلى رسول الله حق واجب الاتباع!!.

إن ميزان وأدوات إثبات قطعية المصدرين أصلا مختلفة!!. لذلك كان قلمي يتحرك بين العصرين، فتارة ينظر إلى كتاب الله فيرى الحق ناصعا، يحذر المسلمين من التفرق في الدين، فإذا نظر إلى واقع المسلمين لا يرى هذا الحق معمولا به!!.

فالإشكالية التي كانت أمامي وما زالت هي: لماذا لم ترث الأمة الإسلامية على مستوى جميع الفرق والمذاهب المختلفة كتاب الله تعالى، وكتابا واحدا جامعا لأحاديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بنفس درجة الحفظ الإلهي، وبنفس درجة الإسناد المباشر إلى الله تعالى، وإلى رسوله يرجع إليهما المسلمون كافة، منذ عصر الرسالة وإلى يوم الدين، إذا كانت هذه الأحاديث نصوصا تشريعية يحرم مخالفتها وعدم اتباعها؟!

وجاءت أن مصطلح «إنكار السنة» (الذي يحمله علماء كل فرقة سلاحا قاتلا في وجه المخالف لمذهبهم) هو في حقيقته مصطلح مذهبي قام



على رؤى واجتهادات علماء كل فرقة لحجية الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله، والتي على أساسها أقاموا علما لتصحيحها وتضعيفها فأصبح الحديث الصحيح عند فريق ضعيفا أو موضوعا عند آخرين.

فسألت نفسي:

أين نجد في هذه الحالة من التفرق المذهبي موقع «إنكار السنة»؟!!.

ولا يخفى على كل ذي بصيرة ما نشأ بين علماء الفرق (بل وبين علماء مذاهب الفرقة الواحدة) من خصومات بسبب علم الجرح والتعديل، والتصحيح والتضعيف، والتي وصلت إلى حد رمى كل فريق الآخر بالضلال والفسق، بل وأحيانا بالكفر، ومخالفة سنة رسول الله، وعدم اتباع سبيل المؤمنين!!!

لقد ارتبطت مسألة اختلاف المناهج بين الفرق في طرق إثبات الأحاديث القولية إثباتا قطعيا بقضية «تكفير المسلم لأخيه المسلم» المخالف له في المذهب. ولقد امتدت جذور هذه المسألة إلى عصور الفتن الكبرى التي بدأت تنبت بعد وفاة رسول الله مباشرة، والتي نجني نحن اليوم ثمارها!!.

وإن أخطر ما نجنيه من ثمار التخاصم والتكفير هو هذه القنابل البشرية التي تتسع رقعتها يوما بعد يوم تحت راية «هنيئا لنا الجنة يا أخي والحور العين».

وجدت أن المسلمين جميعا أمام خطر محو هويتهم الإسلامية، هذا الخطر الذي لا يشك في زحفه على العالم الإسلامي إلا مطموس القلب مغيب البصيرة. هذا الخطر الذي يتحمل مسئولية زحفه وتحركه (بعد أن كان خامدا) كثير من علماء المسلمين (بعيدا عن شماعة المؤامرة) وذلك لتفرقهم وتخاصمهم وعدم تفاعلهم مع سنن التطور الحضاري، وانشغالهم بخلافاتهم المذهبية، وفتاوى التخلف وثقافة الهزيمة!!.

فلماذا لا يفتح العلماء والدعاة والمفكرون قلوبهم لفهم واستيعاب فكر الآخر ووجهة نظره، فلعل ذلك يضيف إليهم شيئا جديدا؟!!. ألم تكن الفتاوى التخاصمية التكفيرية (ومازالت) وراء التفجيرات الانتحارية التي يقوم بها أتباع فرقة إسلامية وسط أتباع فرقة أخرى (من أفغانستان مرورا بباكستان ووصولا إلى العراق) والتي أصبحت اليوم ظاهرة خطيرة لا تخفى على أحد، بل وتهدد استقرار وأمن الناس جميعا؟!!.

ومما يزيد ما في نفسي ألما وحزنا أن يُبث هذا الواقع على الفضائيات وعلى شبكة الإنترنت وتحمله منابر الدعاة، وخاصة الدعاة الجدد لما أصبح لهم من حضور إعلامي غير طبيعي، وقاعدة شبابية غير مسبوقة، دون فهم واع لما يقذفونه في قلوب هؤلاء الشباب الحائر المسكين المغلوب على أمره، من فكر إسلامي مغلوط ومن تدعيم لثقافة التخاصم والتكفير وهم لا يشعرون!!. فإذا قام أحد بالهجوم على الإسلام والمسلمين مستخدما قاعدة البيانات التراثية التخاصمية المذهبية هذه، والتي يحملها هؤلاء إلى الناس، ويقدمونها هدية ثمينة لأعدائهم... قامت الدنيا ولم تقعد!!.

إن إشكالية الأمة الإسلامية تتحدث عن نفسها: والبكاء على المريض لن يشفيه، لذلك علينا أن نتحرك من واقعنا المعاصر، ونواجه مشكلتنا بفهم واع وإدراك حقيقي لأسبابها، وأن نسعى للنهوض من سباتنا، ونعيد الاتصال بعصر الرسالة كنقطة انطلاق نحو الخيرية التي وعدنا الله تعالى بها.

ونحن حين نتحدث عن الانطلاق من عصر الرسالة نتحدث عن الانطلاق من عصر فكر الأمة الواحدة، تلك الأمة التي حملت كتابا تشريعيا واحدا، وشهد أفرادها تفعيل آياته في واقع حياتهم، تحت راية إمام واحد، رسول الله محمد، صلى الله عليه وسلم. أمة لم تعرف الفرقة ولا المذهبية، ولم تعرف أصول فقه متخاصمة متناقضة ولا مدارس جرح وتعديل يهدم بعضها بعضا!!!.

ومن منطلق ما سبق ألتمس من القارئ عذرا لما قد يجده في قلمي من حدة في التعبير عما في نفسي من هذا الواقع المؤلم: لتفرق وتخاصم علماء الفرق والمذاهب المختلفة. إن القارئ الكريم سيجد نفسه أمام تعبيرات يكررها الكاتب في مواضع كثيرة من هذه الدراسة، قد يشعر فيها بشيء من التجني على تراث الأمة، أو على ما توارثته من أحاديث لها قدسيتها في قلبه، ولكن هذا الذي سيجده هو ما سيشعر به كل مسلم غيور على دينه وإسلامه، وعلى وحدة كلمة علماء أمته، ونبذ التخاصم وثقافة التكفير بينهم، وذلك إذا قام بدراسة علمية تُمسك بجوهر القضية من الناحية الدينية (وليس السياسية) والتي يغض الطرف عنها كثير من أنصار الفرقة والمذهبية ليبقى الحال على ما هو عليه!!.

فعندما أقول (على سبيل المثال): «فلنجتمع حول نصوص القرآن وما اتفقنا عليه من كيفيات الأداء العملي لما أجمله من أحكام، ما لم يخالف نصا قرآنيا، أو مقصدا من مقاصده الحكيمة، وما عدا ذلك (فلنتركه الآن جانبا) ولنقف صفا واحدا في مواجهة التحديات المعاصرة، لعل الله يهدينا إلى وجه الحق فيما تركناه واختلفنا بشأنه»...

لا أقصد بذلك هدم تراث الأمة الديني، وما يحتويه من أحاديث قولية منسوبة إلى رسول الله، وإنما الربط بين ما يجب أن يكون (وفق عصر الرسالة) وبين ما هو كائن اليوم!!. فلنجتمع على ما اتفقنا على حجية نصوصه وصحة نسبتها إلى الله تعالى، حتى نتحقق من قطعية ثبوت ما يثبت منها ونجمع عليه!!.

وعندما أقول وأكرر: «ونحن نعيش اليوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضع النص القرآني سلوكا عمليا أخلاقيا في واقع الحياة، على الوسطاء من علماء الفرق والمذاهب المختلفة أن يمتنعوا»، أقصد:

ما سبق أن بينته من إيماني بوجوب أن يصل إلى اليوم كتاب واحد يحمل أحاديث رسول الله (مهما كان حجمه وعدد أجزائه) بنفس درجة الثقة التي في نسبة كتاب الله إلى الله تعالى، الأمر الذي لو تحقق لما وجدنا لمدارس الجرح والتعديل المختلفة المتصارعة وجودا، ذلك لأن حديث رسول الله عندئذ سيصل إلى الناس جميعا دون واسطة من رواة ومحدثي الفرق والمذاهب المختلفة كحديث الله تعالى تماما، هذا إن كنا نؤمن حقا بأن المصدرين تشريع إلهي يتوقف إسلام المرء على اتباعهما!!!.

وإلى أن يتحقق ذلك فلنجتمع على ما تلقيناه من الله تعالى مباشرة من شريعة محكمة محفوظة بحفظ الله لها.

وعندما أكرر بعد كل سورة قولي:

«فهل وجدت وأنت تتلقى من رسول الله هذه التوجيهات غموضا يجعلك لا تستطيع العمل بها؟!!. أم أنك شعرت بحاجتك إلى مزيد من التفاصيل المتفرعة عنها كما هو الحال في كتب الفقه المذهبي...» أقول:

إن تفعيل رسول الله للنص القرآني في واقع حياته لا شك أنه يشمل حديثه القولي مع قومه وصحابته وأهل بيته، والمكون من كلماته: فهل يستطيع مسلم عاقل متدبر لكتاب الله أن ينكر ذلك؟!.

القضية ليست قضية تشكيك
في تراث الأمة الديني، وإنما هي قضية
تحقيق علمي، على كل طرف من أطراف النزاع
أن يقدم الدليل والبرهان على صحة
ما ذهب إليه، بحرية كاملة

ألم يقل رسول الله للسيدة عائشة (رضي الله عنها) يوما أريد ماء؟!. ألم يقل رسول الله لأحد «لا تغضب» والذي هو تفعيل لكثير من نصوص القرآن؟!.

ولكن هذه ليست الإشكالية التي هي محل بحثي ودراساتي، فتفعيل رسول الله للنص القرآني هو أصلا تفعيل لنص «قولي» إلهي:

. إنه إعادة لصياغة الآية القرآنية ولتوجيهاتها بلغته (صلى الله عليه وسلم) وتعبيراته: وليس بيانا لمعناها اللغوي، وإلا نكون قد هدمنا بهذه الدعوى الآية القرآنية التي تحدى الله بها أهل اللسان العربي، أهل الفصاحة، أن يأتوا بمثلها!!. فهل يعقل أن يتحدى الله تعالى العرب بكلمات لا تُفهم؟!!.

. وليس إنشاء نص قولي تشريعي جديد يكون من محتوى رسالته التي أمره ربه أن يدونها في الصحف لتكون للعالمين منهج هداية!!.

وإلا نكون بهذه الدعوى قد اتهمنا رسول الله بالتقصير في تدوين هذا المصدر الثاني للتشريع وتوفي (صلى الله عليه وسلم) تاركا هذا المصدر بين أيدي الناس، والرواة والمحدثين يصححه من يصححه، ويضعفه من يضعفه!!.

. أما ما حمله هذا النص «القولي» الإلهي من أحكام مجملة تحتاج إلى بيان كيفية أدائها، فهذا ما تعلمته الأمة عن رسول الله بالتقليد والمحاكاة، جيلا عن جيل، وليس من خلال نصوص أمر رسول الله بتدوينها في الصحف (كالقرآن) فهذا التدوين جاء لاحقا لمنظومة الأداء العملي لهذه الأحكام المجملة.

فلا فرق بين فرضية النص المجمل الآمر بأداء عبادة معينة، وبين بيان الرسول لكيفية أداء هذه العبادة، من حيث حفظ الله لأصول هذه الكيفية عبر منظومة التواصل المعرفي (ولهذا الموضوع دراسة مستقلة)، ذلك لأن هذه الكيفية تابعة للنص المفروض من الله تعالى، والمحفوظ بحفظ الله له، وليست نصا تشريعيا مستقلا عنه.

ولا يقاس على ذلك فيقال: إن الأحاديث القولية المنسوبة إلى رسول الله تأخذ نفس حكم هذا الأداء العملي: وذلك لأننا لا نملك دليلا قطعيا على أن الله أنزل على رسوله نصا تشريعيا قوليا... أمره الله أن يدونه في الصحف... وتحت إشرافه (صلى الله عليه وسلم).. ليكون من محتوى رسالته العالمية الخاتمة... غير النص القرآني.

قد يكون هناك كلام بين الله ورسوله خاصا بأحداث عصر الرسالة، ولكنه ليس



من محتوى رسالة الله للعالمين، لذلك لم يتضمنه القرآن، ولم يأمر الله تعالى رسوله بتدوينه في المصحف، كشريعة واجبة الاتباع إلى يوم الدين!!.

إن ما ورثته الأمة من أحاديث منسوبة إلى رسول الله لا يستطيع عاقل أن ينكر ثبوتها عن الرواة الذين نقلوها، ولا يستطيع عاقل أن يشكك في إمكانية أن تكون قد حملت أقوالا فعلية لرسول الله، ولكن الإشكالية ليست في ثبوتها أو عدم ثبوتها عن الرواة، أو عن رسول الله (فقد تكون خاصة بعصر الرسالة) وإنما الإشكالية في ثبوتها عن الله تعالى كنص تشريعي واجب الاتباع إلى يوم الدين، الأمر الذي يحتاج إلى أدلة قطعية لا تختلف عن أدلة حجية كتاب الله تعالى!!!.

فإلى أن يصل علماء الفرق والمذاهب المختلفة إلى هذه الأدلة القطعية المجمع عليها بينهم، فليجتمعوا حول النص القرآني وتفعيله في واقع حياتهم!!. لأنه يستحيل أن تتحول طاعة رسول الله بعد وفاته من قضية إيمانية يقينية ونصوص قطعية وضع حدودها الله تعالى في عصر الرسالة، وقام بتفعيلها رسول الله وصحبه الكرام، إلى قضية ظنية الثبوت لا عن الله تعالى ولكن عن رسوله.

وإذا نظرنا إلى مسألة استقلال الأحاديث (المنسوبة إلى الرسول) بالتشريع سنجدها محل خلاف بين علماء الفرق، بل وبين علماء مذاهب الفرقة الواحدة وذلك لضعف الأدلة التي يُعتمد عليها في إثبات حجيتها مقارنة بحجية كتاب الله تعالى، والمكتبة الإسلامية (للفرق والمذاهب المختلفة) خير شاهد على ذلك!!.

لقد قرأت بحثا بعنوان: «السنة كلها تشريع»، وآخر «السنة والتشريع» للأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين (نائب رئيس جامعة الأزهر سابقا ورئيس مركز السنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية) وجه فيهما اتهامات خطيرة لكل من: فضيلة الشيخ محمود شلتوت (شيخ الأزهر الأسبق). والدكتور عبد المنعم النمر (وزير الأوقاف الأسبق). والدكتور يوسف القرضاوي (رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين وعضو المجلس العالمي الأوروبي للإفتاء).

وذلك لإيمانهم بأن السنة تنقسم إلى: سنة تشريعية وغير تشريعية، وفضيلته يؤمن بأن السنة كلها تشريع!!!، ومن هذه الاتهامات الخطيرة التي تشكك في صدق إيمان هؤلاء، قول الدكتور موسى في بحثه «السنة والتشريع» ص ٤٧:

«لكن مشكلة العصر تشكيك بعض علماء المسلمين فيها بصفة عامة بهدف أو بآخر، ولا نبالغ إذا قلنا: إن أعداء الإسلام والمستشرقين بل والاستعمار والغزو الثقافي وراء هذه المحاولات، أو بالأحرى وراء بعض هذه المحاولات، ومما لا شك فيه أن كثيرا ممن يرفع عقيرته في السنة بغير علم قد رضع لبنا غير لبانها وفطم عن ثدي غير ثديها سواء أدرك ذلك أو لم يدرك». اهـ

ويرد الدكتور موسى (ص ٥٥): على ما قاله الدكتور عبد المنعم النمر في كتاب له باسم «السنة والتشريع»، فيقول:

يقرر الباحث أن له أن يجتهد كما كان الرسول يجتهد، ويبيح لنفسه أن يخالف حكم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصريح لفظه ونص حديثه، فيقول في كتابه: «مادام الرسول كان يجتهد، وما دام هذا الاجتهاد قد شمل الكثير من أنواع المعاملات أفلا يجوز لمن يأتي بعده من أيام الصحابة، وحتى الآن، أن يدلي في الموضوع باجتهاده أيضا، ولو أدى اجتهاده إلى غير ما قرره رسول الله باجتهاده، ولا يصبح ما قرره الرسول باجتهاده حكما ثابتا للأبد». اهـ

ثم يؤكد الدكتور موسى اتهامه للدكتور عبد المنعم النمر بقوله ص ١٠٢: «قد أكون أطلت بعض الشيء، وعذري أن البحث خطير (يقصد كتاب الدكتور النمر) بل وأخطر ما كتب عن السنة حتى اليوم وأخطر من كتابة المستشرقين والمبشرين، لأنه ممن ينتسب إلى العلماء المسلمين». اهـ

ويقول الدكتور موسى في بحثه (السنة كلها تشريع) ص ٥٨: «هذه القضية (السنة كلها تشريع) لم يخالف فيها أحد من علماء المسلمين في أربعة عشر قرنا مضت. ولم نسمع ولم نعلم أن واحدا من علماء المسلمين قسم السنة (أي الحديث) إلى تشريع وإلى غير تشريع، حتى كان النصف الثاني من القرن الخامس عشر الهجري فكان أول من قسم السنة إلى تشريع وإلى غير تشريع فضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت في كتابه «الإسلام عقيدة وشريعة». اهـ

ثم ينقل عن الدكتور يوسف القرضاوي قوله: «وعن الشيخ شلتوت أخذ الكثير من المعاصرين فيما كتبوه عن السنة وتقسيمها إلى تشريعية وغير تشريعية». اهـ. وينقل الدكتور موسى رأي الشيخ شلتوت:

«أن كل ما ورد عن النبي، صلى الله عليه وسلم، ودون في كتب الحديث من أقواله وأفعاله وتقريراته وكان على سبيل الحاجة البشرية (كالأكل.. التزاور.. والشفاعة والمساومة في البيع والشراء) أو كان على سبيل التجارب والعادة الشخصية أو الاجتماعية (شئون الزراعة، الطب، اللباس) أو على سبيل التدبير الإنساني (كتوزيع الجيوش..وكل ما يعتمد على وحي الظروف الخاصة). فكل ذلك ليس شرعا يتعلق به طلب الفعل أو الترك وإنما هو من الشئون البشرية التي ليس مسلك الرسول فيها تشريعا ولا مصدر تشريع». اهـ

ثم يعلق الدكتور موسى على ذلك بما سبق أن قاله بالنسبة للدكتور عبد المنعم النمر، ثم يقول ص٦٢: «وأحدث من كتب في موضوعنا بإسهاب، وتولى العرض بحماس ونادى بصوت عال عن وجود سنة غير تشريعية الدكتور يوسف عبد الله القرضاوي....».

وفي ص٧٢ قال: «وهكذا يتبين أن الشبهات التي تعلق بها المخالفون شبهات واهية. نشأ أكثرها من التباس الأمر عندهم، بين التشريع الملزم المطلوب والتشريع غير الملزم وغير المطلوب!!. لكنهم كلهم على اختلاف مناهجهم ينفون التشريع عن بعض أفعاله، صلى الله عليه وسلم، بل ينفون الرسالة عنه في بعض أقواله كلهم يقول ذلك، والفرق بينهم في الأفعال التي تطبق عليها هذه الصفة». اهـ

وأخطر ما في هذه القضية استدلال الدكتور موسى على موقف هؤلاء العلماء من «السنة» بآيات قرآنية تحذر من الضلال، وتنفي صفة الإيمان عمن يفعل فعلتهم، كقول الله تعالى في سورة الأحزاب:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

وقول الله تعالى في سورة النور:

﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

حيث يقول الدكتور موسى: «وما كان لمسلم يبلغه حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيرده زاعما أن المصلحة في خلافه...»!!! لقد ساوى الدكتور موسى بين مخالفة أمر الرسول (الذي بينته الآية السابقة لهذه الآية) وهو قوله تعالى مخاطبا المعاصرين لرسول الله «وإذا كانوا معه على أمر (جامع) لم يذهبوا حتى يستأذنوه» وهو موقف يجمع رسول الله شخصيا مع المؤمنين لأمر عام يستوجب عدم الانصراف إلا بعد استئذان!!.

وبين مخالفة ما بلغه الرواة من أحاديث منسوبة إلى رسول الله، والتي لم تدون في كتاب واحد (مجمع) عليه (إلى يومنا هذا) بين علماء الفرق والمذاهب المختلفة (منذ ظهورها)!!!. فهل يعقل أن تحل المرويات الظنية المنسوبة إلى رسول الله محل شخصه الكريم، صلى الله عليه وسلم، بحيث يكون لمخالفتها نفس العقوبة التي تترتب على مخالفته في حياته؟!!.

كما استدل فضيلته بقول الله تعالى في سورة النساء:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

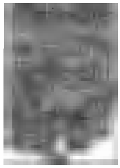
لقد أتيحت لي فرصة أن أناقش فضيلة الدكتور موسى شاهين لاشين في بيته حول هذه النظرة التخاصمية بين علماء المذاهب الفكرية المختلفة، وكان محور تعليقاتي هو: إن الخلاف بين العلماء (مهما كان حجمه) لا يجب أن يدخل دائرة التخاصم والاتهام بالضلال!!.

إننا جميعا نركب سفينة واحدة في مواجهة تحديات عالمية تريد محو هويتنا بل واقتلاعها. وإن ما آمن به هؤلاء العلماء لا يتضمن بأي حال من الأحوال مخالفة للنبي، فلو بعث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليعيش معنا اليوم فإنه لم يكن ليأمرنا أن نستنجي بالحجارة ثلاثا، أو أن نركب الدواب بدلا من السيارات، أو أن نعود إلى نظام المقايضة في البيع والشراء وأن نقاتل بالخيل والسيف بدلا من الصاروخ والطائرة!!!. ولو كان هؤلاء العلماء الثلاثة (وأنا معهم) في عصر النبي لفعلنا ما يأمرنا به مما يقتضيه عصر النبوة سمعا وطاعة!!!.

لقد كان محور رد فضيلته على تعليقاتي قوله:

إن هؤلاء العلماء أقروا بصحة الحديث، ولكنهم لا يعتبرونه سنة تشريعية إلى يوم الدين، وهذه هي الإشكالية التي وقعوا فيها، أما أنت فقضيتك ليست في صحة الحديث أو ضعفه، لوجود شبهة عندك في قطعية ثبوت الحديث أصلا عن رسول الله، لذلك لا يستطيع أحد أن يتهمك أو يعترض عليك لوجود هذه الشبهة.

إن إشكالية الأمة تتحدث عن نفسها، لذلك علينا أن نتحرك من واقعنا المعاصر، ونواجه مشكلتنا بفهم وإدراك، ونعيد الاتصال بعصر الرسالة كنقطة انطلاق نحو الخيرية التي وعدنا الله تعالى بها



ومثال آخر أشد خطورة: لقد كتب فضيلة الشيخ الغزالي كتابه: «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» فقوبل بسيل من الاتهامات، وحكم عليه بعض العلماء والدعاة بالردة وهو الذي أفنى حياته في الدعوة الإسلامية، بل وتربع على عرشها. ولكن لماذا؟!!، لأنه خالف في كتابه مقدمات فرضتها مرويات ثقافة التخاصم على المسلمين باعتبارها من السنة التشريعية الواجبة الاتباع.

لقد قمت على الفور بمقابلة الدكتور عبد الله المشد (رئيس لجنة الفتوى الأسبق) في أواخر يناير عام ١٩٩٠) لمناقشته في قضية تكفير الشيخ محمد الغزالي، وقلت له: هل يعقل أن ينزل الله نصا تشريعيا مستقلا عن كتاب الله (يحكم على منكره بالكفر) ثم لا يأخذ نفس خصائص نصوص القرآن، من حيث الحفظ الإلهي وإشراف الرسول على تدوين نصوصه، ومراجعتها وإقرارها قبل وفاته؟!!.

وفي نهاية الحوار، طلبت من فضيلته (بصفته الوظيفية) أن يضع حدا لهذه الفتاوى التكفيرية التي يرفعها كل من هب ودب سلاحا في وجه كل من يخالف مذهبه، بل وفي وجه كل مفكر مسلم مخلص لدينه محب لله ورسوله، يريد أن يدفع عن رسول الله ما نسب إليه، صلى الله عليه وسلم، من افتراءات لا يقبلها مسلم، خاصة وقد وصل سلاح التكفير لقمة من قمم الدعوة الإسلامية، فطلب مني الدكتور المشد أن أتقدم بطلب للجنة الفتوى بالأزهر الشريف أحدد فيه مطلبي، وكان سؤالي لها: «ما حكم من أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم، هل يعد كافرا؟!!. ولقد جاءت الفتوى الصادرة في ١/٢/١٩٩٠ على النحو التالي: «وعلى هذا فمن أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم فهو منكر لشيء اختلف فيه الأئمة ولا يعد مما علم بالضرورة فلا يعد كافرا».

ولقد طلب فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهري من الدكتور المشد نشر هذه الفتوى، تضامنا منه مع الشيخ الغزالي، بعد غمزه ولمزه، وبعد هذه الحملة الشرسة التي قادها أنصار ودعاة الفرقة والمذهبية ضد هذا العالم الجليل، والتي ما زالوا يقودونها رافعين سلاح الردة في وجه المخالف لهم في المذهب!!.

ولقد وعد الدكتور عبد الله المشد بنشرها في كتاب له، ولكن لما طال الانتظار قام فضيلة الشيخ الغزالي بنشرها في كتابه: «تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل» (ط١، ص١٧٥).

والشيخ محمد الغزالي يرى أن النص التشريعي الذي لا يقبل خلافا بين علماء المسلمين (لقطعية ثبوته عن الله عز وجل) هو النص القرآني، وما عداه فيقبل الخلاف (لظنية ثبوته عن الله تعالى) وأن السنة النبوية بيان لهذا النص القرآني، ولا تكون أبداً حاكمة عليه. ويعلق على هذه الفتوى (في كتابه المشار إليه سابقا ص١٨٦) فيقول:

«والفتوى التي نقلناها تشير بشيء من الإجمال إلى رأي الأزهر في ضرورة التعويل على القرآن أولا، وإلى أن العقائد لا تستقل بإثباتها أخبار الآحاد. وما نوصي به هو تدبر القرآن الكريم، وإدامة النظر فيه، واستصحاب معانيه عند قراءة السنن. أما أن يكون المرء عابر طريق أمام آيات الله، ومطيل المكث أمام بعض الأخبار، فهذا غير سائغ... لا يجوز أن يكون المرء أعشى أمام القرآن وحاد البصر أمام الأحاديث، وقد سمعت كلمات سمجة في هذا المجال!! قال بعضهم: حاجة الكتاب إلى السنة أشد من حاجة السنة إلى الكتاب... وهذه موازنة خاطئة... نحن نؤمن بالكتاب والسنة معا، ونؤمن بأن السنة فرع والكتاب أصل، ونؤمن بضرورة الاستيقان من أن الرسول قال، وأن هذا الاستيقان لا يتم إلا بوزن السند والمتن معا... وهذا منهج العلماء الراسخين ورجال الثقات، ولا تعويل على من دونهم!!».

وفي ص١٨٧: يوضح موقفه من السنة فيقول: «والخلاصة أن السنة لا تكون إلا بيانا للقرآن، بيانا يتسق مع دلالاته القريبة والبعيدة. ويستحيل أن تتضمن معنى أو حكما يخالف القرآن الكريم».

وفي كتابه: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» (ط١، ص٦) يقول: «والقرآن الكريم خلاصة ما أنزل الله من وحي في القرون الأولى، وقد توافر له من الحفظ ما ضمن له الخلود...

ولا يوجد في الأولين والآخرين كتاب وعته القرائح وسجلته الصحائف وحفه التواتر حرفا حرفا إلا هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلو سأل سائل: أين وحي الله في هذا العصر؟!. لما كانت الإشارة إلا إلى القرآن، ولا الإشادة إلا بكلماته...».

وفي كتابه: «المحاور الخمسة للقرآن الكريم» الطبعة الثانية ١٩٩٧م ص٥:

«عندما يسأل المسلمون: هل لله وحي يهدي العالم القديم والجديد إلى الحقائق ويخرج الناس كلهم من الظلمات إلى النور، فإن إجابتهم المفردة: نعم، هذا القرآن الكريم.

الثقة في هذا الكتاب وحده، الذي لم ترق إليه شبهة، والذي لم يختلط فيه الوحي الأعلى بفكر بشر...».

ويقول ص٦: «ومن بدء الوحي لا يوجد إلا هذا المصحف ولن يوجد غيره ما بقيت الدنيا».

وفي ص٧: «إننا نحن المسلمين نقول في رسوخ وشموخ: ليس في القارات الخمس ما يسمى وحيا محضا إلا هذا الكتاب الذي لا ريب فيه... ولن يعرف الله معرفة صحيحة إلا من التأمل في معانيه ومغازيه».

وفي ص١٠: «ليت المسلمين استقوا عقائدهم تصورا وتصويرا من القرآن وحده، إذن لأراحوا واستراحوا».

وفي ص٦٥: «ولن يبصر المسلمون الطريق إلا إذا عادوا إلى الفلسفة القرآنية العملية وفقهوا قوله تعالى في سورة الحديد:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾

والخـــــلاصــــــة:

إن المسلم المحب لله ولرسوله لا يمكن أن يترك نصوص «السنة النبوية» المحكمة والثابتة ثبوتا قطعيا بشهادة النص القرآني نفسه (رسالة الله للناس كافة) ويذهب إلى مرويات البشر واجتهاداتهم المذهبية الظنية الثبوت، يبحث وينقب فيها ويتحرى ما صحت نسبته إلى رسول الله كي يتبعه!!. أي رحمة إلهية في هذا المنهج المذهبي؟!!.

وهل الذي يدعو علماء ودعاة الفرق والمذاهب المختلفة إلى خلع ثوب المذهبية والفرقة: من سنة وشيعة ومعتزلة وخوارج (وغيرها من المذاهب المتفرعة عن هذه الفرق) ورفع راية واحدة هي راية الإسلام، هل يتهم في دينه وعقيدته؟!!!.

ألم نبصر ثمرة الفرقة وما سفكت في سبيلها من دماء، وجذور التخاصم التي زرعتها الاختلافات المذهبية عبر العصور؟!!. ألم نعلم شيئا عن التفجيرات الانتحارية التي أصبحت ظاهرة يومية تنذر بمحو الهوية الإسلامية من العالم العربي والإسلامي؟. لماذا يصر كثير من علماء الفرق والمذاهب الإسلامية على تقديس ثقافة التخاصم؟!!!.

إن الحقيقة التي لا شك فيها (والتي يؤيدها واقع تراث الأمة الإسلامية المذهبي عبر العصور) أن الذين يتهمون من يدعو إلى العودة إلى قراءة القرآن (قراءة تتناسب مع كونه آية يجب أن تظهر فاعليتها اليوم) يتهمونه بالخروج من دين الله عز وجل يقصدون في واقع الأمر الخروج من الدين الذي فرضه أتباع الفرق والمذاهب المختلفة على أولادهم يوم ولادتهم، والذين لم يكن لهم وقتها حرية اختياره.

إن الأمة الإسلامية المقطعة أوصالها اليوم لم تحظ بأي تأييد إلهي ينصرها على عدوها المحتل لأرضها، السالب لكرامتها، الناهب لخيراتها، المحطم لعزتها مع ما لديها من قوة عسكرية ترمى بها. فلماذا لا تنتصر على عدوها؟!!.

إنها دعوة إلى جموع المسلمين وقيادات العمل الإسلامي ومنابر الدعوة إلى الفرقة والمذهبية (التي أصبحت تحتل مساحة كبيرة اليوم على القنوات المحلية والفضائية) وحركات الدعوة المنتشرة حول العالم، دعوة إلى إعادة النظر في الشق الثاني من الآية الكريمة من سورة الأنفال: «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» والمتعلق بشرط رضا الله تعالى عن المسلمين كي يؤيدهم بنصره على عدوهم!!.

إن رضا الله لا يتحقق إلا بإخلاص الدين لله تعالى (عقيدة وشريعة) وإعداد القوة التي ترهب عدو الله، والتي يعمل لها العدو ألف حساب قبل أن يفكر في الإضرار بالمسلمين أو الاقتراب من أراضيهم. فأين نحن من هذه القوة؟!!. لماذا انحسر العمل الإسلامي في انشغال كل فرقة وكل مذهب داخل الفرقة الواحدة بأجندته الفقهية الخاصة به مع بقاء فقه التكفير والتخاصم في هذه الأجندة؟!!.

إن الذي يميز المسلمين اليوم هو المظهر العام الذي قوامه الشعائر التعبدية: من

عندما أقول فلنجتمع حول نصوص القرآن وما اتفقنا عليه من كيفيات الأداء العملي لما أجمله من أحكام، لا أقصد بذلك هدم تراث الأمة الديني، وما يحتويه من أحاديث قولية منسوبة إلى رسول الله



هـــذا الكتـــاب

■■ إن السنة النبوية ليست تراثا روائيا مذهبيا تتخذه كل فرقة لتدعيم توجهاتها المذهبية المختلفة، وإنما هي حقيقة قرآنية تقوم على تفعيل كافة المسلمين لذات النص القرآني المعجز في كل عصر، وفق إمكانياتهم العلمية والمعرفية.

بهذا النص ختم مؤلف كتاب «السنة النبوية حقيقة قرآنية» إيضاحه لفكرته عما ينبغي أن يراد بعبارة «السنة النبوية» في ضوء قول الله في سورة النساء:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

وقد جاء في آيات القرآن لفظ «السنة» مضافا إلى لفظ الجلالة: «سنة الله»، وورد أيضا مضافا إلى السابقين من رسل الله: «سنة الله في الذين خلوا من قبل» كما جاء ضمن قوله تعالى في سورة الأحزاب منسوبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم:

﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾

فسنة النبي هي ما فرض الله له وعليه كما مضت سنته في الذين خلوا من قبل، ولكن التطور الدلالي أصاب لفظة «السنة»، فجعلتها الأجيال مقصورة على ما ورثنا عن الماضين من تعريفها بأنها:

«ما أثر عن النبي، صلى الله عليه وسلم، من قول أو فعل أو تقرير أو صفة». وبذلك ازدوج معنى «السنة»:

أ. فهو أولا: ما يتعلق بتفعيل النص القرآني في شكل أفعال وسلوكيات تتمثل في تطبيق النبي للنص القرآني.

ب. وهو ثانيا: المأثور عن النبي من أقواله وأفعاله وتقريراته وصفاته.

ومن الواضح أن المؤلف قد لاحظ أن المعنى الثاني هو ما أدى إلى انقسام الأمة الإسلامية إلى فرق وطوائف، وأحزاب، بحسب ما انتهى إليهم من آثار السنة النبوية بالمعنى الثاني، ولعله هو مضمون إشارة القرآن عن «الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون» (الروم/ ٣٢).

فأما المعنى الأول فهو الذي اعتمده المؤلف منطلقا إلى بيان المراد بالسنة النبوية حسب اختياره، وهو يوشك بهذا الاختيار. في نظر الفرق والمذاهب. أن يتجاهل المعنى الثاني الذي تستند إليه في تبرير وجودها وتعددها.

والواقع أن هذا المعنى الثاني ليس موضوع دراسته واجتهاده، وهو يؤكد دائما اتجاه القرآن الكريم إلى توحيد الأمة ويحذر من انقسامها، في آيات كثيرة:

قول الله تعالى في سورة آل عمران:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

وقول الله تعالى في سورة الأنعام:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

وقول الله تعالى في سورة الأنفال:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

غير أن الزمام قد أفلت. فيما يرى. فانقسمت الأمة وتشرذمت لعوامل مختلفة أهمها. في رأي المؤلف. تناقض المرويات عن السنة واختلاف التفسيرات التي يستند إليها المتفرقون.

ونحن نرى أن الدوافع إلى الانقسام كانت مؤامرات عديدة، عملت على تفريق الأمة الواحدة، إلى حد أن صارت كل فرقة ترى أنها هي صاحبة الحق، وأن ما عداها خارج عن الملة، كافر بدين الله.

وقد جاهد أنصار الانقسام في التماس النصوص التي نسبوها إلى بيان النبوة بل ولقد وضعوا ما زعموا أنه من أحاديث الرسول ليدعموا مواقفهم الشاذة وهكذا اختلط الحابل بالنابل في بناء الأمة الواحدة.

إن محاولة المؤلف التي تقوم على اعتبار «السنة» هي الصورة الفعلية للبيان القرآني، تخرجنا. في رأيه. من المأزق الذي تورطت فيه الفرق المختلفة استنادا إلى مروياتها المريضة، وتضعنا مع النص القرآني العقلي في التزام النبي بأوامر القرآن، وهو ما عبر عنه بعبارة «تفعيل النص القرآني» وهذا التفعيل هو «السنة النبوية» لا غير.

ولذلك صار في وسعه أن يتصور التطابق بين معنى «السنة النبوية» والحقيقة القرآنية، وهو اتجاه أثار كثيرين من أهل الدعوة، بدعوى أن المؤلف منكر للسنة بالمعنى الثاني، وهو ما يترتب عليه إهدار «ما أثر عن النبي قولا أو فعلا أو تقريرا أو صفة». وهو تراث يتجاوز مئات الألوف من أحاديث الرسول سواء أكانت صحيحة أم غير صحيحة!!... وقد عالج هذا الجانب علماء الجرح والتعديل.

والحق الذي نراه جمعا للشمل، وتوفيقا بين الجانبين، قد يدل عليه مضمون قوله تعالى في سورة المائدة:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

فالأمر بالتبليغ في الآية يشمل التبليغ بالقول والفعل لما أنزل إليه من ربه وقوله «وإن لم تفعل» ليس معناه في رأينا «وإن لم تبلغ» بل المقصود أن يكون التبليغ بالفعل، أي بلغ ما أنزل إليك بالقول وبالفعل، فإن بلغت بالقول فقط ولم تفعل، فما بلغت رسالته، وهو أيضا مضمون قوله تعالى في سورة الصف: «لم تقولون ما لا تفعلون...» الآية، أليس هذا هو المقصود بتفعيل النص القرآني؟!، وعليه يمكن أن يكون المقصود بالسنة النبوية في رؤية المؤلف: «التبليغ النبوي بالفعل»، وحينئذ ينفض الاشتباك، ويبرأ المؤلف من شبهة إنكار السنة بالمعنى الثاني. إن الجهد الذي بذله الدكتور محمد مشتهري في تأليف هذا الكتاب، طبقا لفكرته عن «تفعيل النص القرآني»، لم يسبق أن بذل مثله مؤلف صاحب فكرة بناءة كهذه الفكرة، وإنه ليستحق أن يهنأ بما حالفه من توفيق الله وعونه.

ولا ريب أن فكرته قد فتحت بابا واسعا للدعاة، يثري عطاءهم، ويجدد نداءهم لجماهير المسلمين أن يعودوا إلى لواء الوحدة الإسلامية، يستظلون به ويشربون تعاليمه، وينبذون الفرقة التي مزقتهم على مر التاريخ.

ولا ريب أن الرجوع إلى القرآن بتفعيل نصوصه، واستنطاق آياته، في ضوء البيان المحمدي الفعلي سوف يعيد للأمة حيويتها، ويزيد من طاقتها، ويعدل كثيرا من سلوكياتها، وهو أمل تطمح إليه جميعا، حيث تجتمع القلوب وتتعانق الإخوة المؤمنون ويومئذ يفرحون بفضل الله. ■

عبد الصبور شاهين

صلاة وقيام ودعاء، وصيام، وإنفاق غير حكيم، وحج وعمرة، وتجارة بالدين (عبر التسجيلات الصوتية التي تحمل مواعظ التطرف الداعي إلى الفرقة والتخاصم والتكفير وسفك الدماء بغير الحق) فلماذا لم ينصرنا الله تعالى وهذا هو حالنا؟!.

لماذا لم يمكّن الله تعالى دينه الذي ارتضاه لنا، لنصبح بنعمته إخوانا، أمة واحدة تحمل أجندة فقهية واحدة للعمل الإسلامي؟!. لماذا لم يبدل الله تعالى خوف المسلمين أمنا؟!. إنها مقومات القيام بأمانة الشهادة على الناس التي شرف الله تعالى بها هذه الأمة، فهل من سبيل للخروج من عنق الزجاجة؟!.

أين هي الأمة الإسلامية؟!!. ولا أقول أين هم أهل السنة ولا الشيعة ولا المعتزلة ولا أقول أين الحنفية والحنابلة إلى آخر هذه الأحزاب المتصارعة. أين المسلمون الذين لم يسمهم الله بهذه المسميات المذهبية وإنما سماهم «المسلمين» ليكونوا شهداء على الناس، لا ليتصارعوا فيما بينهم ويكفر بعضهم بعضا؟!. تدبر قول الله تعالى في سورة الحج:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

لقد حذر الله تعالى المسلمين من الفرقة ومن اتخاذ أسماء وهويات وجماعات دينية لم يشهدها عصر الرسالة، ولا كانت من سنة رسول الله التي أمره ربه باتباعها!!. ثم ها هم الآن يصرخون، وتنتفخ دماؤهم على منابر الدعوة في وجه المخالف لهم في المذهب بل وفي وجه القطب الواحد الأمريكي المسيطر اليوم على مقدرات شعوب العالم، والذي أصبح ينظر إلى المسلمين نظرة تخوف من هذا التنين المخلوط الذي يهدد مصالحه ومصالح أبنائه في المنطقة!!.

ها هم يصرخون دفاعا عن فرقتهم وعن مذاهبهم وتخلفهم الحضاري، مكتفين بما حصلوا عليه من منابر الدعوة المذهبية عبر وسائل الإعلام، يطلقون منها فتاوى التخاصم والتكفير والتطرف والخرافات والتغييب العقلي، فيسلمون رقابهم بأيديهم إلى هذا المارد الجبار، ويهدونه أدوات الطعن في دينهم وفي إسلامهم ليغتصب بها حقوقهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!!. ■

الإرهاب على الطريقة البريطانية

عزام التميمي

* * تعيش بريطانيا أجواء من الرعب غير مسبوقة، وذلك منذ أن أعلنت السلطات الأمنية البريطانية في أغسطس الماضي عن كشف خطة تستهدف تفجير طائرات ركاب أثناء طيرانها عبر الأطلسي بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. ومصدر الذعر والهلع ليس الإعلان عن اكتشاف الخطة. فقد سبقها إعلانات كثيرة عن نوايا وخطط قيل إنها كانت تستهدف البلاد والعباد بأعمال إرهابية، ولكن لم يحصل من قبل ما حصل الآن. الجديد في الأمر هو الإجراءات الأمنية المفاجئة التي فرضتها السلطات في مطارات البلاد وما لبثت أن انتشرت إلى مطارات الدنيا قاطبة، حتى أضحى السفر جحيماً لا يطاق. فقد ألغى مطار هيثرو كافة الرحلات المحلية والأوروبية لما لا يقل عن ٤٨ ساعة، وأدخلت سلطاته الأمنية إجراءات تفتيش لم يسبق أن لجأت إليها من قبل، إذ منع المسافرون من اصطحاب أي شيء معهم على متن الطائرة، فلا حقيبة يد، ولا كتاب، ولا معجون أسنان، ولا هاتف نقال، ولا شيء يعمل بالبطاريات أو الكهرباء مهما صغر، ولا سائل أياً كان لونه أو طعمه أو رائحته، وجرد المسافرون من كل ما بحوزتهم حتى لم يبق إلا أن تنزع عنهم ملابسهم.

في كل المرات السابقة كان الناس يسمعون عن الخطط المزعوم كشفها من خلال وسائل الإعلام دون أن يشعروا بها أو بأي أثر لها، أما الآن فقد عانى عشرات الآلاف من المسافرين الذين إما ألغيت رحلاتهم أو تأخرت ساعات طويلة بينما افترشوا أرصفة الشوارع المحيطة بالمطار، وهؤلاء شعر بهم عشرات الآلاف من أقاربهم ومعارفهم المودعين لهم أو المستقبلين، مما رسخ في أذهان أكبر نسبة من الشعب البريطاني هاجس اقتراب الخطر الداهم من عتبة بيت كل واحد منهم.

ما من شك في أن الحكومة البريطانية نجحت هذه المرة فيما فشلت فيه مرات عديدة من قبل. فمنذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر والسلطات تحاول جاهدة إقناع الرأي العام البريطاني بأن خطر الإرهاب محدق بالجميع، وبأنها إزاء ذلك مضطرة لإدخال تعديلات قانونية تسمح بردع من تسول له نفسه النيل من استقرار البلاد، فجاءت محاولات تمرير قانون الإرهاب



بصيغه المختلفة بهدف الحد باسم القانون من الحريات المدنية وتجاوز حقوق الإنسان الأساسية التي ما فتئ البريطانيون يفتخرون بريادة العالم في التمسك بها والدفاع عنها. ورغم كل المحاولات السابقة، ورغم تعرض شبكة قطارات الأنفاق اللندنية لحملة تفجيرات في السابع من تموز (يوليو) ٢٠٠٥ إلا أن الرأي العام ظل متشككاً لا تنطلي عليه الادعاءات الرسمية، واستمرت المؤسسات التشريعية والقانونية مدعومة بقطاع واسع من الإعلام المستقل ومؤسسات المجتمع المدني تقاوم إلحاح حكومة طوني بلير على فرض ما يشبه حالة الطوارئ في طول البلاد وعرضها.

لم يعد ثمة شك في أن البلاد البريطانية مهددة، فتفجيرات تموز أثبتت ذلك يقيناً، إلا أن فشل الأجهزة الأمنية في اكتشاف ذلك المخطط قبل وقوعه وثبوت عدم صدقية كل ما زعمته السلطات من مخططات أخرى، أوقع الحكومة في مأزق كبير، حتى أصبح من المألوف سماع الناس يتحدثون عن مسلسل الكذب الحكومي. ولعل هذا ما يدفع بكثير من الناس إلى التردد في قبول الرواية الحكومية حول المخطط الأخير، وحتى بعد توجيه المدعي العام في الحادي والعشرين من آب (أغسطس) تهماً بالتخطيط للقتل العمد لثمانية من الموقوفين الأربعة والعشرين.

لا يتسع المجال هنا لسرد قائمة بكافة المخططات والمؤامرات التي زعمتها السلطات الأمنية ولم تثبت صحتها، والتي يأتي على رأس قائمتها الزعم بأن الحرب على العراق كانت ضرورة ملحة للحيلولة دون أن يستخدم نظام صدام حسين ما ادعى الساسة الأمريكان والبريطانيون من أنه أسلحة دمار شامل، ذات قدرة على ضرب الشواطئ الجنوبية للقارة الأوروبية. كما زعموا أيضاً بأن حربهم على الإرهاب كان لابد أن تشمل العراق بسبب ما ادعوه من دليل لا مجال لدحضه على وجود علاقة تعاون وتنسيق بين القاعدة والنظام العراقي، ورافق ذلك الادعاء الذي ثبت كذبه فيما بعد أن العراق اشترى كمية من اليورانيوم من دولة النيجر لاستخدامها في مشروع نووي مزعوم. ولإقناع الرأي العام المتشكك، وقبيل شن الحرب بأسابيع قليلة، أمرت السلطات البريطانية

توقيت الكشف عن الهجمات على بريطانيا لم يكن بمعزل عن تطورات الأوضاع فى لبنان، حيث كان يدمر بأيدى الصهاينة وكان الرأى العام يتجه نحو التنديد بالموقف الأمريكى ـ البريطانى الذى عطل جهود وقف العدوان

الجيش بالانتشار حول مطار هيثرو فى شهر فبراير (شباط) ٢٠٠٣ بينما كان الحجاج المسلمون البريطانيون يتأهبون للعودة إلى بريطانيا بعد استكمال مناسكهم. وادعى السياسيون البريطانيون حينها بأنهم توفرت لديهم معلومات استخباراتية تؤكد بأن مسلمين إرهابيين يعدون لإسقاط طائرات ركاب بالصواريخ يطلقونها بزعمهم من مبان محيطة بالمطار. وتم بشكل أو بآخر ربط هذا المخطط بالحجيج والحج، لإلصاق التهمة بالإسلام ديناً وبالمسلمين أمة. ومنذ ذلك الوقت وإلى ما بعد غزو العراق بشهور تعرض ما يقرب من ألف مسلم للاعتقال لفترات متفاوتة للشك فى ضلوعهم فى مخططات إرهابية، وسربت إلى وسائل الإعلام معلومات مختلقة حول وجود خلايا من الشباب الجزائريين الذين كانوا يعدون لصنع قنبلة من «حبوب الخروع»، ولم تصمد التهم أمام القضاء البريطانى النزيه الذى كشف النقاب عن أن المصدر الوحيد لهذه المعلومات هو بعض من أجهزة استخبارات عربية انتزعتها بدورها من معتقلين تعرضوا فى زنازينها وعلى أيدى زبانيتها لأقصى أنواع التعذيب والامتهان.

ثم جاءت تفجيرات تموز التى أوشكت السلطات استخدامها كما لم يتسن لها من قبل فى تبرير سياساتها لولا أنها وقعت فى شر أعمالها حينما طلعت على الرأى العام بكذبة شاء الله بكيده مقابل كيدهم أن يكشفها. فقد ادعت الأجهزة الأمنية، وطبل السياسيون لذلك وزمروا، بأن شخصاً ذا ملامح آسيوية - يظن بأنه مسلم - كان يوشك أن يقوم بعملية إرهابية فى إحدى محطات الأنفاق فى الثانى والعشرين من نفس الشهر لولا أن ضباط الأمن «اليقظين» عاجلوه بسبع أو ثمانى رصاصات فأردوه قتيلاً. ولما يقرب من أربعة وعشرين ساعة كانت وسائل الإعلام تضلل بمعلومات تفيد بأن الشرطة كانت تراقب مسكنه، وبأنه تأكدت من ضلوعه فى الإرهاب، ثم تابعته، فهرب منها، ودخل محطة القطارات قفزاً على الحاجز بشكل غير قانونى، وطلب منه أن يتوقف مراراً وتكراراً لكنه لم يتصع، فما كان منهم إلا أن أردوه قتيلاً قبل أن يقدم على فعلته التى نسبوها إليه زوراً وبهتاناً. إنه الشاب البرازيلى المظلوم دى مينسيز، الذى لم يهرب منهم، ولم يكن مسلماً، ودخل المحطة بتذكرة وبشكل قانونى، ولم يطلبوا منه التوقف مرة واحدة، ولم يكونوا يعرفون عنه شيئاً على الإطلاق، ومع ذلك قتلوه بدم بارد. كانت لدى شكوكى منذ البداية، وفى صبيحة ذلك اليوم تحدثت مع عمدة لندن السيد كين ليفنغستون على هامش زيارته للمسلمين فى مسجد بريتن، فقال لى بأن مفوض الشرطة أكد له بأن معلوماتهم عن الرجل وعن نواياه مؤكدة وبأنه كان على وشك تفجير نفسه فى القطار. ولم تمر ساعات حتى «سود» الله وجه حكومة طونى بلير وأوقع السلطات الأمنية فى حرج غير مسبوق.

وبعد أقل من عام، وتحديداً فى الثانى من حزيران (يونيو) ٢٠٠٦ أعلنت الحكومة البريطانية عن مداهمة بيت عائلة مسلمة من أصل باكستانى فى حى «فوريست جيت» فى شرق لندن، بحجة توفر معلومات استخباراتية عن وجود مصنع لتجميع قنبلة «قذرة». دوهم البيت فى الساعات الأولى من النهار قبيل الفجر، وظن سكانه بأن لصوصاً قد سطوا عليهم. فبلا سابق إنذار قاموا من نومهم مذعورين على أشباح مكممين ملفحين بالسواد يأمرونهم بالانبطاح أرضاً ويكيلون لهم أقذع الشتائم بأحط العبارات وأقذر الألفاظ، ويهددونهم بالقتل إن لم يستجيبوا لهم. انتهت «عملية السطو» بإلقاء القبض على شابين شقيقين، أصيب أحدهما بعيار نارى فى كتفه، وبترويع أهل الدار من نساء وأطفال، بل وإزعاج الحى بأكمله. وبعد أن خرب البيت تماماً بحثاً عن «الدليل»، ولم يبق لوح خشب فى محله، ونزعت كافة الجدران والسقوف والأرضيات، وحفرت الحديقة الخلفية بأسرها، وتعرض الأخوان للاستجواب المستمر ما يقرب من عشرة أيام متواصلة، أعلنت السلطات بأن المعلومات الاستخباراتية لم تكن فيما يبدو صحيحة وأن الأخوين بريئان مما وجه إليهما.

ثم جاء الإعلان عن الخطة المزعومة لتفجير الطائرات فى الجو باستخدام سوائل يتم إدخالها إلى الطائرة حيث تمزج وتتحول إلى قنابل، وأعلنت السلطات عن إلقاء القبض على مجموعة من المسلمين، من عدة مناطق فى بريطانيا، أحدهم شخص اعتنق الإسلام قبيل شهور قليلة. ورغم أن السلطات تحاول جاهدة هذه المرة أن تبدو أكثر ثقة بما لديها من معلومات وما تدعى بأن أيديها وقعت عليه من أدلة، إلا أن المسلمين فى بريطانيا لا يصدقون ما ينسب إلى هذه المجموعة المعتقلة، ويرى كثير منهم بأن الأمر لا يتعدى محاولة يائسة أخرى من السلطات البريطانية لتبرير مضيها فى سياسة خارجية ثبت فشلها وفى إجراءات أمنية داخلية ثبت عقمها.

ومما كرس الشك لدى المسلمين، وغير المسلمين على حد سواء، ما تناقلته وسائل الإعلام الأمريكية والبريطانية عن الدور الأمريكى والدور الباكستانى فى الموضوع. فقد ذكرت محطة إن بى سى الأمريكية بأن الحكومة البريطانية كانت



تريد التريث قبل الإعلان عن المخطط حتى يتوفر لديها مزيد من المعلومات وحتى لا تخرج على الناس كما حصل فى السابق بقصة ملفقة تسود وجهها، إلا أن إدارة الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش أصرت على الإعلان وعلى الإجراءات الأمنية الشديدة فى المطارات لأن الحزب الجمهورى الحاكم، والذى تراجعت شعبيته بشكل كبير خلال الشهور الأخيرة بسبب تحول العراق إلى مصيدة ومستنقع، بحاجة إلى ما يحسن وضعه الانتخابى وهو يخوض غمار الحملة الانتخابية لاختيار أعضاء الكونغرس فى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) القادم، ولا أفضل من حالة من الرعب والذعر يستغلها الجمهوريون - الذين يتربع المحافظون الجدد الصهاينة على عرش زعامتهم - لإثبات أن الحرب على الإرهاب مطلوب استمرارها، وبأنهم وحدهم القادرون على حماية البلاد الأمريكية من الخطر الإسلامى الفاشستى كما عبر عنه الرئيس جورج بوش. ويرى البعض بأن توقيت الإعلان عن الخطة وإنفاذ الإجراءات المزعجة فى المطارات الأمريكية والبريطانية، لم يكن بمعزل عن تطورات الأوضاع فى الساحة اللبنانية، حيث كان لبنان يدمر بأيدى الصهاينة لإنفاذ خطة أمريكية-بريطانية مشتركة، وكان الرأى العام يتجه بشكل متسارع نحو التنديد بالموقف الأمريكى-البريطانى الذى عطل كل جهد دولى لوقف العدوان.

أما الدور الباكستانى فقد انكشف أمره حينما أعلن البريطانيون بأن من اعتقلوا فى الساحة البريطانية إنما توفرت المعلومات عنهم من خلال تحقيقات يدعى الباكستانيون بأنهم أجروها مع شاب بريطانى من أصل باكستانى اعتقلته أجهزتهم الأمنية فى الباكستان، ويشك بأنه من العناصر القيادية فى «القاعدة». ويعلم المسلمون فى بريطانيا، كما يعلم ذلك أهل الاختصاص، بأن الأجهزة الأمنية الباكستانية فاقدة للمصداقية وبأن الحكومة الباكستانية تسعى جاهدة وبكل الوسائل لاسترضاء الحلفاء الأمريكان وكسب ودهم، ولو كان ذلك من خلال تلفيق القصص حول مخططات كبيرة ومذهلة كالتى يزعمون الكشف عنها. ولا يخفى على أحد أن السلطات الباكستانية مسؤولة بشكل مباشر عن معاناة معظم معتقلى غوانتينامو الذين سلموا، أو بيعوا بثمن بخس، للأمريكان بحجة انتمائهم للقاعدة أو ضلوعهم فى الإرهاب، ولم تتمكن الولايات المتحدة حتى الآن من تقديم شخص واحد منهم للمحاكمة لعدم وجود أى دليل يمكن أن يصمد أمام القضاء.

بعد خمس سنوات تقريباً من بدء الحرب المزعومة على الإرهاب بدأت الساحة البريطانية تشهد حالة من التوجس والقلق لم تعهدها من قبل، وبدأنا نشهد تزايداً ملحوظاً فى التصرفات المعادية للعرب والمسلمين كنا نفاخر بأنها ظلت محدودة جداً رغم كل ما حدث. ولعل فى هذا مؤشراً على نجاح - ولو

كتاب الزاوية

أريج البُستان

السعدى الشيرازى

التقت قلوب وعقول العرب مع الفرس منذ الفتح الإسلامى لبلاد فارس، وزاد التواصل السياسى والعلمى والأدبى بين الأمتين المسلمتين على مدى السنين. وقد كان التأثير الفارسى على الأدب العربى بشكل خاص واضحًا ومؤثرًا، الأمر الذى أعلى من قدر الأدبين العربى والفارسى على السواء.

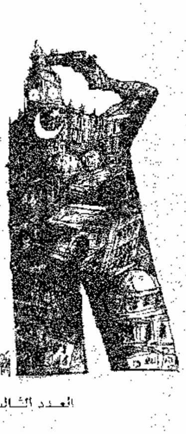
ورغم هذا التواصل والتلاقح، فإن كثيرًا من الأعمال الفارسية لم تنل حظها من الترجمة للعربية حتى يتعرف عليها أبناء لغة الضاد. ومن بين هذه الأعمال العمل الأدبى الشهير «بوستان» للشاعر السعدى الشيرازى الذى ولد على الأرجح عام ٥٨٠ هجرية (١١٨٤ ميلادية) وتعلم فى بغداد علوم اللغة وآدابها وعلوم القرآن والرواية. وله ديوان ضخم يعرف بالكليات ويضم ست رسائل نثرية وأشهر آثاره وأكثرها انتشارًا: بوستان وكلستان وقصائد عربية وفارسية وغزليات. وقد عاش الشاعر - على ما يقال - مائة عام.

واسم السعدى الشيرازى هو اسم أدبى لأن اسم الشاعر الحقيقى هو مشرف الدين بن مصلح الدين، لكن الشاعر اتخذ اسم الشيرازى على عادة شعراء الفرس فى اختيار أسماء أدبية.

وقد ترجم كتاب بوستان كاملاً إلى العربية ولأول مرة الدكتور أمين بدوى أستاذ الآداب الفارسية بجامعة عين شمس واختار عنوانًا للترجمة العربية هو أريج البستان، ونشرت الكتاب دار الشروق فى طبعتين الأولى عام ١٩٩٧، والثانية عام ٢٠٠٦.

جزئى - للسلطات البريطانية فى خلق حالة الهلع التى تريد. ولعل فيه مؤشراً أيضاً على تمكن التيارات العنصرية والصهيونية المناهضة للوجود الإسلامى فى بريطانيا، بل وفى الغرب بشكل عام، من احتلال موقع لم تكن تحلم به من قبل يسرته لها سياسة الحكومة بزعامة طونى بلير. فقد توحد صناع القرار فى الدولة البريطانية مع زعماء ومنظرى وكتاب الاتجاه اليمينى المتطرف (من العنصريين وأنصار إسرائيل) فى اعتبار أن مصدر الخطر المحدق ببريطانيا هو نفر من المسلمين الذين لا تعجبهم ثقافة الغرب، ولا يريدون أن يندمجوا فى المجتمع، ويرفضون قيم الديمقراطية والحرية، ويفسرون الإسلام تفسيراً أيديولوجياً ويوظفونه توظيفاً سياسياً. من هم هؤلاء المسلمون؟ لا أحد يعرف تحديداً، مما يتسدعى اعتبار أن كل مسلم، بملامحه «الآسيوية» أو «الشرق أوسطية» أو «الشمال أفريقية»، كما يحلو للصحافة وصفه، متهم حتى تثبت إدانته. ومما يثبت أننا ولجنا النفق المظلم - الذى لا يعلم إلا الله كم عمقه - بدأت تتكرر حوادث الإساءة الجماعية للمسلمين. وهنا يكمن الخطر الحقيقى، فما كان يحدث من قبل كان لا يعدو كونه حوادث فردية معزولة، أما الآن فالمجتمع البريطانى بات أكثر جراة على هذا الآخر المخالف له فى كل شيء المشكوك فى ولائه وانتمائه. قبل أقل من يومين على مرور حادثة إجبار راكبين مسلمين على النزول من طائرة تملكها شركة «مونارك» قبيل إقلاعها من أحد المنتجعات الإسبانية باتجاه مدينة مانشستر للاشتباه بهما، أجبرت عائلة مسلمة تزور لندن من دبى على الخروج من طابور الراغبين فى ركوب ما يعرف بـ«عين لندن» المطلة على نهر التيمز ومبنى البرلمان، وذلك لأن أفرادها سمعوا يتحدثون بالعربية.

طونى بلير مسؤول مسؤولية كاملة عن هذا الذى يجرى، والذى سيجر الويلات على المجتمع البريطانى لما تسببه مغامراته من تصدع فى معادلة التعايش بين الثقافات والشعوب التى ما لبث البريطانيون يفاخرون الدنيا بها، ويتساءلون بسببها عما يعتبرونه فشلا ذريعاً من قبل غيرهم من الشعوب الأوروبية فى احتواء موجات المهاجرين واللاجئين إليها. ومرجع ذلك إصرار طونى بلير والحكومة التى يتزعمها على أن سبب الأزمة التى نعيشها هو الإسلام أو بعض تفسير منحرف أو متطرف له. بل رأيناه فى الأونة الأخيرة يحتل موقع المفتى والمرشد العام للأمة الإسلامية إذ يجد فى نفسه الكفاءة لأن يخبرنا أى الإسلام حق وأيه باطل. فالإسلام الحق من وجهة نظره هو «الإسلام الأوروبى» الذى لا يأبه أتباعه بما يجرى من حولهم من أهوال تسببها سياسة حكومته، ولا يرتبطون بأواصر بأحد فى العالم الإسلامى، ولا يخلطون السياسة بالدين، ولا يتمسكون بما يميزهم عن غيرهم خلقاً أو سلوكاً أو مظهراً. إنه الإسلام الأوروبى الذى تحدث عنه مؤخراً أحد وزراء الداخلية الأوروبيين حينما دعاهم إلى اجتماع فى لندن وزير داخلية بريطانيا لتدارس تداعيات الخطة المزعومة، إنه الإسلام الذى لا لون له ولا طعم ولا رائحة، إسلام لا يختلف عن المسيحية التى جردت من كل محتواها عبر قرون من العلمنة. وطونى بلير بإصراره على ذلك يقصد عدم السماح



يفتح باب المساءلة عما جنته سياسة حكومته الخارجية من مصائب، وعما تسببته من استقطاب يوفر الأرضية الخصبة لتنامي تيارات العنف وحركات الإرهاب. فبريطانيا لم تتعرض لخطر من قبل أحد من المسلمين قبل أن تشارك الولايات المتحدة في غزو العراق وتتحالف معها في حربها على الإرهاب. بل كان مصدر الخطر عليها في السابق هو الجيش الجمهوري الإيرلندي الذي قرر طوني بلير بعد استلامه للسلطة الاعتراف به والتفاوض معه لإنهاء حالة العنف المتبادل.

يدور حالياً في أوساط المثقفين البريطانيين جدل عنيف حول من يتحمل المسؤولية وكيف نخرج من دوامة الأزمة العاصفة بنا جميعاً. إلا أن الحكومة حتى الآن تأبى أن تشارك في الحوار، لأنها لا تريد تحمل مسؤوليتها وتخشى من المساءلة. وفي محاولة فاشلة منها قامت الدولة بتشكيل هيئة أعضاؤها من المسلمين الذين اختارتهم بعناية حتى تدرس أسباب التطرف والعنف وتقدم مقترحاتها إلى الحكومة مساهمة منها في التوصل إلى حل للأزمة، إلا أن التقرير الذي قدمته الهيئة لم يعجب الحكومة لأنه اعتبر السياسة الخارجية للدولة البريطانية أحد العوامل التي تساهم في دفع الشباب الغاضب والمحيط نحو التطرف.

يحلو للساسة البريطانيين توجيه إصبع الاتهام إلى المسلمين على افتراض أنه كان بإمكانهم تدارك الأمر ومواجهة تيار العنف والتطرف بين ظهرانيهم، الأمر الذي يرفضه زعماء المسلمين رفضاً قاطعاً محذرين من أن نهج الحكومة يشجع العنصريين واليمينيين المتطرفين وأنصار إسرائيل على التطاول على المسلمين مما يفاقم من آثار التصدع الذي طرأ على المجتمع البريطاني. ومما يبعث على الاستهجان أن إصرار الحكومة ومن يؤيدها في ذلك على تحميل المسلمين المسؤولية يتناقض مع فرضيات بدهية، على رأسها أن بريطانيا تعد ليبرالي الفردية فيها - كما في العالم الغربي بشكل عام - هي الأساس، فما أن يبلغ المرء في هذه المجتمعات الثامنة عشرة من عمره حتى يصبح مسؤولاً عن نفسه وعن أفعاله أمام القانون، ولا يتحمل أحد وزر ما يصدر عنه من أقوال أو أفعال. وكلما تجدد الجدل حول هذا الموضوع تساءل المسلمون: عجباً، كيف نلام نحن جميعاً حينما يخطئ بعضنا ولا توجه أصابع الاتهام لأحد حينما يرتكب شخص من أتباع الديانات أو الأعراق الأخرى جنحة أو جرماً ما؟

إن أي حوار جاد وهادف لابد أن يسلط الضوء على ثلاث دوائر من المسؤولية: الدائرة الأولى تتعلق بالمسلمين كمجتمع له مراكزه ومساجده وزعماء ينطقون باسمه وصناع رأي يؤثرون في أبنائه. هل ثمة خلل علينا تداركه، وكيف يمكننا أن نساهم في حماية أمن المجتمع الذي نعيش فيه مما قد يتهدده من أخطار. إلا أن الدائرة الأهم من ذلك هي الدائرة الأمنية، حيث منيت الأجهزة الأمنية بفشل ذريع حينما لم تتمكن رغماً عن كل الإجراءات والمتابعات من اكتشاف أمر الذين أحدثوا زلزال السابع من تموز في لندن العام الماضي. ورغم الفشل الذريع والأخطاء الفاضحة المتكررة إلا أن تحقيقاً لم يجرى ومحاسبة للمسؤولين الأمنيين لم تتم. وأما الدائرة الأهم منهما جميعاً فهي المتعلقة بالأسباب الحقيقية للاحتقان والاستقطاب، ألا وهي السياسة الخارجية للحكومة البريطانية والمتمثلة بالتحالف مع الأمريكان في حربهم على الإسلام بحجة مكافحة الإرهاب وبالتأييد المطلق وغير المشروط للعدو الصهيوني الذي تلهب آنات ضحاياه في فلسطين ولبنان مشاعر إخوانهم وأخواتهم من المسلمين والمسلمات عبر العالم. وما لم تقر الحكومة البريطانية بمسؤوليتها، أو على الأقل تقبل بالحوار حول الموضوع، فإن أي جهد يبذله مسلمو بريطانيا وأي إجراءات تتخذها الأجهزة الأمنية لا تكفي وحدها لصيانة أمن البلاد ودرء خطر الإرهاب عنها.

الأزمة بين الحكومة والمسلمين في بريطانيا مرشحة للتفاقم إذا لم تحصل مفاتحة ومصارحة وإذا لم يفتح المجال أمام حوار يشارك فيه الجميع دون خوف أو تشنج. إلا أن ذلك من غير المتوقع حدوثه قبل أن يطرأ تعديل على القيادة السياسية في البلاد. فرئيس الوزراء طوني بلير لم يعد قادراً على التحرر من القيود التي فرضتها عليها علاقته الحميمة بالإدارة الأمريكية، وقد خضع بلير للضغوط من داخل حزبه معلناً أنه سيتقاعد عن منصبه كرئيس للوزراء خلال ١٢ شهراً. ■

كتاب الزاوية

حكاية عن عمر بن عبدالعزيز

أريج البستان

١ - شخص من العظماء أهل التمييز، يحكى عن «عمر بن عبدالعزيز».

٢ - أنه كان له فص على خاتم، حار في «تقدير» قيمته الجوهري.

٣ - كأن ذلك الجرم المضيء الدنيا في الليل، كان درة مثل النهار في النور.

٤ - وجاء قضاء عام قحط، فصار بدر سيما الناس هلالاً.

٥ - فلما لم ير في الناس راحة وقوة، لم ير الراحة ذاتها مروءة.

٦ - حين يرى إنسان السم في حلوق الخلق، كيف يمر الماء حلواً في حلقه؟

٧ - فأمر أن «يبيعوه» وباعوه بالفضة، لأنه أشفق على الغريب واليتيم.

٨ - وفي أسبوع واحد بدد نقده وثمنه، وأعطاه للفقير والمسكين والمحتاج.

٩ - فلامه اللائمون قائلين: إنه لا يأتي مثله في يدك مرة أخرى.

١٠ - سمعت أنه كان يقول وأمطار الدمع كانت تهطل على عارضيه مثل «دموع» الشمع.

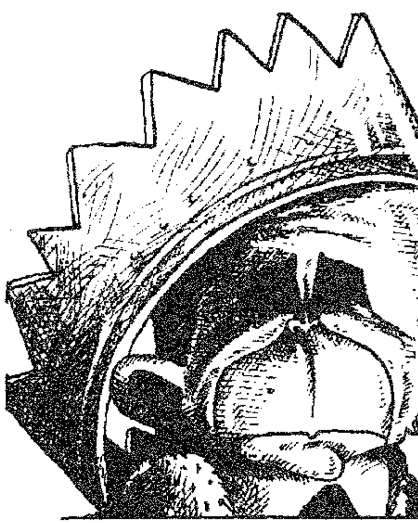
١١ - الزينة تكون قبيحة على الملك، وقلوب المدنيين قريحة من الضعف.

١٢ - إذا نام الملك ناعماً مستغرقاً على السرير، لا أظن أن الفقير ينام مستريحاً.

إمبراطورية الدولة
إمبراطورية الرئيس

روبرت سكيدلسكي

تعد مسألة كيف ينبغى إدارة العالم ودور أمريكا فى إدارته موضوع جزء كبير من النقاش السياسى والأكاديمى الدائر فى واشنطن هذه الأيام. والأسئلة الواقعية هى: هل الولايات المتحدة فى سبيلها لأن تصبح إمبراطورية كالإمبراطوريتين الرومانية والبريطانية من قبلها؟ وما هى احتمالات نجاح مثل هذا المشروع فى عالم اليوم؟ وبشكل أكثر تأملاً، هل تحتاج العولمة إلى أساس إمبراطورى يدعمها؟ وهناك كذلك أسئلة مهمة مثل: هل النزعة الإمبراطورية شىء نافع أم ضار؟ وهل ينبغى أن تضحى الولايات المتحدة بمؤسساتها الجمهورية من أجل تحقيق المهمة الإمبراطورية؟ يمكن قراءة كتاب جريجور دالاس «١٩٤٥: الحرب التى لم تنته قط» استعداداً لهذه المناقشة. فقد قضت الحرب العالمية الثانية على الإمبرطوريات الأوروبية، القائم منها والمأمول، حيث بقيت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى القوتين العظميين المتنافستين. وأنهى انهيار الاتحاد السوفيتى «ما لم ينته من أعمال الحرب» حيث ترك الولايات المتحدة القوى العظمى الوحيدة وخلق فى الوقت ذاته اقتصاداً عالمياً واحداً. وديناميات السيادة الأمريكية فيما بعد الحرب ومسألة ما إذا كانت تلك الديناميات لا تزال تدفع الولايات المتحدة نحو الإمبراطورية الرسمية أم لا هى موضوع كتاب تشارلز ماير «بين الإمبراطوريات: الهيمنة الأمريكية وأسلافها».



طبقاً لما يقوله جريجور دالاس، فإن الحرب العالمية الثانية لم تنته: لقد توقفت فحسب حيثما التقت جيوش الشرق والغرب، ثم تحولت على الفور تقريباً إلى الحرب الباردة. وكان ذلك لأن الاتحاد السوفيتى حقق هدفه من الحرب بإقامة إمبراطورية تمتد من بحر البلطيق إلى البلقان. ولم تحقق الولايات المتحدة هدفها الذى قد لا يكون مفاجأة، وهو تحويل أوروبا بكاملها إلى ديمقراطية ومشروع حر. وبدأت الحرب الباردة عندما أدرك ترومان أن معنى «الديمقراطية» عند ستالين لم يكن هو المعنى نفسه الذى عند الأمريكيين.

هذه باختصار هى المقولة الأساسية لكتاب دالاس الذى يتسم بالاستطراد، ولكنه كتاب شديد الروعة يتكون من شذرات لا حصر لها كالكولاج. ويبرر دالاس أسلوبه هذا باقتباسه ما قاله الشاعر البولندى تشسواف ميووف: «يمكنك التعبير عن الأشياء تعبيراً صحيحاً بالتفاصيل. وإذا ما لاحظت التفاصيل، فلابد أن تكتشف تفاصيل التفاصيل». ومع ذلك فإن وراء الكتاب افتراضاً صحيحاً على نحو بارز، وهو أن الحرب ضد ألمانيا (نادراً ما ذُكرت اليابان) كانت فى الوقت نفسه كفاحاً للقضاء على مستقبل ما بعد النازية. وخلف كل قرار عسكرى كان هناك حساب سياسى. والواقع أن كتاب دالاس انشغل بالتنافس على وضع ما بعد الحرب بالقدر الذى جعل حقيقة أنه حتى عام ١٩٤٥ كانت الحرب لا تزال تُشن ضد ألمانيا النازية تغيب عنه. ولكن حتى عند الهزيمة، أثّر هتلر كذلك على شكل أوروبا ما بعد النازية، باختياره أين يحارب، ومدى شدة قتاله، ولمن يستسلم؛ ومن يقتل. وفى النهاية، فضل هزيمة ألمانيا على يد الشيوعية السلافية وليس الديمقراطيات المتدهورة.

يحدد دالاس تاريخ نقطة تحول الحرب بيوليو من عام ١٩٤٣، حين فشلت ألمانيا فى وقف التقدم الروسى فى كورسك ونزلت الحلفاء فى صقلية. ولكن ربما أدرك هتلر أنه خسر الحرب، بمعنى أنه لن يمكنه فرض إرادته على سير الأحداث بالقوة العسكرية وحدها. فى ديسمبر من عام ١٩٤١، فى أعقاب الهزيمة الألمانية المنجعة أمام موسكو، وهى إحدى معارك الحرب المنسية رغم كونها حاسمة. وبعد ذلك كان أقصى ما ينتظره من جيوشه هو تحقيق انتصارات «مؤقتة» تضعه فى موقف تفاوضى أفضل. وكان يظن أن التحالف بين الغرب واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية سرعان ما سينفرط عقده بسبب المصالح المتضاربة، مما يتيح له العثور على حل «سياسى». وكان محقاً فى اعتقاده أن التحالف الكبير سوف ينهار، ومخطئاً فى ظنه أن ذلك سوف يحدث قبل اجتياح إمبراطوريته. وكانت أهدافه وأساليبه وجرائمه قد وضعته بشكل نهائى خارج نطاق كل ما هو معقول أو مقبول بالنسبة للحلفاء الغربيين.

ويشير دالاس إلى أنه كانت ستتاح لهتلر فرصة أفضل مع ستالين. والدليل الرئيسى على ذلك هو اتفاقية ريبنتروب/مولوتوف، أو الاتفاقية النازية السوفيتية، فى ٢٣ أغسطس من عام ١٩٣٩. وطبقاً لشروط تلك الاتفاقية، اعترف هتلر بوجود نصف بولندا ودول البلطيق وفنلندا وبيساربيا داخل «المنطقة» الروسية. واعتبر معظم المؤرخين الاتفاقية زواج مصلحة؛ فقد جنبت هتلر خطر الحرب على جبهتين، وجعلت ستالين يكسب الوقت. ويقبل دالاس الشق الخاص بهتلر. فقد كانت أنظار هتلر مركزة باستمرار على غزو روسيا الأوروبية واستطياتها. ولكنه لا يقبل ما يخص ستالين. ذلك أن ستالين كان ينظر إلى الاتفاقية على أنها ترتيب

بترتيب مع:
The Newyork review of Books

ترجمة: أحمد محمود

طويل الأمد. ولو رتبنا الأمور على نحو دقيق لوجدنا أن هتلر كان يمكنه أن يعطيه ما لم يكن بإمكان الديمقراطيات الغربية إعطاءه إياه، وهو إعادة تكون الإمبراطورية القيصرية والمزيد من المكاسب في المستقبل. وفي نوفمبر من عام ١٩٤٠ تلاعب هو وهتلر بفكرة اقتسام الإمبراطورية البريطانية فيما بينهما. ولكن ذلك لم يكن حلم هتلر، وربما كان يغري بذلك ستالين كي تستمر الواردات في التدفق من روسيا إلى أن يكون مستعداً لتوجيه ضربته.

يزعم دالاس أنه حتى بعد غزو الألمان لروسيا، لم يتخلَّ ستالين عن «التصورات الوهمية» التي خلقتها الاتفاقية الروسية النازية. «في ربيع وأوائل صيف عام ١٩٤٣، حاول ممثلو ستالين في ستوكهولم التفاوض على إحياء الاتفاقية؛ ولكن ذلك لم يتحقق لأن هتلر أصر على الصمود حتى أوكرانيا». وكان الانتصار السوفيتي في كورسك في يوليو من عام ١٩٤٣، وليس في ستالينجراد في ديسمبر من عام ١٩٤٢ (الذي أعقبه الهجوم الألماني المضاد)، هو ما أقنعه في النهاية بأن هتلر ليس لديه شيء آخر يقدمه. «عندما تقدمت الجيوش السوفيتية، أنعش ستالين حلمه الخاص بفرض نوع جديد من الاتفاقية النازية السوفيتية؛ واحد ناقص النازيين».

تكمن قوة افتراض دالاس في تفسيره لحركة جيوش ستالين، وبالتالي ربطه الاتفاقية النازية السوفيتية بأصول الحرب الباردة. فضم الأراضي الذي قام به ستالين بعد الحرب، بما في ذلك بولندا حتى «خط كورزون»، حيث اتبع على نحو دقيق خطوط الاتفاقية النازية السوفيتية. وكان هناك ما ينذر بخططه الخاصة بالبلقان، وحتى تلك المتعلقة بالشرق الأوسط (حيث كان يُنظر إلى إسرائيل في الأصل على أنها دولة تابعة للسوفييت)، في المناقشات التي جرت في عام ١٩٤٠ بين مولوتوف وريبنتروب في برلين. وكان من المحتم أن تحطم طموحات ستالين التحالف الكبير. وما لم تكن بريطانيا وفرنسا على استعداد لمنحه لروسيا في عام ١٩٣٩ ثمناً لاتفاقية مناهضة للنازية، لم تكن أمريكا وبريطانيا على استعداد لمنحها إياه ثمناً لاستمرار التحالف الكبير. ويرى دالاس أن بذور الحرب الباردة وُضعت عندما أصر ستالين في طهران في نوفمبر من عام ١٩٤٣ على أن شروط الاتفاقية النازية السوفيتية مازالت مطبقة على بولندا.

ومع ذلك لا تخلو فرضية دالاس من المشاكل. فهل هناك حاجة إلى الاتفاقية لتفسير «تحرك» جيوش ستالين؟ وألم يكن ستالين يخدم نفسه فحسب للحصول على غنائم الحرب التي سقطت في حجره؟ فالواقع هو أن ستالين حصل على أكثر مما عرضه هتلر. وربما بدأت الحرب الباردة باستيلاء السوفييت على بولندا، ولكنها سارت سيرها الجاد في عام ١٩٤٨ فحسب مع الانقلاب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا التي لم تكن لها علاقة بالاتفاقية. (كانت تشيكوسلوفاكيا وليست بولندا هي ورقة عباد الشمس الخاصة باختبار النوايا السوفيتية في عام ١٩٤٨، مثلما كانت اختباراً للنوايا الألمانية قبل ذلك بعشرة أعوام).

يمكن القول بأن صلة «التصورات الوهمية» التي تبنت للاتحاد السوفيتي فيما بين ١٩٤٥ و١٩٤٨ بفراغ القوة في أنحاء أوروبا الغربية وأوروبا الوسطى كانت أقوى من صلتها بالاتفاقية. كما يبدو زعم تفضيل ستالين لهتلر أمراً مبالغاً فيه، إذا ما أخذنا في اعتبارنا جهوده السابقة للتفاوض على إقامة تحالف معادٍ لألمانيا مع بريطانيا وفرنسا. ثم إنه إذا كان ستالين حريصاً على أن يتخذ هتلر رفيقاً في غزو العالم، فلم أرسل مبعوثاً شرساً مثل مولوتوف إلى برلين في عام ١٩٤٠؟ وعلاوة على ذلك، لا يقدم دالاس أي دليل على رأيه القائل بأن ممثلي ستالين حاولوا التفاوض من جديد على اتفاقية ريبنتروب/مولوتوف في ستوكهولم في عام ١٩٤٣. والحقيقة هي أننا لن نعرف أبداً وبشكل مؤكد ما الذي كان يجري في عقل ستالين. فقد قدم دالاس تحريضاً للفكر وليس استنتاجات قائمة على أدلة.

لم يكن روزفلت مهتماً بشأن من الذي ينبغي أن يحرر من، لأنه كان يحلم بسيادة مشتركة ما بعد إقليمية بواسطة «أنكل جو»(*) تُمارس من خلال المؤسسات التعددية كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي والأمم المتحدة. ويمكن أن تُعد تلك أوضح إساءة تقدير في التاريخ الأمريكي، وقد ساعد عليها وأغرى بها الجواسيس السوفييت داخل وزارتي الخزانة والخارجية. وأبدى تشرشل الذي كان يدافع عن الإمبراطورية الإقليمية قدراً أكبر بكثير من الاهتمام بالمناطق الحدودية؛ ومن ثم كانت محاولته للحد من النزعة التوسعية السوفيتية بواسطة «النسب المئوية» مع ستالين في أكتوبر من عام ١٩٤٤. وللسبب نفسه، لم يبدِ روزفلت اهتماماً بدخول الجيوش البريطانية والأمريكية أوروبا الشرقية عبر ألمانيا قبل الروس. وربما كان ذلك مجدياً في خريف عام ١٩٤٤، حين كانت ألمانيا عاجزة عن الدفاع عن نفسها في مواجهة الهجوم الغربي. كما أنه لم يؤيد خطة تشرشل الخاصة بالاستيلاء على المجر والنمسا بتسريع الهجوم على الخطوط الألمانية في شمال إيطاليا. وقال هارولد ماكميلان، مبعوث تشرشل في البحر المتوسط، في مذكراته: «ربما كان اختراق ثغرة ليوبليانا والسير نحو النمسا سيغير المصائر السياسية للبلقان وأوروبا الشرقية». غير أن تنفيذ تلك الإستراتيجيات كان سيتطلب وجود مفهوم تشرشل الخاص بتوازن القوى، الذي لم يكن له مكان في عالم روزفلت ما بعد الإقليمي الرائع. ولم يكن تشرشل، وهو أضعف الثلاثة الكبار، يسيطر على السياسة الغربية.

كان انتصار بريطانيا الأكثر التباساً. فقد فاز الاتحاد السوفيتي بإمبراطورية في أوروبا الشرقية، وأصبحت أمريكا القوة البارزة في العالم، بينما خرجت بريطانيا على نحو أضعف من أن يمكنها من الاحتفاظ بالإمبراطورية

من بين الظافرين الثلاثة، كان انتصار بريطانيا الأكثر التباساً. فقد فاز الاتحاد السوفيتي بإمبراطورية في أوروبا الشرقية، وأصبحت الولايات المتحدة القوة البارزة في العالم، بينما خرجت بريطانيا على نحو أضعف من أن يمكنها من الاحتفاظ بالإمبراطورية التي كان هدف تشرشل هو الحفاظ عليها. ويؤكد دالاس نقطة أجد نزاماً على إقرارها، بما أنني قلت الشيء نفسه، وهي أن هدف الحرب الذي كان روزفلت مصراً عليه هو «طرد الإمبراطورية البريطانية باعتبارها قوة كبرى». وقد حارب تشرشل فيما يخصه من الجيوبوليتيكا وكينز في سياسته الاقتصادية بقدر استطاعتهما للحفاظ على استقلال بلدهما عن الأمريكيين، غير أن الأصول المتكمشة التي كانت بريطانيا تسيطر عليها بحلول نهاية الحرب لم تكن كافية لتحقيق تلك المهمة.

فهل كان هناك بديل؟ يذكرنا دالاس بأن ديجول اقترح تحالفاً أنجلو فرنسياً في ١٢ نوفمبر من عام ١٩٤٤. وقد قال لتشرشل: «لو اتفقت فرنسا وبريطانيا على العمل معاً فسوف يصبح لديهما من القوة ما يمنع حدوث ما لا تقبلانه أو تقررانه. وسوف تتبعنا بلدان. ولن يمكن لأمريكا وروسيا معارضتنا وقد قيد تناقضهما حرية حركتهما». وكان آخرون سينضمون إلى المعسكر الأنجلو فرنسي بسبب ما يشعرون به من «خوف فطري من العمالقة». ورفض تشرشل ذلك قائلاً: «استمالة الأقوى أفضل من معارضته». ويميل دالاس إلى وصف تفضيل تشرشل لأمريكا على أوروبا إلى افتقاره إلى الجذور (بدافع من أمه الأمريكية ومن تصوره الخاص بالتجارة الحرة). ولكن من الذي كان يخلق الوهم: هل هو تشرشل بآماله الخاصة بتشجيع الأمريكيين على ارتياد سبل الواقعية، أم ديجول بحلمه الخاص بتحول أوروبا المفلسة إلى قوة ثالثة؟

فكرة دالاس الموازية هي الصراع الذي جرى داخل حصن هتلر: بين المتواطئين والمقاومين، وبين جماعات المقاومة المختلفة. فقد كان المتواطئون يأملون في العثور على مكان مقبول داخل إمبراطورية هتلر، أما الأنصار والمقاومون فكانوا يتقاتلون على المستقبل ما بعد النازي؛ باعتبارهم رءوس حراب للجيوش وطلائع لحكومات ما بعد الحرب. وكان فوز أي اتجاه سياسي يتوقف على «تحرك الجيوش». ويذكرنا دالاس بكيف كانت النتيجة معلقة. ففي عام ١٩٤٣ «كانت المقاومة

اللاشيوعية في بولندا تنتظر الحلفاء لتحريرها. وكان الشيوعيون في فرنسا على أهبة الاستعداد للتحرير السوفيتي. ولم يكن أي من المتوقعين عبثياً بالقدر الذي يبدو عليه الآن. فلم يكن غزو نورماندي قد جرى بعد. وكانت القوات الألمانية لا تزال موجودة في عمق روسيا.

في كل تلك الأجزاء من أوروبا الخاضعة للألمان التي لم يكتب لشعوبها العبودية أو التصفية، كان للألمان حلفاء ومتواطئون يسعون للحصول على مكانة مميزة في نظام هتلر الجديد، بدافع الاقتناع أو الضرورة التي أدركوها. وكان نظام فيشي في فرنسا، لبعض الوقت على الأقل، أكثر مشروعية من أنظمة ما بعد الحرب المستقلة ظاهرياً التي أقامها الروس في أوروبا الشرقية. وبدا لكثيرين في عامي ١٩٤٠ و١٩٤١ أن ألمانيا كسبت الحرب. وبناءً على هذا الافتراض، ماذا كان البديل للخروج بأفضل المكاسب من الوضع السيئ؟ كان بيير لافال والأميرال جان فرانسوا دارلان يأملان في مشاركة ألمانيا في اقتسام أفريقيا على حساب بريطانيا. ولم يكن ذلك أمراً يتسم بالحمق تماماً؛ فكما رأينا، كان ذلك أحد خيارات هتلر، وإن لم يكن خياره المفضل. وحتى على الجبهة الشرقية المهلكة كانت هناك قوات موالية للنازيين بدافع من المعاداة العرقية للروس أو المعاداة للشيوعية أو المعاداة للسامية. ولو كان هتلر أقل قسوة تجاه السكان المحليين لكان من المحتمل أن يستقبله الناس باعتباره محرراً في أنحاء كثيرة من الاتحاد السوفيتي، وليس في أوكرانيا فحسب. غير أن نظرياته العنصرية لم تترك مجالاً للحلفاء السلاف.

كانت فصائل المقاومة الأخرى تتنافس فيما بينها على السيطرة كي ترسخ مطالبتها بالحكم بعد الحرب. وغالبا ما بدت أكثر حرصاً على القضاء على منافسيها من محاربة المحتل. ففي فرنسا، حاول الشيوعيون ضمان أنهم، وليس ديجول، الذين سيرثون فرنسا المحررة. وربما شمل ذلك خيانة قادة المقاومة الديجولية، مثل جان مولان، للألمان. وكانت المشكلة التي واجهت ديجول، الذي يقول دالاس إنه عرف باسم قضيب الحُلْك، لأنه كان في صلابة سيخ إذكاء النار دون أن يكون له دفئه المعرضي، هي أنه زعيم عين نفسه بنفسه في المنفى، بينما كان الشيوعيون يسيرون معظم المقاومة الداخلية التي كانت تتفاعل مع الترحيل الجماعي للعمال الفرنسيين إلى ألمانيا. وكانت مشكلة ديجول الأخرى هي أن روزفلت كان يمقته، وكان روزفلت في أعماق نفسه حليفاً لفيشي، وكان يظن باستمرار أن فيشي سوف تغير اتجاهها وتصبح دولة عميلة مريحة للأمريكان. وطوال عامين كان تشرشل وماكميلان وحدهما من يؤيد دعاوى الجنرال الفرنسي العصبي ضد العدوان الأمريكي. وفاز ديجول في معركة الشرعية عندما سيطر مؤيدوه على التمرد المسلح في باريس في أغسطس من عام ١٩٤٤ قبل وصول الأمريكان، بمساعدة القائد العسكري الألماني ديتريش فون شولتيتس الذي تجاهل أوامر هتلر بـ «محو» العاصمة الفرنسية. وكان الثمن الذي اضطر ديجول إلى دفعه هو أن يشاركه الشيوعيون في شرعيته. ودالاس محق



هتلر وستالين
لم يكونا سياسيين
«طبيعيين» يسعيان
لتحقيق أهداف
«السياسة الواقعية»،
بل كانا قاتلين جماعيين
يطمحان إلى إعادة
تشكيل المجتمعات التي
يسيطران عليها



في إشارته إلى أن علاقة ديجول الغامضة بالشيوعيين في الداخل وبالسوفييت في الخارج استمرت بقية حياته.

كانت باريس مختلفة تماماً عن وارسو. فقد كانت المدينتان «رمزين» للشهور الأخيرة من الحرب العالمية الثانية؛ إذ حُررت باريس، وبيدت وارسو. وفي الجزء الذي كان الألمان يحتلونه من بولندا لم يكن هناك مجال كبير للتواطؤ مع الألمان، حيث كانت الخطة النازية هي جعلها دولة موالية. وأظهر قتل عشرات الآلاف من الضباط البولنديين في كاتين وأماكن أخرى في عام ١٩٤٠ بناء على أوامر ستالين أن الزعيم السوفيتي كان يخبئ مصيراً على نفس القدر من الرعب تقريباً للنخبة البولندية في الجزء الذي يسيطر عليه من بولندا. وبموت فلاديسلاف سيكورسكي في حادث طائرة في عام ١٩٤٣، خسرت بولندا ديجولها. مع أنه كان سيصبح عاجزاً عن إنقاذ بولندا من السوفييت في مواجهة «تحركات الجيوش»؛ إلا في حال تلقي الحكومة البولندية في لندن دعماً أقوى بكثير من بريطانيا وأمريكا. وربما كان ذلك سيتطلب مكاشفة مع ستالين، وربما تهديداً بقطع الإمدادات المهمة لروسيا. وهو الأمر الذي ربما كان تشرشل مستعداً له؛ بينما لم يكن روزفلت كذلك.

في غياب أية مساندة غربية حازمة، كان مقدراً لانتفاضة وارسو التي بدأها «الجيش الوطني» في الأول من أغسطس عام ١٩٤٤ أن تتعرض لكارثة. وكان هدف الانتفاضة الاستيلاء على وارسو قبل وصول الجيش الأحمر، الذي كان سيتوجب عليها تحيته باعتبارها مالك وارسو الشرعي. وقد نجحت جزئياً في تحقيق هدفها الأساسي، ولكن الجيش الأحمر ظل معسكراً على الضفة اليمنى لنهر فستولا ولم يدخلها، متيحاً بذلك الفرصة للألمان كي يقضوا على «الجيش الوطني» ومعظم وارسو خلال شهرين من القتال الشرس. بل إن ستالين لم يعط الإذن للقوات الجوية الملكية البريطانية بالهبوط وللقوات الجوية الأمريكية بنقل الإمدادات.

تركز الجدل التاريخي حول سبب قرار ستالين وقف تقدم جيوشه. هل كان ذلك لكونها مجهدة؟ هل كان يريد إتاحة الوقت للألمان كي يقضوا على المقاومة المناوئة للشيوعيين؟ أم أنه كان قلقاً من وقوع هجوم ألماني مضاد؟ لدى دالاس تفسير آخر، وهو أن ستالين أجل التقدم إلى ألمانيا، ونقل جزءاً من قواته إلى البلقان كي «تعيد تثبيت المكاسب التي حققها وتلك المتوقعة من الاتفاقية النازية السوفيتية لعام ١٩٣٩...». ولأن دالاس تسيطر عليه فكرة واحدة، فهو يستخدمها في تفسير أمور كثيرة جداً.

من بين ضحايا النازية في أوروبا وعددهم ١٨ مليوناً، لقى ١١ مليوناً حتفهم في بولندا، منهم ملايين اليهود. ويذكرنا القسم الأخير من كتاب دالاس بأن هتلر وستالين لم يكونا سياسيين «طبيعيين» يسعيان لتحقيق أهداف «السياسة الواقعية»، بل كانا قاتلين جماعيين يطمحان إلى إعادة تشكيل المجتمعات التي يسيطران عليها بترحيل السكان جميعاً أو تصفيتهم. والشيء المثير على نحو خاص عند دالاس هو القول (مثل سولجنتسين) بأنه فيما يتعلق بمسألة أعمال السخرة والإبادة، كان هتلر تلميذاً لستالين «تفوق» على أستاذه في الحرب فحسب، ثم في الظروف الخاصة بالحرب «الشاملة». «كانت المعسكرات الروسية والألمانية تنفث الموت في بعضها البعض، كرياح السهل، في دورة تبادلية». وفي بولندا وروسيا، «انتقل النازيون إلى المعسكرات السوفيتية السابقة، ثم استولى السوفييت على المعسكرات النازية القديمة واستغلوها. والأسوأ من ذلك أن بعض تلك المعسكرات كان بها النزلاء الأسرى أنفسهم والإداريون ذاتهم. وهذه هي القصة التي لم ترو حتى الآن».

بدأ ستالين أعمال السخرة؛ فقد كان هناك بالفعل الملايين داخل المعسكرات الصناعية مثل كوليما في عام ١٩٣٩، في حين لم يكن داخل معسكرات الاعتقال الألمانية سوى ٢١ ألفاً. وأثناء الحرب، قلد هتلر ستالين بجمعه الملايين من العمال الأجانب لإنتاج الذخائر والطعام في ألمانيا، وهي السياسة المفجعة التي دفعت بالشباب في المناطق المحتلة إلى المقاومة. وكانت تلك السياسة النتيجة المنطقية لرفض السماح بتعبئة النساء الألمانيات، حيث كان هتلر يعتقد أن «نساءنا الألمانيات النحيلات ذوات السيقان الطويلة، لا يتناسبن مع العمل في المصانع». وكما هو الحال في معسكرات العمل السوفيتية (الجولاج)، كان الكثير من هؤلاء العمال يموت بسبب البطش والوحشية وسوء التغذية والمرض.

ويتبع دالاس سولجنتسين في إنكاره تفرد الهولوكوست. فالتمييز الكلاسيكي بين وسم جنس من الأجناس (وهو ما لا يمكنه تغيير صفات هذا الجنس) ووسم

طبقة من الطبقات (فيمكن «إعادة تثقيفها») ينهار في حالة ستالين. ويقول سولجنتسين إنه «ألقى أمماً بكاملها في البالوعات». فقد رحل الأمم التي ظن أنها تواطأت، أو قد تتواطأ، مع الألمان. الجورجيون والشيشان والأنجوش والكلموك، مما أجهد جهاز النقل الروسي مثلما أجهد ترحيل اليهود إلى الشرق جهاز النقل النازي. وكان السبب في الحالتين واحداً: فقد جعلت سمات الضحايا العرقية منهم أعداء فعليين أو محتملين للنظام الحاكم. وفي عام ١٩٤١، تردد هتلر بين ترحيل اليهود وإبادتهم: وكان يفكر في إجلاء اليهود كافة في البداية إلى مدغشقر ثم إلى شرق جبال الأورال بعد ذلك. وكان «ضياع أية فرصة للسيطرة على تلك الأراضي... (هو ما) دفع النازيين في اتجاه... صالحل الأخير».

وفي تحريف آخر للقصة، يقول دالاس إن «الحدث الحاسم بالنسبة لمصير اليهود لم يبدأه هتلر وإنما ستالين، حين رحل ألمان الفولجا إلى سيبيريا في سبتمبر من عام ١٩٤١. وقد أبلغ ألفريد روزنبرج وزير المناطق الشرقية النازي هتلر أن أياً منهم لن يبقى على قيد الحياة. «ويبدو أنه في الفترة من أواخر سبتمبر وأكتوبر من عام ١٩٤١ قرر هتلر، الرجل غير المتسامح، إبادة يهود أوروبا في المقابل». وبذلك كانت سياسات النظامين متصلة في ثأر قاتل. وكان الإسراع في تنفيذ برنامج هتلر للإبادة في عام ١٩٤٢ رد فعل لحرب كان يخسرها. ويقول دالاس إنه «بعد الهزيمة أمام موسكو «كان (هتلر) مضطراً للتفكير في الطرق التي يمكن بها للأيديولوجيا النازية أن تبقى... ولابد من قتل اليهود، كل اليهود، بينما لا تزال له السيطرة، قبل إنهاء الحرب».

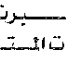
طبقاً لما يقوله دالاس فالفرق الرئيسي بين النازيين والسوفييت هو أنه «كانت للنازيين أهداف محددة بينما كان الشيوعيون يطلقون النار في كل الاتجاهات، كان النازيون قتلة أكثر عزماً وتصميماً، غير أن أهدافهم كانت أكثر تحديداً بكثير. وبينما «اخترق الجولاج الروسي كل جانب من جوانب المجتمع السوفييتي»، نجد أن معظم الألمان «لم يكن هناك ما يخيفهم من النازيين». وكان الاتحاد السوفييتي، وليس ألمانيا هتلر، هو «الدولة الشمولية في أشد صورها صرامة».

من الممكن أن تكون هناك تفسيرات مختلفة لأصول الهولوكوست، وتفسير دالاس معقول تماماً. وتكمن قوته الكبيرة في إصراره على أن تلك المأساة المرعبة لم تكن مقررة سلفاً. وتثير روايته أسئلة حول ما كان يمكن أن تقوم به الدول الأخرى لمنع إبادة اليهود الجماعية. والسؤال الأكثر إزعاجاً من بين تلك الأسئلة كافة هو: هل كان من الممكن أن يحدث ذلك بحال من الأحوال لو أن بريطانيا وفرنسا تنازلتا عن دانتسيج لهتلر؟

خلف توقف القتال أعداداً ضخمة من الأشخاص المشردين: من بقوا على قيد الحياة في المعسكرات، والسكان الألمان الذين فروا من الجيش الأحمر، وغير الألمان الذين تواطأوا مع الألمان، طوعاً أو كرهاً. وفي يالتا، قرر الثلاثة الكبار أن «حثالة أوروبا»، كما أسماهم كوستلر، سوف يعادون إلى دولهم الأم، حتى وإن أرغموا على ذلك. وكانت تلك محاكاة لتقرير المصير القومي». وعانى اليهود أكثر من غيرهم، فمن بقوا على قيد الحياة في المعسكرات النازية ظلوا داخلها، وكان الكثيرون منهم يموتون بسبب التيفوس والدوسنتاريا. ورحل القوزاق والقوقاز والمسلمون والمسيحيون والأوكرانيون وحتى البولنديين الذي حاربوا مع الألمان أو عملوا معهم إلى الجولاج. وأشهر قصة هي إيداع ٢٥ ألفاً من القوزاق والآلاف من «التشتنك» اليوجوسلاف من النمسا التي تحتلها بريطانيا أمانة لدى الجيش الأحمر والأنصار التابعين لتيتو المتعطشين للدماء. واستمر استئصال الشعوب وقتلها بعد توقف تحركات الجيوش.

فمتى إذن انتهت الحرب العالمية الثانية النهاية الفعلية؟ لم يجر تصفية الاتفاقية النازية السوفيتية بشكل نهائي في السنوات التالية لعام ١٩٨٩. فقد فقدت روسيا ما بعد الشيوعية كل مكاسبها الإمبراطورية التي حققتها في ظل الاتفاقية: شرق بولندا (الآن روسيا البيضاء)، ودول البلطيق، وبيساربيا (الآن مولدوفا)، بالإضافة إلى أن الدائرة المحيطة بها من دول أوروبا الشرقية التابعة قد أصبحت جميعها دولاً مستقلة. بل إن بعض المناطق التي كانت خاضعة في الأصل لستالين، أوكرانيا وجورجيا وأرمينيا وأذربيجان وكازاخستان وقرغيزستان وطاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان، من خلال وراثته إياها من روسيا الإمبراطورية ضاعت. وقضى على نفوذ روسيا في الشرق الأوسط من الناحية العملية. وذكر سولجنتسين في مقابلة أجرتها معه مؤخراً صحيفة «موسكوفسكايا نوفوستي» أن حلف شمال الأطلنطي (الناتو) «يطور انتشاره العسكري في أوروبا الشرقية وعلى الجانب الجنوبي لروسيا بشكل منهجي». وقد شرعت الولايات المتحدة في تنفيذ نسخة معدلة من مهمة فرانكلين روزفلت لنشر الديمقراطية والأسواق الحرة في أنحاء العالم. وقد يجعل ذلك الشخص المندفع إلى القول بأن الحدود في الأماكن تلك كلها ثابتة، مع أنه من غير الواضح المكان الذي ستكون ثابتة فيه، أو ما إذا كان تثبيتها سيحدث ذلك الفرق الكبير أم لا.

المنافسة مع الاتحاد السوفيتي أجبرت الولايات المتحدة على بناء مناطق نفوذ إقليمية وما بعد إقليمية في الوقت ذاته



الولايات المتحدة هي الدولة الحاكمة الوحيدة بلا مطامع إقليمية التي ناقشها دالاس. فقد كانت ألمانيا وإيطاليا واليابان تحاول امتلاك الإمبراطوريات، وكانت روسيا تحاول استعادة الإمبراطورية الروسية، وكانت بريطانيا تحاول الاحتفاظ بإمبراطوريتها. (وقلما ذكرت الصين.) فقد كانت الولايات المتحدة تطمح إلى إقامة «إمبراطورية الحرية» فيما بعد الحرب، وليس إلى مناطق النفوذ الإقليمية المشروطة بالقوة. واضطرت الولايات المتحدة إلى إقامة «مناطق حدودية» فحسب في أوروبا وآسيا في عامي ١٩٤٧ و١٩٤٩، وهو ما كان يزدريه فرانكلين روزفلت، بسبب انهيار وهمه الخاص بقيام سيادة مشتركة أمريكية سوفيتية. وكما يصف البروفيسور تشارلز ماير من جامعة هارفارد الأمر في كتابه «بين الإمبراطوريات: الهيمنة الأمريكية وأسلافها». ففي عالم ما بعد الحرب، كانت للولايات المتحدة «مناطق حدودية بعيدة جداً ولكنها حقيقية». وكان وودرو ويلسون وفرانكلين روزفلت قد حلما بقيادة أمريكية لا تعتمد على الأرض، ولكن المنافسة مع الاتحاد السوفيتي أجبرت الولايات المتحدة على بناء مناطق نفوذ إقليمية وما بعد إقليمية في الوقت ذاته.

لدى كتاب ماير الكثير الذي يقوله عن هذا البناء الذي جرى بعد عام ١٩٤٥، وهو بهذا المعنى يبدأ من حيث انتهى دالاس. فقد كان الحل الوسط الأمريكي بين الإمبراطورية التقليدية والكياسة الكانطية الخاصة بالجمهوريات الديمقراطية هو نشر «الهيمنة الأمريكية على العالم الحر، تساندها في ذلك التعهدات العسكرية والقواعد العسكرية، وتدعمها الأسلحة النووية وتكنولوجيا خطط التجميع الخاصة بفورد». ويفرق ماير بين «إمبراطورية الإنتاج» و«إمبراطورية الاستهلاك». ففي المرحلة الأولى، نقل النظام الإنتاجي الأمريكي إلى حلفائها من خلال مشروع مارشال وغيره من برامج المساعدات، وكانت «إمبراطورية الاستهلاك» الخاصة بالمرحلة الثانية تقوم على سيادة الدولار، وبلغت ذروتها بتوءم العجز: أي عجز الميزانية وعجز ميزان المدفوعات.

ويقارن ماير بين الطرق التي مولت بها بريطانيا والولايات المتحدة هيمنتهما العالمية، وهو يبين كيف أن نزعة المغامرة التي تميزت بها فترة كنيدي/خروشوف، التي بلغت ذروتها بأزمة الصواريخ الكوبية وبالقتال في فيتنام،

أفسحت الطريق لجهود نيكسون/ كيسنجر/ بريجنيف لفرض الاستقرار في المناطق الحدودية الواقعة بين النظامين المتنافسين؛ وكيف أن تلك المحاولة الفاشلة لتعليق... الحرب الباردة، تبعتها «حركة (جديدة) للأمام» قام بها الاتحاد السوفيتي في أفغانستان ومبدأ حقوق الإنسان الخاص بكارتر، وعن خطة نيكسون/ كيسنجر لتعدد الأقطاب الإمبراطورية، التي تشارك فيها القوة العظمى الأمريكية الصين والاتحاد السوفيتي العالم. يقول: «منذ أن عرض هتلر على مولوتوف جنوب ووسط آسيا في نوفمبر من عام ١٩٤٠، لم يكن هناك مثل هذا النظام السياسي العالمي الأساسي الذي قُدِّم باعتباره صفقة كبيرة للمنافسين الدوليين».

رغم وجود بعض الأفكار اللافتة للانتباه عنا، فهذا هو الجزء من كتاب ماير الذي يحظى بأقل قدر من الرضا، حيث إن تاريخ الحرب الباردة أرض طالما طُرقت. وهناك ما يدل على أن ذلك الجزء كُتب على عجل، ومليء بالأخطاء الصغيرة المثيرة للغضب. كما أنه لم ينج من آفة المجال الأكاديمي المسمى بالاقتصاد السياسي؛ وهي المعالجة الغامضة للمفاهيم الأساسية ولما بين الاقتصاد والسياسة من ارتباطات.

الجزء الأول من كتاب ماير أكثر إثارة للفكر، وهو يبحث معنى كلمة «إمبراطورية»، وإلى أي حد يشبه الوضع الأمريكي في العالم الإمبراطوريات السابقة كالإمبراطوريتين الرومانية والبريطانية. ومنهجه هو تحديد «الأفكار المتكررة» في التاريخ الإمبراطوري والسؤال عن مقدار تطابق التجربة الأمريكية معها. وقد أصبح البحث ملائمًا للموضوع على نحو خاص، لأن هناك إجماعًا أكاديميًا آخذ في الظهور على أن الولايات المتحدة بتدخلها العسكري في أفغانستان والعراق، وإقامتها قواعد عسكرية لأول مرة في أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى، وتهديدها بشن هجوم على إيران، قد انتقلت إلى ما وراء أشكال «السيادة» أو «الهيمنة» أو «القيادة» أو «السيطرة» التي كان يوصف بها دورها حتى وقت قريب، وهي تطمح في الوصول إلى مرحلة جديدة قد ينطبق عليها فيها مصطلح «إمبراطورية». وقد وصف المؤرخ نيال فرجسون أمريكا بأنها «إمبراطورية مع الإنكار»؛ ويشير ماير إلى أنها قد تكون إمبراطورية قيد الإنشاء.

يريد ماير تخصيص مصطلح «إمبراطورية» لبنية الحكم الموسعة إقليميًا، التي تُخضع «جماعات عرقية لغوية مختلفة» وتخصص القوة المتفوقة للسلطة التنفيذية ونُخَبها. وبناءً على هذا التعريف لا تكون الولايات المتحدة، ولن تكون، إمبراطورية؛ فهي لم تسعَ إلى سيادة رسمية على أرض أجنبية. (يرى ماير أن التوسع الداخلي في أمريكا الشمالية لا يؤهلها لذلك؛ لأن سكان أمريكا الأصليين كانوا شبه رُحَّل؛ وكانت الفلبين استثناءً.) ومع ذلك يجد ماير أنه من الصعب استخدام الكلمة على نحو متساوق عند الحديث عن الولايات المتحدة باعتبارها «إمبراطورية



ليس لأمريكا أباطرة بعد، وإن كان من الممكن النظر إلى رؤسائها على أنهم أباطرة منتخبون ذوو عناصر وراثية. ومنذ الحرب العالمية الثانية واعتبارات «الأمن القومي» تدمر المؤسسات المدنية أكثر وأكثر



استهلاك». وفي النهاية فإن أفضل ما يمكنه فعله هو أن يقول إن أمريكا لها بعض سمات الإمبراطورية وتفتقر إلى سواها.

فلنأخذ الطريقة التي تفرض بها الولايات المتحدة نفوذها. فالحكام التابعون يذعنون للولايات المتحدة. كما أن واشنطن عاصمة «إمبراطورية» تجتذب النخب الأكاديمية وغيرها التي تريد أن تكون قريبة من مركز النفوذ. غير أن تلك ترتيبات، على عكس ما هو عليه الحال في الإمبراطوريات التقليدية، طوعية وتقوم على القيم المشتركة وقد خلقها تصور مشترك للتهديد الخارجي من جانب الاتحاد السوفيتي؛ فإذا كانت تلك إمبراطورية، فهي «إمبراطورية بالدعوة».

وكان للإمبراطوريات أباطرة. وكان لقب إمبراطور يرتبط بالحكم العسكري. ويجسد الإمبراطور الحكم، وله علاقة وثيقة بالموارد العسكرية، ويمتلك (أو يدعي) عظمة أخلاقية. وهو على عكس الملك ليس بالضرورة حاكمًا بالوراثة. ويرى ماير أن روما تظل النموذج الأكثر إقناعًا لمناقشة الولايات المتحدة لأن الغزو الخارجي حوّلها من جمهورية إلى إمبراطورية. وكانت تحتفظ بمؤسسات جمهورية مسلوبة القوة كمجلس الشيوخ، في حين انتقلت السلطة إلى الإمبراطور، وأصبح التصويت استفتائيًا. وبناء على هذا الرأي فإن الولايات المتحدة ليست إمبراطورية بعد، لأن سياستها الداخلية لم تصبح بونابرتية. ولكن ربما هي في سبيلها إلى ذلك. وهناك تدهور للسلطة من السلطة التشريعية إلى السلطة التنفيذية، ومن المناقشة العلنية لسيطرة الخبراء، ومن السياسة والأحزاب السياسية إلى الجماعات الدينية وغيرها. وطبقًا لمبدأ بوش الخاص بـ«السلطة التنفيذية المركزية»، فإن الرئيس باعتباره القائد العام له سلطة عليا ولا يجب أن يكون عرضة للمساءلة من الكونجرس على ممارسة تلك السلطة.

ليس لأمريكا أباطرة بعد، وإن كان من الممكن النظر إلى رؤسائها على أنهم أباطرة منتخبون ذوو عناصر وراثية. ومنذ الحرب العالمية الثانية واعتبارات «الأمن القومي» تدمر المؤسسات المدنية أكثر وأكثر، رغم تعيين الرئيس ترومان للحاكم الإداري الأمريكي الحقيقي وأوسع الصلاحيات لإحدى المستعمرات، وهو الجنرال دوجلاس ماك آرثر. ومع ذلك فالأيديولوجيا الرسمية والشعبية للولايات المتحدة معادية للإمبراطورية؛ ولهذا السبب وحده فمن غير المحتمل أن تكمل أمريكا التحول التقليدي من الجمهورية إلى الإمبراطورية.

الفكرة المتكررة الأخرى الخاصة بالإمبراطورية هي ما توفره من إشباع للرغبات: البطولة والمجد والشجاعة والشرف وفرصة الخدمة لجماعات النخبة، والتماثل التفويضي للجماهير. وليس لدى ماير الكثير الذي يمكنه قوله كوسيلة للتقييم الأخلاقي للإمبراطورية. فهو يكتب باعتباره عالم سياسة أو عالم اجتماع، وليس بصفته فيلسوفًا سياسيًا. وهو لا يعير اهتمامًا لدور الأفكار باعتبارها تأثيرات على أشكال الحكم. وهو ما ينتج عنه مناقشة ناقصة لمبررات الإمبراطورية والانهيار الإمبراطوري. وكما أدرك ثوسيديديس منذ زمن بعيد، تنشأ الإمبراطوريات من إيمان بالحق في الحكم، وتنهار حين يخبو هذا الإيمان. ومن المؤكد أن هناك عنصرًا أيديولوجيًا قويًا في السعي الأمريكي الحالي إلى الإمبراطورية، وخاصةً بين المحافظين الجدد في الأكاديميات ومؤسسات البحث في واشنطن. وهو يقوم على الإيمان بأن الغرب هو الأفضل، وأن الشيء الوحيد المأمون هو أن يصبح الأسلوب الغربي المعيار العالمي. وهؤلاء الذين يقاومون اعتناق مذهب الغرب يُعدون همجيين ولابد من اقناعهم، أو إجبارهم، على الاعتراف بخطأ أساليبهم. وهذا هو حديث الإمبراطورية الأوروبية التقليدي، وتسمعه في واشنطن الآن. غير أن مبدأ التفوق الغربي لم يتبلور بعد في شكل أيديولوجيا إمبراطورية صريحة. فهو يفتقر إلى مكون النزعة العنصرية الخاص بالقرن التاسع عشر، وكذلك النزعة النازية، التي يصعب بدونها تبرير الحكم بلا موافقة؛ وإن كان السوفييت قد نجحوا في تحقيق ذلك لبعض الوقت.

يناقش ماير ما إذا كانت الإمبراطوريات تستغل رعاياها بالقطع أم لا، وينتهي على نحو مقنع إلى أن نظريات الاستغلال كافة تطرح «دعاوى معيارية لا سبيل إلى حلها». وبالإضافة إلى ذلك، يثير ماير بعض الأسئلة الواقعية: هل تفوق تكاليف الإمبراطورية فوائد النفوذ الإمبراطوري؟ وهل يمكن استعادة تلك التكاليف من رعايا

الإمبراطورية من خلال الضرائب؟ وأى الجماعات يكسب وأيها يخسر من خلال الصلة الإمبراطورية؟ يميل ماير إلى دعم الرأى الليبرالى القائل بأن الإمبراطوريات، بكل تكاليفها العسكرية وغيرها، استنزاف صاف للنفوذ الإمبراطورى، ولكن النخب السياسية والتجارية، وبعض المصالح الخاصة، فى كل من المركز الإمبراطورى وعلى الهوامش، قد تحقق مكاسب على حساب ذوى الدخول المنخفضة.

يبدو أن هذا يتناسب مع التجربة الأمريكية (فيما يتصل بأمريكا اللاتينية على سبيل المثال)، غير أنه من غير المرجح أن يدعم المشروع الإمبراطورى فى غياب التأييد الشعبى. ويشير ماير بتبصر وإدراك إلى تردد الليبراليين فى الاعتراف بالصلة بين الأسواق والإمبراطورية. وهم يميلون فى علم الاقتصاد كما فى علم النفس إلى اعتبار تعويضات الإمبراطورية ومكافآتها من بقايا الظروف القديمة، ولا ينظرون إليها على أنها جزء من طريقة عمل الأسواق. ويقول ماير إن نموذج السوق الحالى الخاص بالعولمة يخفى دور الشركات الأمريكية متعددة الجنسيات فى نشر «أنماط التوظيف الإمبراطورى» من خلال إنتاج «الأوفشور». وبما أن الإمبراطوريات كانت باستمرار مواقفة على السيطرة على الموارد، فإن المغامرة الأمريكية الحالية فى الشرق الأوسط الغنى بالنفط تتناسب مع المنطق الإمبراطورى التقليدى.

يتعلق الجزء الأكثر إثارة من كتاب ماير بدور الحدود والعنف فى التجربة الإمبراطورية. فالإمبراطوريات، شأنها شأن الدول (على الأقل فى التراث الغربى) تُعرَف بأن لها حدوداً ثابتة؛ غير أن تثبيت الحدود بالغزو، والحفاظ على الحدود التى تثبّت بهذه الطريقة، مصدر للعنف المتكرر «على الحدود»، الأمر الذى يؤثر على السياسة الداخلية. ويقول ماير إن الحدود الإمبراطورية متنازع عليها بالوراثة، حيث إنها لا تقوم على الاتفاق. ولذلك فإن الإمبراطوريات، على عكس الدول، بُنى غير مستقرة. ومع ذلك فإن النقطة الرئيسية لديه هى أن محاولة «تثبيت» الحدود تمثل تراجعاً عن دعاوى السيادة العالمية، واعترافاً بأنه يمكن إصدار الأوامر الإمبراطورية لتصل إلى هذا الحد فحسب. والمثال الكلاسيكى هو قرار أغسطس بتحديد الإمبراطورية الرومانية بنهر الراين فى أعقاب فقدان فيالق فاروس فيما وراءه فى العام التاسع الميلادى. ويقول ماير إن «يوتوبيا الولايات المتحدة كانت نسقاً من المعاملات العالمية الحرة... وعندما تتحطم اليوتوبيا، يفرض منطق الأرض نفسه». وكما أجبر تعزيز الإمبراطورية السوفيتية فى أوروبا الشرقية الولايات المتحدة على الحد من دعاواها بعد الحرب العالمية الثانية، فقد أجبر ظهور الإرهاب الولايات المتحدة على التحول من اليوتوبيا ما بعد الإقليمية إلى الدفاع الإقليمى فى العالم ما بعد الشيوعى.

وهكذا فإن التناقض الأساسى فى قلب الإمبراطوريات هو أنها تعد بالسلام ولكنها تنجب الحرب. وادعاؤها بأنها مؤسسات محبة للخير يقضى عليه الصراع المستمر على الحدود وتمرد الشعوب الخاضعة. ويتذكر ماير مجزرة إنجلترا التى راح ضحيتها الشعب الأيرلندى المحلى فى القرن السادس عشر. فمع ولع الإمبراطوريات بالتصنيف، نجد أنها قد زادت كذلك من حدة الانتماءات العرقية والاندماج فى الجماعات والانقسامات؛ وعادةً ما يتضح أن ما تُسمى «كراهيات قديمة» من صنع السياسات الإستعمارية.

يتسم ماير باللاأدرية فيما يتعلق بالدفاع الحالى الأكثر شيوعاً عن الإمبراطورية باعتبارها أحد عوامل العولمة، بغض النظر عن صحتها التاريخية. وحجة ذلك أن العولمة تقتضى ظروفاً من السلام والأمن يمكن للإمبراطوريات وحدها توفيرها. غير أن المدافعين عن الإمبراطورية ينسون أن آخر عصور العولمة، الذى كان كذلك عصر الإمبريالية، انتهى بالحرب العالمية الأولى. والحقيقة هى أنه لن يُقبل أى بديل إمبراطورى للمؤسسات والسلطات التعددية فى العالم المتعولم الذى هو كذلك فى سبيله لأن يكون أكثر تعددية. وليس هناك بديل سوى التقدم بالسرعة التى تجد أبطأ القوى العظمى أنها مقبولة.

فإلى أين تتجه أمريكا إذن؟ سيكون من الصعب فى المستقبل دعم فكرة أن الولايات المتحدة «إمبراطورية دعوة» وليست غزواً فى غياب التهديد السوفيتى. ومن الواضح أن الولايات المتحدة ليست موجودة فى العراق بدعوة. ويبدو أنه جرى تجاوز خط ما. وكما حدث فى فيتنام، سيكون على الولايات المتحدة إما أن تجعل حدودها الجديدة فعلية. وهو ما يتضح أنه ليس كذلك فى العراق؛ حيث تشتعل الحرب الطائفية دون أن يقيدها شىء تقريباً، أو أن تخرج. وفى أى الأحوال، كانت فكرة «إمبراطورية الدعوة» باستمرار قصة خيالية إلى حد ما؛ فالولايات المتحدة لم تكن «مدعوة» إلى ألمانيا واليابان فى عام ١٩٤٥، بل غزتهما. ومنذ ذلك الحين «تحتلهما» القوات الأمريكية. ويمكن القول بأنه منذ الحرب العالمية الثانية وهاتان الدولتان فى موضع ما بين كونهما مستقلتين وتابعتين؛ ويصدق الشىء نفسه على الاتحاد الأوروبى ككل، الذى يفتقر قادته وشعوبه إلى الإرادة والتماسك للخروج من القفص الذى تحميه الولايات المتحدة.

النتيجة الأساسية التى تخرج من دراسة ماير، مع أنه لا يبدو لى أنه قالها صراحة، هى أن بين قطبى

إلى أين تتجه أمريكا إذن؟ سيكون من الصعب فى المستقبل دعم فكرة أن الولايات المتحدة «إمبراطورية دعوة» وليست غزواً فى غياب التهديد السوفيتى

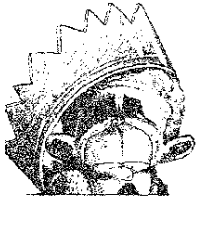
«الإمبراطورية» و«الاستقلال» هناك عدد كبير من المواقع الوسطى التى يبدى كل منها مزيجاً مختلفاً من الاستقلال والخضوع. والواقع أن الرواية الخيالية التى تقول إن هناك سبيلين فقط، وهى الرواية الخيالية التى تعد إنتاجاً مشتركاً للمثالية الويلسونية ومناهضة الاستعمار، هى التى تتسبب فى معظم ما يوجد حالياً من اضطراب. وأية ممارسة للنفوذ من جانب القوى يسميها خصومه «إمبريالية»، بينما يجب على الإمبريالى التظاهر بأن أعماله تتسق اتساقاً تاماً مع الاستقلال الوطنى.

ومع ذلك فإنه بينما يؤذى هذا المظهر الخادع الأرواح الساذجة التى ترغب بشدة فى التباينات الحادة، فهو قد يكون كذلك دليلاً على التقدم. وهناك أدلة على أن أشكال الحكم تزداد نعومةً وحكمةً وإنسانيةً؛ وحيث إنها أقل شفافيةً، فإن تعريفها أكثر صعوبةً. ورغم أعمال القتل الجماعية وغيرها من الفظائع التى لا تزال تشوه أجزاءً من العالم، فإن القسوة «الإمبراطورية» المنظمة الخاصة بهتلر وستالين التى يوثقها «الأمس» تاريخ قديم. فقد عذبا وقتلا الملايين؛ والآن هناك عدد أقل نسبياً من الوفيات وانتهاكات «حقوق الإنسان» المنسوبة للجهود الإمبراطورية التى تثير الإدانة العالمية؛ وهو ما يعود فى جزء منه، وليس بشكل كامل، إلى صعوبة حجب العنف عن موجات الأثير.

الاتحاد الأوروبى بدعة سياسية جديدة، ونحن الأوروبيين لدينا فى تعريفه المشكلة ذاتها التى يجدها ماير بالنسبة للولايات المتحدة. فهل هى دولة فدرالية قيد الإنشاء؟ وهل هو اتحاد كونفدرالى؟ إنى أرى أنه تجربة تتخذ شكل حكم لمجموعة من الدول لم نجد له اسماً بعد. وأشك أن الشىء نفسه يصدق على وضع الولايات المتحدة فى العالم. وهكذا فإنه رغم وضوح محاولة المطابقة بين الولايات المتحدة والأنماط التاريخية للإمبراطورية، فهى محاولة مضللة تماماً. فالولايات المتحدة ليست تحولاً من الهيمنة إلى الإمبراطورية. العالم فى سبيله إلى التحول إلى أشكال جديدة من التنظيم السياسى الذى يمكن تصور خطوطه العامة على نحو غير واضح، بينما لا يمكن تثبيت حدوده بعد. ■

---

* الجنرال الأمريكى الذى كان يرأس قوات الحلفاء فى الصين وبورما والهند أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد توفى فى عام ١٩٤٦، أى بعد عام واحد من انتهاء الحرب. (المترجم)



[illegible] فرار!

محمد السطوحي

عاش بوش الابن حياته كلها منذ طفولته خارج قطيع الأسرة وكان شابا مستهترا متواضع المستوى وفشل فى تحقيق نجاحات تذكر فى حياته المهنية

** لم تكن مباراة الملاكمة قد بدأت بعد، لكن النتيجة كانت محسومة مقدما للملاكم الأوكرانى فلاديمير كليتشكو، الذى لم يكن قد تعرض للهزيمة قط فى أكثر من أربعين مباراة فاز فى أغلبها بالضربة القاضية، حتى إن المعلق تساءل قبل أن تبدأ الجولة الأولى عما إذا كانت هناك نقطة ضعف واحدة فى هذا الملاكم العملاق الذى يزن أكثر من مائتين وستين رطلا واشتهر بلكماته القوية، ومهارته داخل الحلبة. لكن الإجابة لم تنتظر أكثر من دقيقتين، عندما تمكن الملاكم الجنوب إفريقى المغمور كورى ساندرز من إسقاطه بلكمة قوية فى ذقنه، ثم أسقطه بعدها ثلاث مرات قبل أن يوقف الحكم المباراة. عندها قال المعلق الأمريكى الشهير لارى ميرشانت: «إن الملاكم العظيم ليس فقط من يمكنه توجيه اللكمات القوية، لكن من يستطيع أيضا أن يتلقى ويتحمل تلك اللكمات».

وليس لدى شك فى أن نظرة العديد من دول العالم وكذلك الدول العربية للولايات المتحدة، لم تكن تختلف كثيرا عن تقييم لارى ميرشانت للملاكم الأوكرانى. فلم يكن هناك جدل كبير فى قدرة واشنطن على توجيه اللكمات بما لديها من قدرات عسكرية هى الأكبر فى تاريخ البشرية. ولكن كانت هناك شكوك وتساؤلات دائمة عن قدرة واشنطن على تلقى اللكمات العنيفة. هذه التساؤلات نبعت فى الأساس من بعض التجارب التاريخية، ومنها الحرب فى فيتنام التى اضطرت الولايات المتحدة للانسحاب منها بعد سقوط أكثر من ٥٥ ألف قتيل من جنودها. ثم انسحبت من بيروت بعد الهجوم الانتحارى لحزب الله على موقع المشاة البحرية عام ١٩٨٣. وجاء الانسحاب الأمريكى من الصومال فى عام ١٩٩٣ بعد سحل جثث ثمانية عشر جنديا أمريكيا فى شوارع مقديشيو ليؤكد الصورة التى ترسخت لدى الكثيرين، وهى أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تتحمل الخسائر البشرية، وأن تأييد الشعب الأمريكى للحرب سرعان ما ينهار مع رؤية صور القتلى بين الجنود الأمريكيين. ولاشك أن الكثيرين داخل واشنطن ذاتها كانوا قلقين من هذا الأمر، حتى إن مسئولى البنتاجون منعوا لفترة نشر صور نعوش الجنود الأمريكيين الذين قتلوا فى العراق، حتى لا يهتز تأييد الشعب الأمريكى للحرب.

المؤكد أن تنظيم القاعدة كان يفكر بهذا الشكل عندما خطط لإحداث أكبر قدر من الدمار والخسائر فى الأرواح فى هجمات سبتمبر، كما أن الكثيرين يتابعون عدد القتلى الأمريكيين فى العراق، وهم يتساءلون - حتى لو لم يجهروا بذلك - عن الرقم السحرى للقتلى الذى تضطر معه واشنطن إلى أن تلعق جراحها وتنسحب من العراق.

غير أن اعتقادى أن هؤلاء قد ينتظرون طويلا، تماما مثلما كان أسامة بن لادن مخطئا فى حساباته عندما تصور أن مقتل آلاف الأمريكيين فى هجوم إرهابى يعنى نهاية «الشيطان الأكبر» أو على الأقل تقليم أظافره. ويأتى خطأ الحسابات - فى تصورى - من عدم فهم نفسية وتركيبة الشعب الأمريكى، من ناحية، وانعدام المعرفة بشخصية الرئيس الأمريكى جورج بوش بسلبياتها وإيجابياتها. فانسحاب الأمريكان من فيتنام على سبيل المثال لم يكن فقط بسبب عدد القتلى، وإلا لما انتظروا حتى تجاوز ٥٥ ألف جندى. لكن الضغوط زادت بعد أن تأكدت قناعة الأمريكيين بعدم جدوى البقاء هناك دون وجود رؤية واضحة للمستقبل أو خطة محددة للخروج من المستنقع الفيتنامى، هنا فقط يصبح سقوط أى جندى غير مبرر. أما فى الصومال ولبنان، فقد قدمت القضية للشعب الأمريكى على أنها إنسانية فى الأساس، ولم يوضح أحد للأمريكيين طبيعة المصالح الحيوية التى سوف تتأثر بالانسحاب. وربما يوضح ذلك سر إصرار إدارة بوش على ربط غزو العراق بالحرب ضد الإرهاب. فهذه قضية يفهمها الأمريكيون، كما أنهم على استعداد لتحمل الخسائر البشرية فى أى عملية عسكرية فى الخارج إذا كان ذلك يعنى حمايتهم من تكرار هجمات الحادى عشر من سبتمبر. لذلك برر الغزو فى البداية بالربط بين صدام حسين ومنظمة القاعدة، ثم زيد على ذلك التهديد بأسلحة العراق ذات الدمار الشامل، وأن سقوطها فى أيدى القاعدة قد يجعل هجمات سبتمبر مجرد ضربة بسيطة مقارنة بما يمكن أن يحدث.

إلا أن تكشف الكثير من الحقائق فيما بعد عن عدم وجود تلك الأسلحة، وأن العراق لم يكن مسئولا بأى شكل عن هجمات سبتمبر هو الذى دفع الكثير من الأمريكيين للتشكك فى رواية الإدارة الأمريكية قبل الغزو، وارتفعت المعارضة للحرب فى العراق إلى واحد وستين فى المائة فى آخر استطلاع للرأى العام. هنا تعود الإدارة لربط العراق بالإرهاب ولكن بطريقة مختلفة، حيث تؤكد أن انسحاب القوات الأمريكية الآن يعنى سيطرة «القاعدة» والإرهابيين على البلاد بما يوفر لهم المأوى والقاعدة التى ينطلقون منها مثلما حدث من قبل فى أفغانستان. والأمر المؤسف أن الإدارة ربما تكون محقة فى تحذيرها هذه المرة، كما أن العراق أصبح على شفا حرب

أهلية يرى البعض أنها بدأت بالفعل. وانسحاب القوات الأمريكية الآن يعني اندلاعها بصورة شاملة تدمر الأخضر واليابس. غير أن نقطة الضعف لدى الإدارة هي أنها فقدت مصداقيتها لدى نسبة كبيرة من الأمريكيين الذين لم يعودوا يقبلون بمبرراتها. كما أنها لم تقدم خطة واضحة لتصحيح الأوضاع والخروج من المأزق العراقي، وهنا يتكرر النموذج الفيتنامي. فإذا كانت الإدارة نجحت في إقناع البعض بمبررات البقاء، إلا أنها فشلت حتى في إقناع حلفائها من الجمهوريين والمحافظين بخططها للنجاح. هنا قد يتراءى للبعض أنها مسألة وقت فقط قبل أن تتكثف الضغوط على إدارة بوش للانسحاب من العراق. لكنهم يخطئون هذه المرة في قراءة الرئيس الأمريكي شخصيا.

لن أعيش في جلباب أبي!

في أول مؤتمر للدول الصناعية الثماني الكبرى بعد تولي الرئيس بوش، سارع الرئيس الفرنسي جاك شيراك للاتصال بصديقه القديم الرئيس السابق بوش الأب، ليبلغه بسعادته بأداء ابنه في القمة. ورغم أن المكالمة كانت في إطار الإشادة بالرئيس الجديد، إلا أنها أثارت غضبه الشديد. أسباب هذا الغضب كانت خافية في ذلك الوقت على شيراك، مثلما لاتزال خافية ربما على الكثيرين في الدول العربية الذين راهنوا على العلاقة بين الابن وأبيه، وتصوروا عندما احتاج الامر، أن كلمة الرجل العجوز ستكفي لتطوى الابن عن غيه وسياساته.

إلا أنهم لم يدركوا أن بوش الابن عاش حياته كلها منذ طفولته خارج «قطيع الأسرة» أو ال Black Sheep كما وصفه العالم النفسي والمحلل السياسي ستانلي ريشتون، الذي أصدر مؤخرا كتابا بعنوان «In His Father's Shadow» أو في ظل أبيه. حاول فيه ان يشرح كيفية التحول في شخصية جورج، الابن الأكبر لعائلة بوش، الذي كان شابا مستهترا، متواضع المستوى في الدراسة، وفشل في تحقيق نجاحات تذكر في حياته المهنية، هذا بالإضافة لإدمانه الكحوليات، بما جعله موضع انتقاد في أسرته التي خيب أملها فيه. ويرى ريشتون أن هذه المرحلة دعمت قدرة بوش على الوقوف بعيدا عن الآخرين، واستعداده للدخول في صراعات بدلا من تفاديها، كما أن ثقته بنفسه لم تعد تستند إلى الآخرين أو رأيهم فيه. ومن هنا فإن ما حدث من تحول في شخصيته استند كما يقول ريشتون إلى الإرادة والإيمان، وقد أثر ذلك على سياساته فيما بعد كرئيس. فالشخص الذي تمكن من هزيمة الشيطان في داخله، أصبح يصر على هزيمة شيطان الإرهاب والتطرف في أنحاء العالم. ونلاحظ هنا أن قراءة ريشتون رغم جديتها التحليلية في الجانب النفسي، إلا أنها تأثرت كثيرا بميوله الجمهورية المحافظة في تفسير سياسات بوش وتبريرها.

عكس ذلك تماما تراه في قراءة المحلل النفسي جستين فرانك لشخصية بوش، كما عرضها في كتابه George Bush: A Puppet Who Chose His Puppeteers، أو جورج بوش: الدمية التي اختارت محركيها. فبوش هو يعرف تماما ما يريد، وهو الذي يتخذ القرارات بنفسه، إلا أنه يعتمد بشكل كبير على نائبه ديك تشيني ليقوم بدلا منه بعملية التفكير التي تجعله قلقا ومضطربا. كما أنه في شبابه لم يكن يجد من يتحدث إليه عن مشاعره وانفعالاته، ولم يكن يميل للقراءة بما يساعده على فهم نفسه من خلال الآخرين، وهذا - كما يقول فرانك - جعله قاسيا في علاقته بالناس والحيوانات، كوسيلة للتفريج عن مشاعر القلق بداخله. كما دفعه بقوة إلى الكحوليات التي أدمنها حتى تجاوز الأربعين من عمره. وبوش بهذه المواصفات لديه خطوط دفاع نفسية يلجأ إليها عند الحاجة. منها مثلا الانفصال عما يضايقه بالعزلة عن الآخرين. وهذا يفسر كما يقول فرانك عودته المستمرة إلى مزرعته في كروفورد بولاية تكساس. فهي «كروفورد عقلية» يجد فيها الراحة بعيدا عن الضغوط التي يتعرض لها. كما يبدي فرانك انزعاجه الشديد من نوعية الأحاسيس الدينية للرئيس الأمريكي التي يرى أنها تربطه بالمسيح، وتعطيه الشعور بأن لديه مهمة مقدسة.

هذه «الإدانة النفسية» لشخصية بوش إذا صح هذا التعبير، تجد رفضا شديدا من ستانلي ريشتون، الذي تحدثت إليه في مقره بنيويورك. فالرئيس الأمريكي -كما يقول- لا يتحدث إلى الله ولم يزعم يوما أنه تلقى منه التعليمات عما يفعله. أما مسألة المهمة المقدسة فهي في الأساس تعبير عن قوة الهدف لديه نتيجة إحساسه الحقيقي بأنه يفعل الشيء الصحيح.

وأيا كانت التحليلات النفسية لشخصية بوش، فإنها رغم اختلافها في التفسير، تتفق في النهاية على أنه صانع القرار حتى لو كان في حاجة لمن يحركه كما يقول فرانك. وقد لفت نظري ما أورده الكاتب الصحفي بوب وودوارد في كتابيه الشهيرين: بوش في حرب «Bush At War»، وخطة

لم يكن يميل للقراءة بما يساعده على فهم نفسه من خلال الآخرين، وهذا جعله قاسيا في علاقته بالناس والحيوانات، كوسيلة للتفريج عن مشاعر القلق بداخله

الهجوم «Plan Of Attack»، حيث يوضح مدى سيطرة بوش على جلسات مجلس الأمن القومي لبحث القضايا الخاصة بهجمات سبتمبر وأسلوب الرد عليها، ثم بعد ذلك فيما يتعلق بقرار غزو العراق. وسر الدهشة هنا هو أن هذه الجلسات كانت تضم شخصيات قوية وذات خبرة وتاريخ طويل من أمثال ديك تشيني ، ووزير الخارجية كولين باول، ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد، بينما كان بوش يفتقد تماما للخبرة في هذه القضايا. وهنا أذكر أول مؤتمر صحفي مشترك عقده بوش مع وزير خارجيته الجديد كولين باول أثناء مشاوراته لتشكيل حكومته، حيث تنحى الرئيس المنتخب جانبا ليتولى باول الرد على أسئلة الصحفيين في القضايا الحرجة للسياسة الخارجية، بما أثار التساؤلات عما إذا كان باول سيفرض اختياراته وسياساته على إدارة بوش. إلا أن الأيام أثبتت عكس ذلك تماما. بل ربما كان بوش يتعمد أحيانا التصرف بعكس ما يقوله باول كما حدث في قضيتي الشرق الأوسط، وكوريا الشمالية، في محاولة للتأكيد على من هو صاحب القرار.

إلا أن ذلك لم يمنع الانتقادات العديدة التي لا يزال يتعرض لها بوش، وكثيرا ما تكون في صورة نكات تسخر من محدودية فهمه للقضايا المعقدة أو معرفته بالعالم المحيط، فهو لم يغادر الولايات المتحدة طوال حياته إلا مرة واحدة لعدة أيام زار فيها إسرائيل، واصطحبه رئيس الوزراء السابق إريل شارون في جولة بطائرة الهليوكوبتر شرح له فيها ضيق مساحة إسرائيل بما يفسر تمسكها بأراض في الضفة الغربية لأسباب أمنية. وقد انعكس ذلك على تفكير بوش بعد توليه الرئاسة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية. والأمر المؤكد أن بوش حاول أن يتعلم ويتفهم الكثير من القضايا بعد دخوله البيت الأبيض، إلا أن هذه القضايا أكثر تعقيدا من أن يتم التعامل معها في عجالة، خاصة مع ما عرف عن الرئيس الأمريكي من عزوفه عن القراءة الطويلة المتعمقة، حيث يفضل المناقشات بدلا منها. الطريف أن بعض المدافعين عن بوش يجدون في ذلك ميزة وليس عيبا. حيث ذكر المعلق الشهير بيل أورايلي أن تركيبة بوش كانت مناسبة تماما لنوعية القيادة المطلوبة بعد هجمات سبتمبر والحاجة إلى شخصية حاسمة لا تضيع الوقت في قضايا بيزنطية. وضرب مثلا على ذلك بأنه لو كان بيل كلينتون في مكان بوش وقيل له إننا نريد أشياء معينة من اليمن، فإن كلينتون كان سيحاول أن يفهم الموقف اليمني وأوضاعه الداخلية وانعكاسات القرار اليمني إلى آخره. أما بوش - كما يقول أورايلي- فهو لا يعرف أين يوجد اليمن ولا يريد أن يعرف. فكل ما يهمه أن ينفذ اليمنيون المطلوب منهم، وسيكون حاسما وقويا حتى يحصل على ما يريده.

ويرتبط بذلك أسلوب رؤية الرئيس الأمريكي للأمور، فهي دائما أما أبيض أو أسود.. أو قوى الخير في مواجهة الشر الذي هو في هذه الحالة الإرهاب. وهو بشخصيته هذه غير قادر أو غير راغب في رؤية المنطقة الرمادية التي يقع فيها الكثير من القضايا، فهي غالبا ما تكون نسبية





وليست مطلقة تماما فى الأبيض أو الأسود كما يروق لبوش أن يراها. وقد نجحت إسرائيل ورئيس وزرائها السابق إريل شارون ببراعة فى صياغة الصراع فى الشرق الأوسط فى هذا الإطار بحيث لم يعد قضية احتلال للأراضى العربية أو اضطهاد للشعب الفلسطينى، بل هى كما صورتها لبوش، مشكلة إرهاب فلسطينى ينبغى أن يهزم أولا ليفسح المجال لبزوغ ديمقراطية فلسطينية تسمح بتحقيق السلام، وهى الرؤية التى أوضحها الناشط والوزير الإسرائيلى السابق آلان شارانسكى فى كتابه «THE CASE FOR DEMOCRACY» أو القضية من أجل الديمقراطية، وهو الكتاب الذى أخذه بوش مرجعا لسياساته فى المنطقة رغم ما فيه من خلل وتحيز واضح فى أسلوب العرض ومنهج التفكير بما قاد إلى نتائج مغلوطة. لكن بوش كان على استعداد للقبول بها لأنها خاطبت توجهاته، واتفقت مع أسلوبه فى التفكير ورؤيته لعالم ما بعد سبتمبر، بكل ما فيها من اختزال. وهنا أعود للخبير النفسى والمفكر السياسى ستانلى ريشتون، الذى يرى أن بوش لديه مشاعر وطنية حقيقية وليست للمزايدة السياسية، كما أنه تعامل مع هجمات سبتمبر كما لو كانت هجوما شخصيا على زوجته أو ابنتيه. ومع تسليم ريشتون بأن بوش قد لا يلم بالكثير من التفاصيل والتعقيدات الخاصة بالقضايا المعروضة، إلا أنه قادر على الوصول إلى الحقيقة المجردة. فقد أدرك بعد هجمات سبتمبر مباشرة أن هذه حرب حقيقية وليست مجرد عملية يمكن الرد عليها بشكل سريع وينتهى الأمر. فالرئيس السابق كلينتون - كما يقول - ربما كان قادرا على رؤية وجود متعددة وزوايا مختلفة للقرار، ولكن ما فائدة ذلك إن كان عاجزا عن اتخاذ هذا القرار. ويضيف رشتون أن هناك الكثير من الظلال والمناطق الرمادية فى تفكير بوش وسياساته أكثر مما يبدو على السطح من مجرد متابعة كلماته، وهو يدلل على ذلك بعبارته الشهيرة فى خطابه أمام الكونجرس عقب هجمات سبتمبر؛ بأن على كل دولة أن تقرر لنفسها إما أن تكون مع الولايات المتحدة أو مع الإرهابيين. إلا أنه عند التطبيق كان عليه القبول بمواقف أقل وضوحا وصرامة من دول مثل السعودية وباكستان بل وفرنسا. لكن يبقى الأمر المؤكد فى التحليل النهائى، أن بوش أحدث نقلة نوعية فى طبيعة وتوجهات السياسة الخارجية الأمريكية، فهو أكثر جرأة فى الدخول فى مغامرات خارجية، ولا مانع لديه من استخدام القوة العسكرية حتى لأسباب يراها وقائية كما حدث فى العراق. وهو فى ذلك بعيد عمن سبقوه من الديمقراطيين أو الجمهوريين بمن فيهم والده الرئيس السابق بوش، الذى تشير كثير من المصادر أنه لم يكن راضيا عن كثير من هذه التحولات. وقد روى الكاتب الصحفى جيمس ريزن فى كتابه «حالة حرب» State Of War أن الرئيس الحالى أنهى مكالمة هاتفية حامية مع والده بوضع السماعة بغضب، بعد أن لامه الرئيس السابق على النفوذ الكبير لمجموعة المحافظين الجدد فى إدارته من أمثال وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، وعدم استماعه للأصوات المعتدلة مثل كولين باول. كان هذا عام ٢٠٠٣، حيث كانت بعض الدول العربية تأمل أن يؤثر الأب على ابنه ويثنيه عن غزو العراق. وقد روى لى المحقق الصحفى الأمريكى سيمور هيرش أن دولة عربية كبرى أرسلت طائرة خاصة للرئيس السابق لزيارتها وإقناعه بالتدخل لدى ابنه، ليتبين للجميع بعد ذلك أن الابن شب عن الطوق. إنه قد يستمع لوالده، لكنه يختلف عنه كثيرا، وهو فى النهاية «سيد قراره». لقد عاد بوش الابن للاتصال بأبيه واعتذر عن إنهاء المكالمة السابقة الذكر بهذه الطريقة، وانتهى الأمر بينهما عند هذا الحد. لكنه لم ينته مع بقية دول العالم التى ستعيش مع نتائج سياساته بسلبياتها وإيجابياتها لأجيال عديدة قادمة. ■







البحث عن طريق ثالث!!

«حكاية» العلاقات الأمريكية الإيرانية هي من «الحكاوي» القديمة المتجددة باستمرار، بدأت تبرز قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتواصلت فصولها، حتى مع انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين منذ عام ١٩٧٩.

إيـــران وأمريكـــا

وليـــد محمود عبدالنـاصر

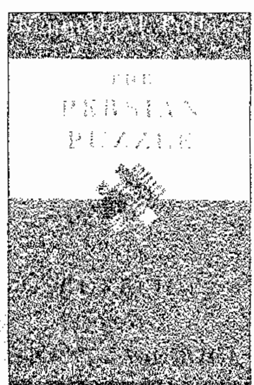
** يكاد موضوع العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران أن يكون المتصدر بلا منازع لجدول أعمال العلاقات الدولية ولتغطية وسائل الإعلام العالمية منذ فترة طويلة، أى هو بعبارة أخرى «موضوع الساعة». تختلف العناوين من وقت إلى آخر، ولكن يبقى الجوهر توتر

The Persian Puzzle: The Conflict Between Iran and America

(اللغز الفارسي: الصراع بين إيران وأمريكا)

Kenneth M. Pollack
New York: Random House, 2005,
539PP

إحدى المشكلات المزمنة فى الموقف الأمريكي من إيران أن واشنطون كانت تقوم بمبادرات تجاه قيادات إيرانية تتوسم فيها الاعتدال والبراجماتية ثم يتضح لها متأخراً أنها أدت إلى عكس ما كان مرجواً منها



العلاقة فى الإجمالى والتناوب بين بوادر انفراج أحياناً وفترات شد فى معظم الأحيان.

فهناك حوار حول العراق ثم اتهام امريكى لإيران بتمويل الإرهاب فى العراق وإدراك إيرانى ودولى - بما فى ذلك امريكياً ضمنياً أحياناً وعلنياً فى كثير من الأحيان - بأن الاحتلال الأمريكى للعراق أوجد لإيران تأثيراً غير مسبوق فى العراق من الناحية الفعلية. وهناك أيضاً اتهام امريكى مستمر لإيران منذ انتصار الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ بالعمل على إعاقة «عملية السلام» بين العرب والاسرائيليين عبر توفير الدعم والغطاء للمنظمات الفلسطينية المناهضة لهذه العملية والتلويح بالتهديدات لإسرائيل والمعاداة للسامية، ويقابل ذلك «كروت» إيرانية هامة ومؤثرة على هذه الجبهة، ما بين تحالف مع سوريا ودعم لحزب الله وآخر لحكومة حماس. ثم هناك اتهام واشنطون المتواصل لنظام الجمهورية الإسلامية فى طهران بدعم الإرهاب ممثلاً على وجه الخصوص من وجهة النظر الأمريكية الرسمية فى حزب الله اللبنانى، يقابله خلاف إقليمى ودولى متزايد وهوة تزداد اتساعاً حول تعريف الإرهاب أصلاً.

وخلال هذا كله يتواصل الجدل الذى لا يلبث أن يهدأ حتى يثور من جديد حول الملف النووى الإيرانى ويكتسب اهتماماً إقليمياً ودولياً واسعاً لا يخلو من جهود استقطاب فى هذا الاتجاه أو ذاك، وهو ملف شهدت الشهور الأخيرة تصعيداً غير مسبوق فيه فى اتجاه ينذر بمواجهة سيدفع الجميع إقليمياً ودولياً ثمناً باهظاً لها إذا حدثت، أو مماطلة قد تؤدى إلى أوضاع اكثر تعقيداً فى الشرق الأوسط ومنطقة الخليج ويراها الكثيرون حينذاك كتهديد للسلم والأمن الدوليين. وكأن كل ما سبق لا يكفى فيأتى اشتعال الجبهة اللبنانية/ الإسرائيلية ليدفع بالولايات المتحدة لاتهام محور إيران/ سوريا بالوقوف خلف تصعيد حماس وحزب الله الذى أدى بدوره إلى تسخين الأجواء وقدم المبرر للهجوم الإسرائيلى على لبنان.

ولا يسعنا أن نتجاهل التحرك البندولى للعلاقات الإيرانية الأمريكية فيما يخص أفغانستان، فما بين إشادات أمريكية متحفظة وغامضة عن «تعاون» إيرانى فى أفغانستان وكذلك فى جهود مكافحة المخدرات بها ومنها، ثم اتهامات أمريكية لإيران بإيواء عناصر من تنظيم القاعدة ولعب دور تحريضى فى صفوف شيعة أفغانستان بل ومحاولة بناء تحالف مناهض للحكم الموالى لواشنطون فى كابول عبر تأليب قادة مجاهدين سابقين، وبين هذا كله يبرز - كما فى الحالة العراقية - أن إيران كانت المستفيد الأول من الحرب الأمريكية فى أفغانستان.

وأخيراً، وليس آخراً، هناك الضجة التى أفرزها داخل الولايات المتحدة منح تأشيرة دخول للرئيس الإيرانى السابق خاتمى للولايات المتحدة لإلقاء عدد من المحاضرات بها ما بين مؤيد لها، كلفتة انفتاح نحو أحد أصوات الإصلاح والاعتدال فى إيران وبين من يرى ما يحدث داخل إيران مجرد توزيع أدوار متفق عليه ويذكر بأن خاتمى لم يحقق ما وعد به من إصلاحات خلال ثمانى سنوات فى سدة الرئاسة ويشير إلى أن من شأن فتح خط مع خاتمى توفير فرصة للنظام الإيرانى للخروج من عزلته، وكأنه يسلم بأن هذا النظام بات معزولاً بالفعل!

والواقع أن «حكاية» العلاقات الأمريكية الإيرانية هى من «الحكاوى» القديمة المتجددة باستمرار، بدأت تبرز قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتواصلت فصولها، حتى مع انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين منذ عام ١٩٧٩ . ولهذه العلاقات محاور متعددة ومستويات متباينة ومراحل متفاوتة، تمر عبر النفط والغاز والموقع الجيو-استراتيجى، ولم تقف عند حدود الحرب الباردة كما فى حالات العلاقات الأمريكية مع دول أخرى بالمنطقة وخارجها . وتداخلت فيها الأيديولوجيا والمصالح والثقافة، ولعبت الدبلوماسية غير الرسمية فيها أدواراً هامة. وتعددت دوائرها بين أفغانستان والعراق والصراع العربى الإسرائيلى وأمن الخليج والتأثير فى مناطق التواجد الشيعى والمد الإسلامى فى مجمله والأوضاع فى آسيا الوسطى.

ووصلت أصداء العلاقة/ المواجهة بين الولايات المتحدة وإيران إلى جنوب أفريقيا جنوباً عبر مشروع تخزين النفط الإيرانى فى جنوب أفريقيا فى النصف الثانى من السبعينيات، وإلى أمريكا اللاتينية غرباً من خلال تعزيز الروابط مع مناهضى واشنطون فى فنائها الخلفى ممثلين فى كوبا وفنزويلا، وهو ما شكل استمراراً لإرث أحد الزعماء الأوائل للثورة الإيرانية الراحل آية الله سيد محمود طالقانى الذى استقبل عام ١٩٧٩ وفد جبهة الساندينيستا اليسارية الحاكمة حينذاك فى نيكاراجوا والتى كانت تناصب واشنطون العداء وأعلن وقوف «الجمهورية الإسلامية» مع الجبهة فى مواجهة «الشيطان الأكبر» (وهو الاسم الذى أطلقه الراحل آية الله الخمينى على الولايات المتحدة) وبرر ذلك بآية فى القرآن الكريم تحث المسلمين على مساندة الذين يجاهدون من أجل «القسط» (العدل) فى العالم، واعتبر طالقانى أن ذلك يسرى فى كل الأحوال حتى ولو كان هؤلاء المجاهدون من الشيوعيين.

ونتناول هنا كتاباً هاماً صدر منذ شهور قليلة نشعر بازدياد أهميته بمرور الأيام وتطور الأحداث على صعيد الأوضاع والمواقف بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية. والكتاب بعنوان The Persian Puzzle، ومن تأليف باحث له اسمه وصيته فى الدراسات والبحوث المتصلة بمنطقة الشرق الأوسط بصفة عامة، ومنطقة الخليج والعراق وإيران على وجه الخصوص، وهو Kenneth Pollack والذى يشغل منصب مدير البحوث بمركز سابان لدراسات الشرق الأوسط التابع لمؤسسة بروكنجز، أحد أهم مراكز الأبحاث بالعاصمة الأمريكية واشنطون، وسبق له العمل فى مجلس الأمن القومى الأمريكى خلال إدارة الرئيس السابق «بيل كلينتون» وإدارته الديمقراطية متولياً مسئولية الملفين الإيرانى والعراقى، كما سبق له قبل ذلك العمل كمحلل بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

وسنتعرض هنا بالعرض والتحليل النقدى لمضمون كتاب «بولاك»، وفى سياق هذا العرض النقدى سنحاول وضع الكتاب فى إطاره الطبيعى تاريخياً ومنهجياً وبحثياً كجزء من سياق طويل للعلاقات الأمريكية الإيرانية التى مرت بأطوار مختلفة، خاصة خلال نصف القرن الأخير.

ويشكل انقلاب ١٩٥٣ الذى دبرته المخابرات الأمريكية لإسقاط الزعيم الإيرانى الإصلاحى والوطنى ذى الشعبية العريضة محمد مصدق وتمكين الشاه الصغير حينذاك محمد رضا بهلوى من السلطة نقطة البداية

الحقيقية فى تغطية بولاك للعلاقات الأمريكية الإيرانية، نظراً لما أوجده هذا الانقلاب لدى الإيرانيين من اعتقاد بأنه ليس فقط الولايات المتحدة تريد السيطرة على إيران بل انها تمكنت من ذلك بالفعل. ومن هنا يبرز بولاك فى كتابه أهمية تصريح وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة مادلين أولبرايت عام ٢٠٠٠ بالأسف للتراجع فى تطور إيران السياسى فى عهد الشاه المخلوع، بما شكل إشارة ضمنية لمسئولية الولايات المتحدة عن هذا التراجع، دون أن يرقى إلى الاعتراف الصحيح أو الاعتذار اللذين كانا يحتاجهما الإيرانيون بل ويشترطونهما لإطلاق حوار مع الولايات المتحدة.

ويرى بولاك أن الاعتراف بأخطاء السابق وإن لم يكن له نتيجة آنية فإنه هام لتجنب أخطاء المستقبل. فبحسب بولاك، فإن الأمريكيين الذين دبروا انقلاب عام ١٩٥٣ لم يفهموا لا مصدق ولا الشاه. فمصدق أدرك أن الولايات المتحدة تنظر إلى إيران باعتبارها هامة وحيوية لمصالحها وأمنها القومى على الصعيد الإقليمى، وبالتالى اعتقد - عن صحة أو خطأ - انه يستطيع الحصول على تنازلات من الولايات المتحدة عندما يظهر وكأنه مستعد لعقد صفقات مع الاتحاد السوفيتى السابق. أما الشاه فقد رأى نفسه معتمداً بالكامل على الولايات المتحدة ولكنه من منطلق هذه الحماية الأمريكية الكاملة يتدلل على من يحميه، كما فعل عام ١٩٧٣ عندما دفع منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك) إلى مضاعفة أسعار النفط بشكل غير مسبوق.

وقد انكشفت هذه التبعية للشاه السابق على الولايات المتحدة - بحسب بولاك - فى أيامه الأخيرة بشكل كامل عندما بدأ يخطط لحملة قمع دموية للثورة الإيرانية ولكنه ذكر للسفير الأمريكى فى طهران أنه لن ينفذ هذه الخطة بدون موافقة واشنطون، وهى موافقة رفض أن يمنحها حينذاك الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر. وبخصوص هذه اللحظة التاريخية، يوجه بولاك أشد الانتقادات لإدارة الرئيس كارتر وعملية صنع السياسات والقرارات بها حيث يصف المعتدلين والمتشددين فيها على حد سواء بأنهم عملوا فى ظل فرضيات لا أساس لها من الصحة على أرض الواقع ولكنها من بنات أفكارهم.

ويعتبر كتاب «بولاك» -وبحق- أن

الأزمة التى عصفت بالعلاقات الأمريكية الإيرانية منذ قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ ثم أزمة الرهائن بالسفارة الأمريكية فى طهران -والتى بدأت فى العام نفسه - كانت مصدر إحباط لآخر خمسة رؤساء للولايات المتحدة، بدءاً بالديمقراطى جيمى كارتر وانتهاء - حتى الآن على الأقل - بالجمهورى جورج بوش الابن، حيث فشلت مختلف الاستراتيجيات والسياسات والمبادرات التى طرحوها للتعاطى مع الشأن الإيرانى ومع حالة العلاقات الأمريكية الإيرانية، المجمدة على افضل تقدير منذ فبراير ١٩٧٩.

ويفسر المؤلف أن إحدى المشكلات المزمنة فى الموقف الأمريكى من الجمهورية الإسلامية فى إيران والتى سببت هذا الفشل والإحباط هو أن واشنطون كانت تقوم بمبادرات تجاه شخصيات فى القيادة الإيرانية تتوسم فيها الاعتدال والبراجماتية ثم يتضح لها متأخراً أن هذه المبادرات أدت إلى عكس ما كان مرجواً منها. ويرى «بولاك» أن هذا النمط بدأ عندما التقى مستشار الأمن القومى الأمريكى حينذاك زبيجنيو بريجينسكى مع رئيس الوزراء الإيرانى فى ذلك الوقت الراحل مهدى بازرجان فى نوفمبر ١٩٧٩. إلا انه بعد هذا اللقاء بأيام قليلة تم الهجوم على السفارة الأمريكية فى طهران بواسطة ما سمى بـ «الطلاب السائرين على نهج الإمام» واحتجاز العاملين بها فى أزمة استمرت لحوالى أربعة عشر شهراً، وسقطت حكومة بازرجان «المعتدلة» وسط اتهامات لها من دوائر المتشددين فى طهران بالسعى للتقارب مع واشنطون والتغاضى عن «الجرائم» الأمريكية فى حق الشعب الإيرانى.

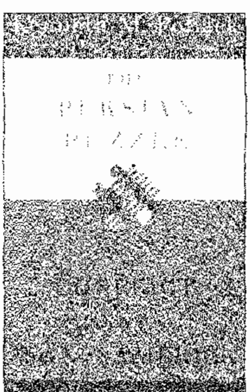
وفيما يتعلق بحادث احتجاز الرهائن الأمريكيين فى السفارة الأمريكية بطهران من نوفمبر ١٩٧٩ إلى يناير ١٩٨١، فان بولاك يؤكد من جديد أن موقف الخمينى لم يقتصر على تبنى الاستيلاء على السفارة الأمريكية واحتجاز الرهائن ولكنه تخطى ذلك إلى الدفع لإبقائهم محتجزين أطول فترة ممكنة حتى يتحقق هدف إسقاط الرئيس كارتر، كنوع من الثأر للموقف الأمريكى المدبر لانقلاب ١٩٥٣ ضد مصدق.

ولكن لا تبدو لنا الصلة هنا مؤكدة فالمؤسسة الدينية الشيعية فى إيران بقيادة آية الله كاشانى كانت قد اختلفت مع مصدق قبل سقوطه وتصالحت مع الشاه بعد عودته على أسنة الحراب بتخطيط أمريكى عام ١٩٥٣ ولم تواجه الشاه من جديد سوى عندما تعارضت مصالح الطرفين حين أطلق الشاه ما أسماه بـ «الثورة البيضاء» فى مطلع الستينيات من القرن الماضى وتم المساس بالمصالح الاقتصادية للمؤسسة الدينية الرسمية الشيعية. كما أن آخرين ممن كتبوا عن العلاقات الأمريكية الإيرانية اتفقوا مع بولاك فى أن مد الجانب الإيرانى لأمد أزمة الرهائن كان بغرض إسقاط الرئيس كارتر ولكنهم خلصوا إلى دوافع مختلفة، أهمها السعى لصفقة مع الإدارة الجمهورية الجديدة للرئيس ريجان كرد لهذا الجميل لإيران، أو تصور البعض داخل القيادة الإيرانية أنه قد يكون الأسهل لنظام الجمهورية الإسلامية فى إيران التعامل مع إدارة جمهورية محافظة عن التعامل مع إدارة ديمقراطية ليبرالية تركز على قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان، وربما لم يدر بخلد هؤلاء للحظة أن الإدارة الجمهورية الجديدة ستدشن حقبة من تعاظم تأثير اليمين المسيحى فى دوائر الحزب الجمهورى وإداراته المتعاقبة بما يؤدى فى نهاية المطاف إلى نمو تراكمى للعداء لإيران فى ظل حكم الجمهورية الإسلامية.

ويعطى المؤلف مثالاً آخر بما عرف بفضيحة «إيران-كونترا» خلال حكم الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان -وتحديداً عام ١٩٨٤ - حيث اتبع مجلس الأمن القومى نهج التعامل السرى مع قيادات إيرانية مثل «على أكبر هاشمى رفسنجانى» رئيس مجلس الشورى (البرلمان) الإيرانى حينذاك فى صفقة لإمداد إيران بالسلاح مقابل إطلاق سراح رهائن أمريكيين محتجزين لدى تنظيمات شيعية مسلحة قريبة من إيران فى لبنان، وأيضا مقابل أموال تم تحويلها لتمويل متمردى «الكونترا» الذين كانوا يقودون تمرداً مسلحاً ضد حكومة الساندينيستا فى نيكاراجوا بزعامة «دانيال أورتيجا» اليسارية التوجه والمناهضة للولايات المتحدة حينذاك. ولم يتحقق أى عائد للولايات المتحدة من جراء هذه الصفقة، بل عندما انكشف الأمر تحول إلى فضيحة بكل المعايير للإدارة الأمريكية وتم محاكمة بعض المسئولين عنها وأجبر البعض الآخر على الاستقالة، كما لم تحقق أى مردود إيجابى على المواقف الإيرانية إزاء الولايات المتحدة. وفيما يتعلق بهذه الفضيحة يفسرها بولاك بأن الكونجرس حين حظر على الإدارة الأمريكية توفير موارد للمخابرات المركزية لتمويل برنامج لدعم متمردى الكونترا فى نيكاراجوا فان مسئولى مجلس الأمن القومى والمخابرات المركزية وجدوا طريقاً غير مباشر لتمويلهم عبر تلك الصفقة.

ونزيد هنا بأنه حتى الشخصيات الإيرانية ←

يوصى بولاك بأن تتعامل الولايات المتحدة مع التحديات التى تشكلها إيران لها بالتعاون والتنسيق مع مجموعة أخرى من الدول ذات الصلة بالحالة الإيرانية، سواء من خارج الإقليم أو من داخله



المتورطة فى فضيحة «إيران - كونترا» سارعت بالإعلان عن مواقف متشددة إزاء الولايات المتحدة لتبرئة ساحتها من «تهمة» التقارب مع الولايات المتحدة، بل وبررت موافقتها على الصفقة بأنها كان يمكنها التعامل مع «الشيطان» للحصول على السلاح الذى كانت إيران تحتاجه حينذاك فى حربها مع العراق، وكان هذا «الشيطان» بالطبع من وجهة نظرهم هو الولايات المتحدة، وهو وصف سبق أن ذكرنا أنه أطلق عليها فى إيران الثورة منذ أيامها الأولى وكان يقترن بـ «الأكبر»، وكان أول من أطلقه هو آية الله الخمينى نفسه.

وفى الفصل السابع من كتابه، يتناول بولاك ما يسميه «إيران فى حالة حرب مع العالم»، ويركز على عقد الثمانينيات من القرن العشرين. فإيران كانت فى حالة حرب مع العراق، وفى الوقت نفسه تتبنى حزب الله فى لبنان وتشرف على خطط لهجمات مثل الهجوم على مقر قوات مشاة البحرية الأمريكية (المارينز) فى بيروت عام ١٩٨٣. ويرى بولاك أن الصراعات داخل إدارة الرئيس الراحل ريجان وفضيحة إيران- كونترا كانتا على قمة سجل الأخطاء الأمريكية فى تلك الحقبة. ويرى بولاك أن قرار إرسال قوات المارينز إلى لبنان كان كارثة للسياسة الأمريكية فى المنطقة، وكان كارثة للسياسة الأمريكية تجاه إيران، بل ويرى أن التدخل الأمريكى فى لبنان فى حد ذاته كان خطأ كبيرا.

وتستمر عملية سوء التقدير وسوء الحكم على الأمور المتبادلة بين الجانبين الأمريكى والإيرانى -من وجهة نظر بولاك- طوال فترة وجود آية الله الخمينى كمرشد للثورة (أى حتى عام ١٩٨٩). ويقر بولاك بوجود صراع مستمر بين من أسماهم بـ «الثيوقراطيين» وبين من يسميهم بـ «العلمانيين المتغربين»، وذلك استمر حتى فى الفترة التى تلت وفاة آية الله الخمينى. وانتهى الأمر بتكرار ما يسميه بولاك بالنموذج الصينى، أى بالثيوقراطيين يخففون بعض القيود فى المجال الاجتماعى ويمنحون قدرا من الحريات فى هذا المجال مقابل الحصول على كل السلطة والقوة السياسية بلا قيود. ويدهشنا هنا تصنيفات بولاك الحادة والتى لا يقدم مبرراتها بقوة فلا نعلم من تحديداً المقصود بالثيوقراطيين داخل السلطة الإيرانية التى تقوم أسسها الدستورية وشرعيتها الفقهية بالكامل على مفهوم «ولاية الفقيه»، ومن هم «العلمانيين المتغربين» داخل هذه السلطة التى لا مجال بداخلها إلى وجود علمانيين ولا متغربين إلا إذا كانت التعريفات عنده نسبية وفضفاضة للغاية داخل إطار الجمهورية الإسلامية الإيرانية وفى إطار مقارن. إلا أن المقارنة بين الحالة الصينية والحالة الإيرانية تبدو لافتة للنظر وإذا تناولناها بالتحليل لا تخلو من جدة ووجاهة، وأهمية ودلالة، مع الأخذ فى الاعتبار أوجه التباين فى المشروع الفكرى والسياسى للنخبة السياسية والثقافية الحاكمة فى الحالتين.

ثم يقدم «كينيث بولاك» لنا رؤيته من داخل الإدارة الأمريكية الديمقراطية فى عهد الرئيس السابق بيل كلينتون حيث عمل حينذاك فى مجلس الأمن القومى وكان منوطاً به الملف الإيرانى. ويسير على نفس المنهج فى العرض: فيعرض لجهود إدارة كلينتون للتقارب مع العناصر المعتدلة فى القيادة الإيرانية. ولكن النتيجة النهائية التى يخلص لها من هذه التجربة هى الإقرار بسوء تقدير الإدارة، وسوء تقديره هو شخصياً، حيث أنه تصور فى مرحلة ما أن الولايات باتت قريبة جداً من تحقيق «اختراق» من العيار الثقيل فى العلاقة مع إيران، إلا أنه وعى -على حد قوله- أن السلطة الحقيقية لاتخاذ القرار على الجانب الإيرانى كانت فى أيدى أشخاص إما كانوا ليسوا مستعدين أو غير مكترثين بتحسين العلاقات الأمريكية الإيرانية.

وفى تناوله لفترة الإدارة الجمهورية الراهنة يتناول المؤلف المنهج الأمريكى الخاص بتصنيف إيران ضمن مجموعة دول معادية، سواء كانت التسمية «الدول المارقة» Rogue States أو لاحقا «محور الشر» Axis of Evil وهى مجموعة بدأت واسعة لتضم العراق وإيران وسوريا وكوريا الديمقراطية الشعبية وكوبا والسودان وأفغانستان والجماهيرية الليبية، ثم تقلصت وخرجت منها أفغانستان والعراق بفعل الحرب، وليبيا عبر تسوية تفاوضية مع بريطانيا والولايات المتحدة، وصارت السودان على حدودها تدخل احياناً كضغوط سياسية أو عبر قرارات للأمم المتحدة وتخرج أحياناً أخرى عبر تسويات دبلوماسية. ولكن الكاتب يتجاهل هنا واقع وجود تقليد سابق هو سعى العديد من الإدارات الأمريكية المتعاقبة إلى وضع الدول أو التنظيمات السياسية أو العقائد المناهضة لها بأوصاف ونعوت ذات مكون أخلاقى سلبى، ومن منا لا يذكر وصف الرئيس الراحل ريجان للاتحاد السوفيتى السابق بـ «إمبراطورية الشر» فى الثمانينيات من القرن الماضى. فالإدارة الحالية إذاً لم تبتدع بدعة جديدة فى هذا المجال.

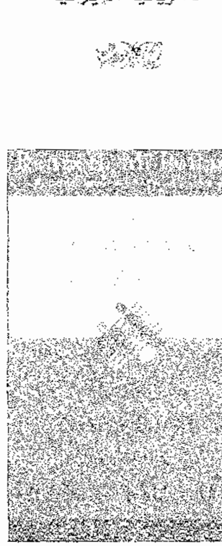
وفى مجال توصياته لمستقبل السياسة الأمريكية إزاء إيران، فإن «بولاك» حاول الجمع بين دروس وخبرة الماضى ومنح الأمل فى مستقبل أفضل، فهو من جهة يوصى باستمرار السعى الأمريكى للوصول إلى البراجماتيين فى القيادة الإيرانية وفى المجتمع الإيرانى ومحاولة التوصل معهم إلى صفقة «ما»، ولكنه على الجانب الأخر، وتحديداً فيما يتعلق بالملف النووى الإيرانى يوضح أنه إذا أصرت طهران على الاستمرار فى برنامجها النووى، فعلى الإدارة الأمريكية اتخاذ إجراءات والقيام بأفعال أكثر حزماً إزاء إيران، بما فى ذلك -وفى الحالة القصوى على حد تعبيره- النظر بجدية لإمكانية اللجوء للخيار العسكرى.

وقد سبق لنفس الكاتب إصدار كتاب أثار جدلاً واسعاً عام ٢٠٠٢ بعنوان The Threatening Storm : The Case For Invading Iraq.

وهو ما مثل دعما موازيا لموقف من كان يسمى حينذاك بالمتشددين فى إدارة الرئيس بوش الأولى الذين كانوا يدعمون خيار الغزو العسكرى للعراق. وجاءت توصيات كتاب «بولاك» فى نفس الاتجاه لتثير الاستغراب على نطاق واسع أخذاً فى الاعتبار خلفية عمل المؤلف فى إدارة كلينتون الديمقراطية التى لم تتبن خيار غزو العراق.

ولئن كانت إجابة المؤلف على حالة العراق هى ضرورة الحرب، ففى حالة كتابه الأخير عن إيران فان إجابته هى رفض مشروط لاعتبار الحرب الوقائية هى الحل لما تصفه الدوائر الأمريكية بالمسألة الإيرانية. فبولاك يقر فى كتابه الجديد أولاً أنه أخطأ فى كتابه السابق ويبرر ذلك بأنه كان يستند إلى معلومات استخباراتية اتضح فيما بعد أنها كانت مضللة أو على أفضل تقدير خاطئة. وأسباب رفضه للحرب فى حالة إيران متعددة منها الكثافة السكانية للإيرانيين، الطبيعة الوعرة للأرض وكثرة عدد المرتفعات والهضاب، والأعداد الكبيرة المتوقعة لمقاومين إيرانيين لأى غزو أمريكى لبلادهم نتيجة ما يؤمنون به عقائديا بما يدفعهم للموت دفاعاً عن «الجمهورية الإسلامية»، وهى قناعة أيديولوجية لم تكن متوفرة بحسب رأى بولاك فى الحالة العراقية لدى المدافعين المفترضين عن حكم الرئيس السابق صدام حسين. كما يشير بولاك إلى مخاطر قد تتعرض لها المصالح الأمريكية والمواطنون الأمريكيون فى مناطق أخرى عبر العالم فى حالة القيام بهجوم عسكرى أمريكى ضد إيران.

السلطة الحقيقية لاتخاذ القرار على الجانب الإيرانى كانت فى أيدى أشخاص إما أنهم ليسوا مستعدين أو غير مكترثين بتحسين العلاقات الأمريكية الإيرانية



وحتى بالنسبة لتوجيه ضربة وقائية ضد منشآت إيران النووية أسوة بالضربة العسكرية الإسرائيلية لمنشآت العراق النووية في يونيو ١٩٨١، فإنه يستبعد هذا الخيار لأنه يرى فيه عيوبا أكثر من مزاياه. ويوصي بولاك بأن تتعامل الولايات المتحدة مع التحديات التي تشكلها إيران لها بالتعاون والتنسيق المكثف مع مجموعة أخرى من الدول ذات الصلة بالحالة الإيرانية، سواء من خارج الإقليم أو من داخله، ومواجهة إيران بمزيج من عصي كبيرة وجزرات كبيرة أيضا Big Carrots and Big Sticks.

وقد أخذت بعض الدوائر داخل مراكز الأبحاث ووسائل الإعلام الأمريكية المؤيدة لدعوات التغيير الديمقراطي في العالم العربي والإسلامي التي أطلقتها الإدارة الأمريكية الحالية، خاصة منذ بداية الولاية الثانية للرئيس بوش الابن، على «بولاك» في كتابه عدم تعرضه بما يكفي لخيار دعم القوى والاتجاهات الديمقراطية داخل إيران، بالرغم من أن تحول إيران من نظام إسلامي إلى نظام ديمقراطي على النسق الغربي - حسب رؤية هذه الدوائر - هو السبيل الوحيد لضمان نشأة وتطور علاقات جيدة ومستدامة بين إيران والولايات المتحدة على المدى المتوسط والطويل.

الأمر الآخر الذي أخذه بعض الأكاديميين على كتاب «بولاك» هو اعتماده شبه التام على المصادر الأمريكية في مراجعه، فلم يستخدم مراجع أوروبية هامة عن إيران، بالإضافة إلى عدم استخدامه مراجع إيرانية هامة، وبالتالي أخذ هؤلاء على الكتاب أنه عكس نقاط القوة والضعف للأدبيات السياسية والأكاديمية الأمريكية حول إيران وتاريخها. وإن كان العذر الذي يمكن التماسه لبولاك في هذا السياق أنه يبحث أساسا في إخفاقات السياسة الأمريكية إزاء إيران وليس عن تطورات الحالة الإيرانية في حد ذاتها.

وهناك أمر ثالث أخذه بعض الإيرانيين والأمريكيين المؤيدين أو المتعاطفين مع شاه إيران الأخير محمد رضا بهلوي على «بولاك» وكتابه، حيث اتهمه هؤلاء بالتحامل على الشاه السابق، وتضخيم أخطائه وإخفاقاته بشكل مبالغ فيه مع تجاهل ما حققه من إنجازات لإيران وللعلاقات الإيرانية الأمريكية، وكذلك اتهموه بالتحدث مطولاً في كتابه عما أسماه بفشل سياسات الشاه الاقتصادية دون أن يذكر أن إيران حققت خلال بعض السنوات ما بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٧٨ معدلات نمو كانت تعتبر الأعلى بين مختلف دول العالم في تلك الفترة.

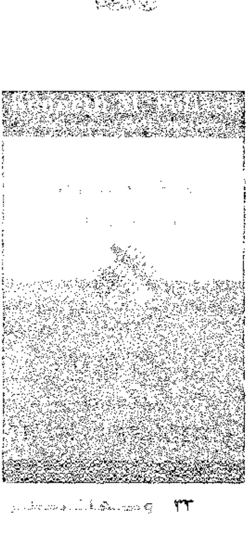
يوفر الكتاب أرضية هامة ولا مثيل لها كثيرا لخلفية العلاقات الإيرانية الأمريكية وتطورها. ويبدو أقوى في حججه ومنهجه عندما يتحدث عن الماضي وليس المستقبل، وربما هذا ما تتصف به دراسات وبحوث العلوم السياسية والعلاقات الدولية بشكل عام بالرغم مما حدث فيها من تقدم وطفرة في مناهج وأدوات التحليل - بما فيها الكمية - في العقود الماضية. فبولاك يذكر القارئ مثلاً مراراً وتكراراً كم أن الكثير من الفرضيات والمسلمات الأمريكية حول إيران وأولوياتها ومصادر قلقها هي ببساطة خاطئة. ويستدعي هذا إلى الذاكرة ما فعله تشارلز دويلفر كبير خبراء الأسلحة الأمريكيين في العراق عندما كشف للعالم كله، وللأمريكيين على وجه الخصوص، أن الرئيس العراقي السابق صدام حسين كان يدعي أن لديه أسلحة دمار شامل لأنه كان معنياً أساساً بردع إيران، الخصم الإقليمي اللدود، وليس الولايات المتحدة، القوة العظمى الوحيدة في عالم ما بعد الحرب الباردة.

ولا شك أن مواقف بولاك تجاه إدارة كلينتون وسياساتها كانت أكثر إيجابية وتعاطفاً، وهو أمر متوقع في ضوء عمله هو شخصياً في هذه الإدارة كمحلل سياسي في المخابرات المركزية ثم كمسئول عن ملف إيران والعراق بمجلس الأمن القومي. فهو يعطي لإدارة كلينتون الفضل فيما يعتبره تراجع إيران عن «الإرهاب» المعادي للولايات المتحدة بعد انفجارات أبراج الخبر في المملكة العربية السعودية عام ١٩٩٦. ولكنه يقر أن لفتات إدارة كلينتون تجاه إيران لم تؤد إلى نتيجة. وبالرغم من أن البعض يشير إلى ما أوردته لجنة التحقيق في أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ من وجود أدلة على تسهيل إيران سفر السعوديين المتهمين بالاشتراك في هذه الهجمات، فإن بولاك يتجاهل هذه النقطة كلية ويشير بالمقابل إلى ما يسميه بتعاون إيران على المستوى العملي مع الولايات المتحدة عقب هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ مباشرة وخاصة خلال الحرب ضد حركة الطالبان في أفغانستان.

إلا أن الكاتب لم يمنح اللفتات والمبادرات المحدودة للانفتاح والمصالحة ولكن الهامة وذات الطابع غير الرسمي خلال العقد الأخير التفطية أو الوزن الذي تستحقه، رغم تنوعها بين الإعلامي والثقافي والفني والرياضي والقادم من المجتمع المدني، ولم يتناول بالإسهاب المطلوب الجدل المستمر داخل الولايات المتحدة بين مؤيدي الانفتاح على المجتمع الإيراني، ولو بدون سياسة، وبين من يعتقد أن أي انفتاح على الشعب الإيراني سيصب لصالح النظام الإيراني، وهو في الواقع خلاف أعمق مما يبدو على السطح، فهو في حقيقته نزاع بين دعاة تغيير النظم المناوئة للولايات المتحدة ولو بالقوة أو بالغزو الخارجي أو تقديم الدعم الفعال لمعارضي هذه النظم من خارجها أي اتباع طرح Regime Change وبين من يؤمنون بإمكانية حدوث التغيير بشكل سلمي وتدريجي من داخل هذه المجتمعات في سياق إصلاح النظم من داخلها، كما أنه خلاف بين من يسعى إلى «تسييس» وأدلجة كل شيء، وبين من يسعى إلى الاحتفاظ بأكبر قدر من الفضاء الإنساني بعيداً عن قيود السياسة وتأثيرها المباشر.

وأخيراً، فإن كتاب بولاك لا يمنح الثقل المطلوب لدور العامل المعنوي في العلاقات الأمريكية الإيرانية، خاصة من جانب نقص أو أحيانا غياب لإدراك الجانب الأمريكي لأهمية هذا العامل على الجانب الإيراني وتأثيره على الرؤية الإيرانية للولايات المتحدة، وهو أمر يبدو أنه متوارث في تحليل العلاقات الإيرانية الأمريكية من الجانب الأمريكي. فمشاعر المرارة تتواجد لدى الشعب الإيراني تجاه الدور التاريخي للولايات المتحدة في بلادهم وتدخلاتها المتتالية في شئونهم الداخلية في ضوء معرفتنا بأن الشعب الإيراني يمثل حضارة آلاف السنين ويعتز بهويته القومية والدينية وبالتالي باستقلاله الوطني وتميزه الحضاري. ويدل على هذه المشاعر أنه حتى رموز المجتمع المدني الإيراني في الداخل - مثل المحامية شيرين عبادي الحاصلة على جائزة نوبل للسلام - حريصون على حث الولايات المتحدة على عدم إعلان دعمها لهم لأن من شأن هذا الدعم الإساءة إلى نظرة الشعب الإيراني إليهم، وعلى حثها عدم التدخل في الشئون الإيرانية الداخلية وترك شأن إيران لشعبها. ويستدعي هذا إلى الذاكرة ما ذكره الأستاذ الدكتور حسن حنفي في تقديمه للترجمة العربية لكتاب «الحكومة الإسلامية» لآية الله الخميني عام ١٩٨٠ من أن حادث احتجاز الرهائن الأمريكيين في طهران مثل جزءا مما أسماه «رد فعل قيمة الإذلال التاريخي» من الشعب الإيراني للولايات المتحدة.

مشاعر المرارة تتواجد لدى الشعب الإيراني تجاه الدور التاريخي للولايات المتحدة في بلادهم وتدخلاتها المتتالية في شئونهم الداخلية



محمد مزالي

لماذا أكتب؟ كيف أقرأ؟

** لم أزل منذ شبابي مؤمنًا بجملة من القيم الروحية والثقافية والسياسية، ملتزمًا بالدعوة لها والدفاع عنها والسعي إلى نشرها بين الناس ما وجدت إلى ذلك سبيلا، لأن الحياة عقيدة وجهاد وهي رسالة سامية يضطلع بها الإنسان الذي شرفه الله وميزه بالعقل واستخلفه في الأرض ورزقه الفكر وألهمه الحس الأخلاقي وحبب إليه العمل.. ليكون في مستوى إنسانيته وقادرًا على تحمل الأمانة.

ولئن كان النضال من أجل القيم السامية - في المجال السياسي والاجتماعي والثقافي خاصة - يستوجب الدعوة باللسان والاتصال بالجماهير والقدرة على التنظيم وعلى ممارسة جدلية الموجود والمنشود، والاهتداء إلى بلوغ الغايات النبيلة، دون التورط في استعمال الوسائل الدنيئة، خلافًا لما ذهب إليه «الواقعيون» ومثلهم الأعلى «مكيافيللي» في كتابه «الأمير» والتسامي عن خلة الغدر عملاً واقتداء بما قاله الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -: «والله ما معاوية بأدهى مني، لكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن لكل غدرة فجرة ولكل فجرة كفرة ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة».. وإنه ليس كالكتابة ضبطًا وتقييدًا للمعاني ولا تأثيرًا على وجدان القارئ ولا أشد اشتياقًا وإدراكًا لفكر قراء اليوم في الماضي والغد كذلك أي الأجيال الصاعدة ما دام الكلام على بعد وقعه في التقرير معرضًا لأن تذروه الرياح وتنساه الذاكرة، بينما يبقى المكتوب محفوظًا في نفائس الكتب ترجع إليه الأجيال جيلاً بعد جيل أخذًا وانتقادًا واستلهامًا.

لذلك كله، حرصت منذ عهد الطلب على الكتابة. إنها عندي تعبير عما أومن به وأدعو له! إنها حوار بيني وبين أبناء وطني، بل بيني وبين الناس أجمعين، اليوم وغدًا.

ولكن الكتابة - من وجهة نظري - ليست ترصيف كلمات وتنميق ألفاظ ولا هي نشاط مجاني ترفيهي لقتل الوقت وطرد الملل والكلل! الكتابة مسئولية والتزام! إن أحدًا لم يلزم «كاتبًا» بالكتابة ولا وجهه توجيهًا ما في تحبير المقالات وتصنيف الكتب.. اللهم إلا إذا رضي هذا «الكاتب» أن يكون مرتزقًا محترفًا، طامعًا أو خائفًا.

إن الالتزام غير الإلزام! إنما الشعور بالمسئولية اختيار نابع من الذات مرادف للتجربة ودليل عليها، ومقوم هام من مقومات الشخصية الفردية ووعيها بمنزلتها في الكون ورسالتها في الوجود.

لذلك فإني إذ أكتب إنما أريد أن أعبر عن وجودي وأفرض حريتي وأضطلع بإنسانيتي وأبلغ إخوتي في الوطن وفي الإنسانية جمعاء في مفهومي للخير والحق والجمال وتصوري لجوهر الحرية وتبعاتها، وحقيقة الواجب ومستلزماته.. ذلك أن وظيفة الكاتب - كما أكدت ذلك منذ الخمسينيات - تتمثل في كونه يسمي الأشياء بأسمائها ويكشف عنها فيؤثر في مواقف الناس وفي علاقات البشر بعضهم ببعض. وإذن فإن الكاتب مسئول نحو نفسه ونحو معاصريه عن كل ما يكتب، أي عن كل ما يفعل طالما أن الكتابة موقف وفعل».

يختلف الكُتاب ويتفاوتون قيمة وتأثيرًا بحسب قيمة فنهم وروعة أسلوبهم وحسن ديباجتهم.. وهم في ذلك أحرار.. ولكنهم - في نظري - يفقدون أصالتهم ويزيغون عن رسالتهم إذا هم اهتموا - دون الجوهر - بتنميق الألفاظ واستهواء القارئ بحلاوة الجرس والرنين وآثروا أن يكونوا - كما يقول طه حسين - «معازف يتعين على أنغامها المقربون» (انظر كتابه «تحت شمس الفكر» فصل «الفكر والشعب»).

أنا لم يخطر على بالي أن أمارس الفن للفن بل كتبت دائمًا «توصيلاً» وتبليغًا وسعيًا إلى التأثير ووفاء لالتزامي نحو الأمة والإنسانية وما ترنو إليه من مستقبل أسعد وغد أفضل.

لماذا أكتب؟ سؤال قد يجد القارئ الكريم جوابًا له - إلى جانب ما سبق - في هذه المقتطفات من مقدمة كتابي «في دروب الفكر» (١٩٧٩): «هذه أيها القارئ الكريم «معالم أخرى» أضعها في طريقك: ألقاك بها وتلقاك، بعد أن كانت سعت إليك كتبي «من وحي الفكر» و«مواقف» و«دراسات» و«وجهات نظر».. فحفلت بها ورحبت. ورأيت فيها صورة بينة الملامح، بعيدة الأفق، لنضال دأبت عليه سنين طوالاً - ومازلت - مساهمة في إيقاظ الهمم، واستنهاض العزائم، وفتح البصائر، ودعوة أهل الفكر من أبناء أمتنا إلى تكسير أغلالهم وتفجير طاقاتهم وتسخير قواهم لخدمة ثقافتهم ومعالجة قضاياهم وإنارة شعوبهم.

لقد حاولت، يا قارئي الكريم، أن أطرح بين يديك قضايا هي قضاياك، وأن أثير مشاكل هي مشاكلك، وأن أجابه متناقضات هي متناقضاتك، وأن أواجه تساؤلات هي تساؤلاتك. وأن أقف من الوجود مواقف دعوتك إلى التفكير فيها بكل جد، ورجوتك إمعان النظر في أبعاده بكل حب ومعالجتها بكل شجاعة!

ولقد كان ديدني في كل ذلك أن أكون معك صريحًا، إذ كنت أطمح بآمالي إلى أن أفيد قومي وشباب بلادي، وأن أعرض عليهم مآسينا وقضايانا عارية كيوم الحساب، وأن أصدع بما أعتقده الحق غير مكتف بعرض القضايا دون حلولها، بل كنت أدعو إلى إعمال الفكر وإيثار الصدق والاعتبار بما يجري في غير دارنا.. وهل التفتح شيء آخر غير الاعتبار أساسًا بما يقع حولنا وفي ظروف حياة تشبه ظروفنا؟

فلا تطمعن إذن - أيها القارئ الكريم - في أن تجد فيما أقدمه لك - أدبا «إبداعيًا» يجنح بك إلى الخيال ويدعوك إلى التأويل.. ويسمو بك أو ينزلق - إلى ضرب من التسابيح الضبابية والتجليات الصوفية. بل لقد سلكت إليك أسلوبًا واضح العبارة، فصيح الإشارة، لم أركب فيه مركب الرمز والإغماض، ولم ألتجئ إلى المداورة والالتواء، رجاء النفاذ إلى نفسك بلا تأشيرات ولا مسوغات، وإقامة حوار معك وحوار آخر بينك وبين ذاتك. حوار قوامه نزاهة في الحكم وصراحة في القول وصدق في معالجة الأمور. فحسبي أن أكون قد وفقت».

أما كيف أقرأ فجوابي هو أني أطالع بنهم كبير وإقبال شديد كلما استشفت كتابًا أو استجزت مقالاً في مجلة أو جريدة.

إن المسئوليات الجسام التي تحملتها طيلة ثلاثين سنة منذ استقلال تونس إلى سنة ١٩٨٦ حالت دون قراءة كل ما كنت أود مطالعته من أدب رفيع نثرًا وشعرًا ومن دراسات تاريخية وأبحاث حضارية عربية وأجنبية، بل إني كنت مضطرًا طيلة تلك الفترة الطويلة إلى قراءة مئات التقارير والرسائل الإدارية عديمة الفائدة الثقافية، وأشعر اليوم أن ما فاتني في مجال الثقافة لا يمكن تداركه لأن عملية النشر في نمو متزايد وعليّ واجب انتقاء أعز ما ينشر اليوم فائدة وألصق باهتماماتي.

إن ولعي بالكتاب كبير، وما أبلغ ما قاله فيه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري: «.. ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من الأرض، وأكتم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة، ولا أعلم جارًا آمن ولا خليطًا أسعد ولا رفيقًا أطوع ولا معلمًا أخضع ولا صاحبًا أظهر كفاية وعناية ولا أقل إملالاً ولا إبرامًا.. ولا أزهد في جدال ولا أكف عن قتال من كتاب..».

وما أفصح ما قاله الجاحظ في الكتاب: «.. وإن عزلت لم يدع طاعتك وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متعلقًا منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء..».

لقد أصبحت في منفاي منذ خمس سنوات أشد حبًا للكتاب وأطول معاشرة له، وأكثر اعتمادًا عليه لتجاوز الوحدة والوحشة وتعميق وعيي للناس والحياة. ■



حيز مطبخك يحدد طبقتك

«ثقافة الطعام» في مصر

ملك رشدي

** خلال السنوات الأخيرة طرأت في مصر عدة تغييرات مهمة في الثقافة الغذائية وحيز المطبخ. يمكن ملاحظة هذه التطورات في مجالين أساسيين: التوسع في شكل جديد من أشكال الطهي عملت على نشره وسائل الإعلام الرسمية ودور النشر والإنترنت؛ وإعادة تشكيل حيز المطابخ تماشياً مع أسلوب الطهي الحديث. ويسعنا اقتفاء أثر هذه التغييرات منذ نهاية العقد التاسع من القرن العشرين وبداية العقد الأخير منه. وذلك مع التوسع في إقامة شركات إنتاج المأكولات الجاهزة والمجمدة وسلاسل المطاعم وشركات تصميم الأثاث الخاصة. وقد تطلب هذا التوسع تسويقاً مبتكراً واستراتيجيات للتغليف - غالباً ما تكون نسخة طبق الأصل من التصاميم الغربية - ترمي إلى نشر المنتجات وتوزيعها على نطاق قومي.

لقد عمدت في هذا البحث إلى سبر العوامل التي تعكس من خلالها الثقافة الغذائية صورة جديدة لطعام يتمحور حول الطبقات الاجتماعية. كما تفحصت أيضاً كيف تعيد هذه الصورة تعريف حيز المطبخ باعتباره رمزاً للهوية الطبقية. إن المهمة الأولى وثيقة الصلة بالأخرى والاثنتان تنتجان في النهاية هوية اجتماعية تميز بين الفاعلين لها والآخرين، (بيير بوردو، الفوارق الاجتماعية: نقد اجتماعي للحكم، ١٩٧٩: ١٩١) إن تلك البنية تحديداً، بنية التفاوت الاجتماعي الممثلة في الثقافة الغذائية والحيز، هي التي تبين كيفية حدوث عملية التغيير الاجتماعي والثقافي بالمجتمع القاهري، ولا سيما الطبقتين الغنية والمتوسطة.

وقد استخدمت مصطلح الطبقة هنا للإشارة إلى الطبقتين الوسطى والعليا، حيث الأخيرة متميزة اقتصادياً واجتماعياً، وفي النهاية سياسياً. وهي متأثرة ثقافياً بالغرب بشكل أو بآخر وأنماط استهلاكها تتسم بالذوق الرفيع. بمعنى آخر، سيحاول هذا البحث أن يستوعب كيف يتسنى لمقاربات الطهي الجديدة تحويل العلاقات الاجتماعية وبناء هويات اجتماعية جديدة ليسفر هذا عن انقسامات اجتماعية وثقافية جديدة.

إن الطعام والطهي يشغلان مكانة أساسية بالاقتصاد والمجتمع المصري. إذ يتجليان في حجم الاستهلاك والعلاقات الاجتماعية. وفي فئات عاملة مختلفة تهيمن على الممارسات اليومية للطبقات الدينية المتباينة بالقاهرة. ثمة ملاحظات بسيطة للحيوات اليومية للقاهريين - بغض النظر عن انتماءاتهم الإقليمية أو الدينية أو الطبقية - تبرز الشبكات والنظم المتعددة التي يتبعها القاهريون لإدارة هذه المساحات. وعلى صعيد آخر، برهنت الدراسات الاقتصادية على أهمية الإنفاق المنزلي للطعام فيما يتعلق بمعدلات الفقر والدعم الغذائي، وأوضح بعض علماء الأنثروبولوجيا أن تجهيزات المطبخ تضطلع عادة بجزء لا يتجزأ من أي زواج (عبد الخالق جودة وكريمة كريم، إجراءات السياسة المالية في مصر: الدين الداخلي والدعم الغذائي، ٢٠٠١؛ وهوما هودفار، بين الزواج والسوق، سياسات جوهرية والبقاء في مصر، ١٩٩٧: ٨٦، ١٦٨).

غالباً ما تمثل تلك التجهيزات عبئاً مادياً على ميزانية المتزوجين حديثاً وتصبح محل تفاوض بين عائلتي العروسين. هناك مثلاً نظام لا خلاف عليه يحكم توزيع تجهيزات المطبخ تنهض أسرة العروس وفقاً له بأغلبية النفقات، بل إن الأسرة ميسورة الحال تبتاع خزائن المطبخ لمنزل ابنتهم (هوما هودفار، ١٩٩٧: ٦٨، ١٦٦ ـ ٦٨). وفي واحدة من المقابلات التي أجريتها مع سيدة من المقطم متزوجة حديثاً، أفضت إلى العروس أنه تبعاً للتقاليد، كان على أسرتها أن تزود الزوجين الشابين بالطعام المطهو والمكونات النيئة لمدة شهر من بداية زواجهما بغرض رفع العبء المادي لاستهلاك الطعام. وتماماً كما تأثر الفقراء بالعبء المادي للاستهلاك الغذائي، تأثرت الطبقتان المحدودة والمتوسطة تأثراً لا يستهان به بارتفاع أسعار الطعام وإلغاء الدعم الغذائي خلال السنوات الأخيرة. وعليه ضعفت قدرتهما على الاحتفاظ بمستواهما المعيشي (عبد الخالق وكريم ٢٠٠١: ٦٩-٧٨، ٨٧-٩١). وفيما تحاول الطبقة المتوسطة بلا انقطاع الحفاظ على أسلوب حياتها وطموحاتها للترقي بمستواها مقارنة بنموذج الطبقات العليا، تكافح بلا هوادة في مواجهة ظروف اقتصادية صعبة لتجابه في العادة نتائج تصيبها بإحباط لا حد له.

يظهر أحد جوانب هذا الصراع في مذاق الطعام وأنماط استهلاكه. يوضح بوردو أن الممارسات الاجتماعية والثقافية ترتبط عادة بالطبقات المختلفة وتنتظم طبقاً لبنية التعارض. وعليه، فإن تنظيم المساحات الاجتماعية يشكل البنية ويغير أسلوب حياة المستهلك وثقافته. وبناء على هذه الفكرة، تحاول الطبقتان الفقيرة والمتوسطة بكل قوتهما تشكيل حيزهما الاجتماعي واستهلاكهما داخل بنية تتعارض مع الأطعمة المميزة لعامة الشعب. سيحاولان دائماً وأبداً بلوغ «مذاق الرفاهية» والابتعاد عن «مذاق الحاجة» ويشدد بورديو على أن مذاق الحاجة يتعارض تعارضاً حاداً مع مذاق الرفاهية، حيث يصبح الأخير مذاق من يتمتعون بالرفاهية المرافقة لرأس المال لينأوا بعدها بأنفسهم عن عالم الحاجة. هكذا يقبع مذاق الحاجة في تعارض مع مذاق الرفاهية ليعبر عن الحاجة الدائمة لتأمين الضروريات الأساسية. ويقول بورديو إن هذا يتجلى في استهلاك الطعام حيث نجد الطعام الشعبي زهيد الثمن إنما مغذ بما يكفي لضمان القيام بنشاطات الطبقة العمالية بأقل تكلفة ممكنة (بوردو ١٩٧٩: ١٩٨، ١٩٦). ويفسر لنا هذا التناول النزوع النظامي للشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة إلى مذاق الطبقات العليا، فهي تحاول أن تبتعد اجتماعياً عن دنيا الحاجة ودنيا «الشعبي» كي تدنو من دنيا الرقي والتميز.

وفي هذا الإطار لم يسبق للدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية بحث العلاقة بين الاستهلاك الغذائي والممارسات الاجتماعية كما ينبغي. فأغلبية الدراسات التي أجريت عن أهمية الطعام في مصر تدور في المجمل حول المجال الاقتصادي وتتركز على موضوعات تتصل بالفقر ودخل الأسرة وإنفاقها. إن الأبحاث في هذا الحقل لا تضع في اعتبارها الأبعاد الثقافية التي تسمح لنا بفهم آلية التحول الاجتماعي وديناميكيته. فالدراسة الأنثروبولوجية والاجتماعية الحديثة الوحيدة على حد علمي التي تحاول ربط النظم الغذائية بالأبعاد الثقافية في القاهرة هي المجلد الصادر عام ١٩٩٥، نظام التغذية الحضري في القاهرة (جورج جيرتيل: ١٩٩٥).

أما الدراسات الأخرى فتلقي الضوء على القضايا الغذائية والعادات الصحية والتغذية والأشكال الحديثة لاستهلاك الطعام الصحي. وفي هذه الكتابات، تغيب الجوانب السوسيولوجية والأنثروبولوجية للثقافة الغذائية عن السياق المصري برغم أهميتها المتزايدة في الدراسات التاريخية والسوسيولوجية والأنثروبولوجية بوجه عام (فرانسوا أشر، الأكل المفرط في الحداثة، ٢٠٠٥؛ جيمس واطسون، القناطر الذهبية شرقاً: ماكدونالد في شرق آسيا، ١٩٩٧, Ariès 1997, Ferriéres 2002, Flandrin ٢٠٠٢). لذا يمكن الزعم أن ثمة ثغرات في المعالجة النقدية لمجال الاستهلاك الغذائي والثقافة في مصر.

بيد أن المفارقة تكمن هنا في تصاعد اهتمام واضح، على الصعيدين

النص الكامل للمقالة ينشر أيضاً في:
Cultural Dynamics in Contemporary Egypt
(متغيرات الثقافة في مصر)
Cairo Papers in Social Science, Volume, 27
The American University in Cairo Press

ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

الاجتماعي والجماهيري، بنشر المعرفة والثقافة الغذائية وتعميمهما من خلال وسائل الإعلام والإنترنت ومختلف الشبكات الاجتماعية. فالطهاة المحترفون والصحافة ووسائل الإعلام وأسواق الطعام ومتاجر الأثاث والأجهزة الكهربائية جميعها تستثمر أموالها في الترويج لمكونات الطعام الجديدة والوجبات الجاهزة ومفاهيم الطهي. ويتعين علينا معالجة هذا الاتجاه وتحليله والوقوف عليه في سياق الاستهلاك العالمي واقتصاد السوق. كما أن القراءة التحليلية لهذا الواقع ستعاوننا على وصف التغيرات الاجتماعية والثقافية المعقدة التي تتداخل مع الديناميكيات المحلية والعالمية. وفي إطار العلاقات المتشابكة للديناميكيات العالمية والمحلية، يتعين النظر إلى المعرفة والثقافة الغذائية بوصفهما حاملتين للبنى والصور والعلاقات الاجتماعية والثقافية، إذ غالباً ما تشير مثل هذه النوعية من المعرفة إلى بنى الهوية والفوارق الطبقية. وعند هذا المستوى من التحليل تحديدا نستطيع القيام بتناول نقدي بهدف تعيين بضعة أبعاد للتغيير الاجتماعي والثقافي وما يتولد عن مثل هذا التحول من انقسامات داخل المجتمع المصري.

لقد انتقلت المعرفة والثقافة الغذائية إلى اللغة العربية في مصر من خلال التليفزيون ووسائل الإعلام المكتوبة والإنترنت وكتب الطهي، وبلغت هذه الوسائل المتباينة العديد من الفئات الاجتماعية المختلفة: المتعلمة والجاهلة، الغنية والفقيرة. وعلى الرغم من تنوع وسائل الانتشار المتاحة حالياً، تضمر هذه المعرفة ثقافة تستعصي على الأغلبية العظمى استهلاكها، إذ تلبث ملكية خاصة لأقلية ومطمحاً لطبقة متوسطة في سبيلها إلى الحراك الاجتماعي صعوداً أو هبوطاً.

إن كل شكل من أشكال الانتشار يسرد قصة مختلفة - قصة تفد من الماضي أو الحاضر، قصة عما يعتبره الناس غذاء جيداً أو رديئاً، قصة عن الطريقة التي يجب أن يطهى بها الطعام ويؤكل. فأدوات انتقال تلك المعرفة تحدد معايير الطعام الجيد وكيفية تعامل الناس معه. إنها رسالة تطلعنا على كيفية تقديم أنفسنا على ضوء تلك المعرفة وكيفية تصوير «الآخرين» (أرجون أبادوراي، دراسات مقارنة في المجتمع والتاريخ، ١٩٩٨: ٣، ٧).

سوف أبحث أولاً في كتب طهي محددة وبرامج تليفزيونية عن الطهي تذاع باللغة العربية، برامج كتبها مصريون وقدموها خلال الأعوام الخمسة الأخيرة. وسيتبع ذلك نقاش حول العلاقة بين نماذج الطهي المقترحة.



وكلاء وفاعلون ومؤلفون

لقد نجم عن التوسع فى تكنولوجيا النشر وزيادة أعداد القنوات التليفزيونية فى السنوات الأخيرة تدفق حقيقى لمنشورات وبرامج ترتبط بالطعام والطهى. فقد أصدرت الكثير من البرامج التليفزيونية كتباً تصاحبها شرائط فيديو تبرز تقنيات الطهى الجديدة (منى عامر؛ وأسامة السيد). ومن بين معظم النصوص الموجودة يمكننا تعيين ثلاثة أنواع:

○ النوع الأول يتمثل فى كل المتأثرين بالثقافة الغربية/العالمية والمطلعين عليها.

○ الثانى يغطى هؤلاء المؤمنين بأن معرفتهم وخبرتهم الخاصة فى الطهى يجب نشرها ومشاركة أكبر عدد من المشاهدين والقراء فيها.

○ يتضمن النوع الثالث الحاصلين (أغلبيتهم من النساء) على دبلومة فى مجال الطهى من كلية الاقتصاد المنزلى.

لقد أنتجت النساء أغلبية الوثائق المجمعة - سواء كانت مكتوبة أو مسجلة أو تم تحميلها على الحاسبات الإلكترونية - باستثناء بضعة طهاة مهرة من أمثال أسامة السيد وإسماعيل هاشم؛ رئيس الطهاة بوزارة الخارجية. ويعتبر الاثنان من الطهاة المتخصصين بسبب مواقعهم المهنية المتميزة.

لقد اعتمدت اختياراتى للمواد على أن يكون المؤلفون مصريين وينشرون باللغة العربية ويوجهون خطابهم إلى الجمهور العربى. إن هذه المجموعة المختارة لا تمثل الطهى المصرى تمثيلاً شاملاً بأية حال كما أنها ليست محاولة منى لنقد الاتجاهات العامة لأنماط الطهى الحديثة؛ إلا أنها محاولة لتقديم بضعة أمثلة ستعاون القارئ على فهم الصورة الاجتماعية والتمثيل الأيديولوجى وعملية بناء الهوية. ولا بد أن يلم القارئ بكل فئة من العوامل الموضحة أعلاه فى سياقها الخاص.

الفئة الأولى: شخصية الطهى العالمية

صادفت اسم منى عامر أول مرة فى مقالة نشرها مكتب الشئون الزراعية عام ٢٠٠١ بالسفارة الأمريكية فى القاهرة وأنا أتابع دراسة عن السلع الغذائية المستوردة من الولايات المتحدة (منال المصرى: «طهاة مصريون يروجون الصادرات الأمريكية» ٢٠٠١). عرض التقرير وصفاً مفصلاً لما تنفقه الولايات المتحدة من جهود للترويج لمنتجات الطعام الأمريكية المصدرة إلى مصر. وكجزء من مجهوداتها، أطلقت السفارة الأمريكية فى القاهرة مسابقة بعنوان «مهرجان الطعام الأمريكى العظيم» استضافه فندق خمسة نجوم بغرض جذب رؤساء الطهاة المصريين



نجم عن التوسع فى تكنولوجيا النشر وزيادة أعداد القنوات التليفزيونية فى السنوات الأخيرة تدفق حقيقى لمنشورات وبرامج ترتبط بالطعام والطهى

والمستوردين المصريين الأساسيين. وقد قدم هذا الحدث الترويجى حوالى تسعة عشر منتجاً وتضمن مسابقة تنافس فيها أربعون طاهياً مصرياً لابتكار أفضل وصفة تتكون من ٩٠٪ على الأقل من منتجات أمريكية مستوردة. وقد ترتب على هذه المسابقة كتاب عن الطهى باللغتين العربية والإنجليزية، أول كتاب للوصفات الأمريكية، وقد تم توزيع هذا الكتاب على الفنادق ذوات الخمسة نجوم والمتاجر الكبرى. وطبقاً لمنال المصرى «إن تأليف (كتاب) عن الطهى - مع التركيز على مكونات الطعام الأمريكية - من شأنه أن يدعم الواردات المصرية مستقبلاً» (المصرى ٢٠٠١: ٨) كانت منى عامر أول فائزة عام ٢٠٠٠، وقد صرحت فى أحد اللقاءات أن «استخدام المكونات الأمريكية أمام الجمهور يعطى انطباعاً رائعاً». وأردفت قائلة:

«طالما استعملت المكونات الأمريكية فى طبخى لأنى أنال مذاقاً أفضل والوجبة تجهز سريعاً... أستخدم دقيق القمح الأمريكى والصلصة وما أزين به الحلوى... إن المستهلكين المصريين يصعب إقناعهم لذا يتوجب على الشركات الأمريكية بذل المزيد من المواد الدعائية والترويجية (اقتباس من منال المصرى، ٢٠٠١: ٨).

لا تنفك عامر تروج منتجات الطعام الأمريكية عبر حملات دعائية تستهلها سفارة الولايات المتحدة بالقاهرة. وقد أقيمت آخر حملة فى يناير ٢٠٠٤ بغرض زيادة «... وعى المستهلك بتوافر المنتجات الأمريكية وجودتها». وقد انطلقت هذه الحملة فى المتاجر الكبرى حيث تتسوق بانتظام الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة. ومن خلال عروض حية للطهى بمتجرى ألفا وشوبرايت، طورت عامر ثمانية عشر طبقاً أثناء حملة استغرقت أربعة أشهر كما روجت قوائم طعام مختلفة بكل متجر من المتاجر.

يجب الإشارة إلى أن مجهودات الحكومة الأمريكية للترويج لمنتجات الطعام الأمريكية بالسوق المصرى جاءت نتيجة لنقص حصة المنتجات الزراعية والغذائية الأمريكية بالسوق المصرى من ٥٠.٥ مليون دولار عام ٢٠٠١ إلى ٤٧ مليون دولار عام ٢٠٠٢. ويرجع هذا النقص إلى اتفاق وقعته الحكومة المصرية وخمس عشرة دولة من أعضاء الاتحاد الأوروبى يقضى بتقليص تعريفة الواردات على معظم المنتجات خلال ١٢-١٥ عاماً مقبلة. وعلاوة على ذلك، أفضى الوضع السياسى الحالى بالشرق الأوسط وتخفيض قيمة الجنيه المصرى إلى انخفاض يعادل ٣٠٪ من المبيعات (منال المصرى وعلى عبدى: «دليل الصادرات المصرية»، ٢٠٠٣: ٢ - ٣). ومع الوضع فى الاعتبار هذه الأرقام وما يوشى به المقال من نبرة قلقة، تم اتخاذ عدد من التدابير

للإعلان عن المنتجات الغذائية الأمريكية وترويجها عن طريق وكلاء كمنى عامر وغيرها.

وقد عرفت عن طريق المعلومات الصحفية المتاحة لدى أن منى عامر عاشت لبضع سنوات فى أمريكا الشمالية حيث تعرفت على الثقافة الأمريكية وتلقت دورة فى الطهى (شاهيناز العقباوى، «أنا خارج المنافسة»، «الأهرام العربى»، ٢٠٠٤) تعرض عامر فى برنامجها «صحى ومفيد» على القناة الأولى بالتليفزيون المصرى وصفات وافدة من دول متباينة كالمكسيك وجاميكا. يجدها المشاهدون فى أكثرية الأحيان غريبة وعصرية، فهى تقدم مقاربات مبتكرة للطهى من خلال مزج وصفات مختلفة لإخراج طعوم متباينة (العقباوى، ٢٠٠٤)، وجمهورها، سواء كان قارئاً أو مشاهداً، يستطلع عوالم لم يعهدها من المكونات التى تكون أحياناً متوافرة محلياً إلا أن هذه العروض الجديدة تكسبها قدراً من الاعتراف بها. فقد أعادت عامر على سبيل المثال تقديم حبوب السمسم المستخدمة فى السميط إلى الطبقة المتوسطة عن طريق مجموعة من الأطباق الصينية. وعليه لم تعد تلك الحبوب مجرد مكون من مكونات خبز السميط أو المعجنات الشرقية إنما خضعت لعملية إعادة لعريف فى إطار قائمة الطعام الصينية وصورتها الاجتماعية. لقد أحرزت هذه المكونات مغزى جديداً بمجرد أن تم تقديمها واستخدامها فى سياق ثقافى جديد.

وبالإضافة إلى نشاطاتها الإعلامية، افتتحت عامر مطعماً يدعى «فاين تاتش» فى حى المعادى السكنى بضواحى القاهرة حيث يقطن العديد من الأجانب والمصريين المنتمين إلى الطبقة المتوسطة. وسواء أفردت لها الصحافة صفحات الإعجاب أو النقد ودار حولها الجدل، لا مراء أن عامر قد قدمت اتجاهات جديدة إلى الثقافة الغذائية حتى إن بعض الصحفيين ادعوا أنها أحدثت ثورة فى عادات المطبخ المصرى (إنجى الكاشف، «ابتكر، لا تقلد»، الأهرام ويكلى ٢٠٠٠؛ العقباوى، ٢٠٠٤). غير أن ثمة صحفيين آخرين يزعمون أن برنامجها المعروض فى أوقات الذروة بالتليفزيون المصرى يؤدى إلى عزل أكثرية المشاهدين وتهميشهم، المشاهدين الذين لا ينتسبون إلى طبقة متوسطة صاعدة تطمح إلى الاستيلاء على الرموز الثقافية للطبقات العليا. وقد أردفوا أن منى عامر تحاول إعادة صياغة المفاهيم القائمة بين الطعام والآكلين وكذا إعادة تشكيلها فى سياق الاقتصاد العالمى.

فى إحدى المقالات التى انتقدت عامر وسخرت منها، اقترح أحد المؤلفين تحويل الطابق الأول من مبنى

إن الإمام يتمتع بموهبة الممثل وإبداع المتذوق الخبير؛ وهو لا يدعى الإلمام بأية كفاءة فى الطبخ عدا ما ينعم به من موهبة بحاستى الشم والتذوق. فهو مثال بارع للمتذوق الجيد وممثل يجلب المتعة للمشاهدين بأدائه. يقدم الإمام برنامجه وسط مطبخ بالغ العصرية معد بكل التجهيزات الممكنة حيث يقوم بدور الطاهى وفى نفس الوقت يستضيف الضيوف. يبدى شيئاً من الحرية فى أساليب طهيه ويلوح وكأنه يرتجل بدون تقيد بالوصفات.

وفى هذا الجو استضاف الإمام منذ عدة أعوام عماد أديب فى برنامجه. راح الإمام يطبخ طبق فتة فى بيئة تشيع فيها الراحة، ويتجاذب فى استرخاء أطراف النقاش حول متع الطعام. إن جسمى أديب والإمام لا يتناغمان مع المعايير المثالية للنموذج الصحى؛ فهما - فى الخمسين من العمر - زائدا الوزن وقد تراءت عليهما ملامح الاستمتاع الشديد عند أكل الفتة. ومن ثم يقفان فى وضعية تتعارض مع صورة مذاق الرفاهية على حد قول بوردو. فتلك الصورة تحتقر البدانة والمكونات الدسمة وكميات الطعام الضخمة. أما الاعتدال والنحافة والمظهر الصحى وكميات الطعام المقننة والطعم الراقى الفخم فهى فى العادة علامات لمذاق الرفاهية (بورديو، ١٩٧٩: ١٩٩).

لقد نقل كل من الضيف والمذيع مزيجاً من المذاق الشعبى ومذاق الرفاهية، الأمر الذى انعكس على ملابسهما ولغة جسميهما وحديثهما عن الطعام. بعد الشكل المعتاد للبرنامج، ينتقى الضيف الوصفات - وهو فى هذه الحالة هاو للفتة بكل أشكالها - ثم يساهم المشاهدون من البلاد العربية المختلفة فى مناقشة تحتدم بين الإمام وضيفه حول قضايا تتعلق بالسياسة والاقتصاد والرياضة وثقافة الشباب. وفيما تقع تلك الأحاديث، ينهمك الإمام فى الطهى. وعند نهاية البرنامج، يتناول المذيع والضيف الوجبة معاً. هكذا يصبح حيز المطبخ حيزاً للمرح والاختلاط الاجتماعى ويصير الطهى نشاطاً بسيطاً يحكمه المذاق الطيب ولا يخضع للتعقيدات والقواعد الصحية والتقنيات. إن السياق الاجتماعى والوصفات تقدمان بطرق تتوافق مع المذاق الثقافى للجمهور بينما يتحلى الموقع بجماليات دولية عالمية.

يشترك عامر والشيف أسامة والإمام فى صفات واحدة: اتصالهم بوسائل الإعلام والشخصية المصرية وتعرضهم لتأثيرات الثقافة الغربية. الأولان يروجان نموذجاً عصرياً تسوده التكنولوجيا والقواعد الصحية والطعوم الغربية بينما يشدد الثالث على متع التذوق والتسلية الاجتماعية المرافقة للطهى والأكل.



فيما تحاول الطبقة المتوسطة بلا انقطاع الحفاظ على أسلوب حياتها وطموحاتها للترقى بمستواها، تكافح بلا هوادة فى مواجهة ظروف اقتصادية صعبة

الفئة الثانية: التقليد والحداثة

لا يمكن فى أى حديث عن المطبخ المصرى تجاهل ماجدة المهداوى. كانت قد أصدرت كتاباً، مطبخ جدتى أكلات مصرية، حلو وحادق، يحوى تصاميم ملونة وصورة للمؤلفة تتصدر الصفحة الثانية منه ومقدمة طويلة عن مشروعها وآرائها. ولدت المهداوى فى الإسكندرية وتربت بها وقد قررت جمع وصفات ما تسميه المطبخ المصرى «التقليدى» من السيدات العجائز وكتب الطهى القديمة. فجمعت وصفات قديمة وأعادت تأليفها قبل أن تختفى من ذاكرة المجتمع الجمعية. غير أنها لا تخبر لنا ما هو المقصود بالمطبخ «التقليدى» ولا تعرفه. تحاول المهداوى بعدها تحسين الوصفات التقليدية حتى تتكيف مع المعايير الحديثة للنظافة والصحة. للمهداوى خلفية فى علم المصريات وهى تعلن أن هدفها هو جمع وصفات المطبخ المصرى القديم الأصيل وحفظها، الوصفات المشتقة بالأساس من الأطباق المصرية القديمة. (ماجدة المهداوى، مطبخ جدتى، أكلات مصرية، حلو وحادق ٢٠٠٣: ٦-٧). فغرضها هو تحديث الوصفات القديمة دون إحداث تغيير فى أصالة الطبق. وترى المهداوى أن تحديث الطهى يشمل تخفيض كمية الدهون وتبسيط خطوات التجهيز والارتقاء بشكل الطبق فيما يتعلق بألوانه وأسلوب تقديمه (المهداوى ٢٠٠٤).

إن العاملين فى هذه الفئة يتولاهم القلق من اختفاء الثقافة والأصالة المحلية فى مواجهة لثقافة غربية عالمية تغزو المطبخ المصرى ويتملكهم إحساس قوى بالقومية والحنين إلى الماضى.

الفئة الثالثة: المقاربة العلمية

معظم من تشملهم هذه الفئة مؤلفون يدعون أنهم يخاطبون بخلفيتهم العلمية جمهوراً أوسع فى إطار مقاربة عصرية تستند إلى «الثقافة التقليدية». تباع كتبهم عادة بأسعار زهيدة وهى فى متناول أيدى القراء بمعظم المحافظات المصرية. وتصدر بعض هذه الكتب كمراجع «أكاديمية» لطلبة كليات الاقتصاد المنزلى بينما يستعين آخرون بشركات غذائية محلية كالمخابز وشركات تصنيع الحلويات لتمويل نشر كتبهم. يعمل العديد من المؤلفين أعضاء بهيئة التدريس فى كليات الاقتصاد المنزلى ويعدون هذه الكتب ككتب دراسية للطلبة. يصعب علينا هنا تحديد مجال توزيع تلك الكتب أو مبيعاتها إلا أنه من غير المحتمل أن تضارع

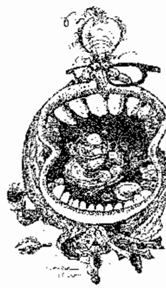
مبيعات هؤلاء المؤلفين مبيعات مؤلفين من الفئة الأولى كمنى عامر وأسامة السيد الذين هم في النهاية نجوم إعلاميون.

إلا أن هذه المقارنة لا تجدي نفعاً بالغاً في المجمل بما إن الكتب وبرامج التليفزيون والمواقع الإلكترونية تعكس نزعات مختلفة وتوجه لجماهير متباينة كما تبعث برسائل مختلفة. في الصفحات القادمة، لن أمر بالتفصيل سوى الفئتين الأوليين وذلك لأنهما وثيقتا الصلة بالنقاش الحالي ألا وهو تحول الثقافة الغذائية في مصر.

برامج وكتب ومواقع إلكترونية

أقدم في هذا المجال أعمال أربعة مؤلفين/فاعلين كعوامل تؤثر في تطور الطهي بين الطبقات الموسرة. إن عامر والسيد والإمام والمهداوي ممثلون للمذهب الحديث الذي يقول بتقديم ممارسات مبتكرة ورموز جديدة إلى المبادئ الثقافية للطبقة المتوسطة والشريحة العليا منها. فهم يوجهون خطابهم في الأغلب إلى المجموعات الاجتماعية الغنية بغرض تبديل المعرفة والممارسات التقليدية للطهي والتقديم والأكل. الحق أنهم يحاولون خلق نموذج معين للتفوق الثقافي والاجتماعي. نموذج يميز بين جمهورهم وقرائهم وبين العامة أو بين ممارسات يحسبونها غير مناسبة أو عتيقة أو ضارة بالصحة. إن مقاربتهم مقاربة إصلاحية تتلون بملامح عصرية.

يتبين لنا بعد القراءة الدقيقة لأغلبية كتب الطهي أو المواقع الإلكترونية أن إشارات دينية طويلة - آيات قرآنية وأحاديث شريفة تلائم مقتضى الحال - لا بد أن تتصدر النصوص. إلا أن النصوص المنتقاة هنا قد قلصت هذه الإشارات أو على الأقل غدت تستعملها باعتدال (بيتر هاينه، «إحياء الطهي التقليدي بكتب الطهي العربية الحديثة»، مذاق الزعتر: ثقافة الطهي بالشرق الأوسط، ١٩٩٤:١٤٥). إذ تم استبدال أغلب تلك الإشارات إلى الدين ونواميسه بالمعنى الحرفي للكلمة بخطاب قوي اللهجة يتمحور حول التحديث وإن انسجم مع المبادئ الدينية الإسلامية. وهذا الضرب من الخطابات يضع في الحسبان الحساسيات والثقافة الدينية للطبقة المتوسطة المصرية. الواقع أن الطبقة المتوسطة ازدادت في الحجم وشهدت تقلبات ثقافية واقتصادية وسياسية مهمة منذ اندماجها مع اقتصاد البترول إبان هجرة الأيدي العاملة وسياسة الانفتاح خلال العقد الثامن من القرن العشرين وما تلاه (جلال أمين، مصر تحت حكم مبارك، ١٩٨٩: ١٠٥). فاتصال الطبقة



مذاق الحاجة يتعارض تعارضاً حاداً مع مذاق الرفاهية، حيث يصبح الأخير مذاق من يتمتعون بالرفاهية المرافقة لرأس المال لينأوا بعدها بأنفسهم عن عالم الحاجة

المتوسطة بثقافات الخليج العربي حث العديد من مؤلفي كتب الطهي على تقديم وصفات من أجزاء مختلفة من الشرق العربي من أبرزها دول الخليج وفلسطين ولبنان. وتقديم المصريين لهذه الوصفات بكتب الطهي العربية يدل على نشأة تبادل ثقافي بين مناطق معينة من العالم العربي، تبادل نتج عن الهجرة والاتصالات المختلفة بين المهاجرين العرب بأمريكا الشمالية وجنوبها وأوروبا. ويتجلى هذا البعد واضحاً في وصفات الإنترنت والدردشة الإلكترونية.

لقد صارت الصفة العلمية للطهي والتقديم والحفظ والأكل مذهباً تتقيد به ثقافة يشترك فيها إخصائي التغذية كما يتضح لنا من خلال تلك الكتب الثلاثة مطبخ جدتي وأطباق صحية وشهية وبالهنا والشفا. فقط الإمام يشذ ببراعة عن هذا الإطار الفكري ليظل الوحيد (هو وضيفه أديب) الذي يطري على متعة الطعام. فبينما يجهز طبق الفتة في البرنامج السابق ذكره، جاهر أديب بأنه يعتقد أن الأكل في النهاية متعة: «إن الأكل ليس أن يحشو المرء معدته أو فمه كما اعتدنا نحن المصريون. الأكل هو الخطيئة الوحيد التي لا ترمي بنا في النار... هل سبق لك أن رأيت متذوقاً للطعام يدخل النار؟» ووصف الطعام بأنه «الخطيئة الحلال» (القاهرة اليوم، مارس ٢٠٠٤). وبرغم اعتراف الإمام بأهمية تقليل الدهن في الطهي مراعاة للمقتضيات الصحية إلا أنه يستخدم السمن أكثر من الآخرين بحجة أنه لا يمكن إعداد طبق شهي بدون جرعة مناسبة من السمن الحيواني. وهكذا يستخدم السمن في تحضير الفتة بتشجيع من ضيفه وإن كانت نبرات صوته تنم عن الاعتذار.

في معظم البرامج التي تقدمها عامر والسيد، تتسم علاقتهما بالمشاهدين بالبعد والتجرد والموضوعية الكاملة. فهما يميلان إلى إبراز ملامح الكفاءة والاحترافية والمبادئ الصحية الحديثة والثقافة الغذائية. تعرض عامر مثلاً وصفات متباينة من مجموعات عرقية ومناطق مختلفة لكنها تنبه القارئ أن تلك الوصفات في طريقها إلى أن يحللها معهد علمي شهير للتغذية. وهي تقترح مقاربة لا تسيطر عليها اللحوم والدجاج. إذ تبذل جهداً جاداً لكسر العادات التقليدية المفضلة للحم/الدجاج والخضروات بالدمعة التي تطبخ بالبصل وصلصة الطماطم ويصاحبها الأرز. إن هذا الطبق مثال للنمط التقليدي العتيق للطهي يعكس المذاق الشعبي. وهناك أيضاً محاولة واضحة للابتعاد عن مذاق الحاجة. لقد انتقت عامر عدد الوصفات المحلية من مجموع أطباقها بغرض تحويل مذاق الطعام المصري عن طريقة الأكل التقليدية القديمة. فهي لا تأتي على ذكر أطباق الفول أو العدس، ولا البصارة أو الفتة. وسواء كانت وصفاتها فرنسية أو إيطالية أو مكسيكية أو هندية أو تايلاندية، فمعظمها تنبع من مناطق جغرافية بعيدة جالبة معها مكونات وتوابل وأدوات جديدة تباع في متاجر محددة. وبمقدور المرء التعرف على أطباق مغربية معينة لاستخدامها الكسكسي وأطباق سعودية وكويتية لاستخدامها أسماء معينة كالجريش. وتعتمد الوصفتان على الأرز واللحم وبهارات معينة واللبن الرائب.

تصف عامر بكلمات موجزة في برنامجها التليفزيوني الأصل الجغرافي للوصفات المختارة بينما تعترف بأنها أضافت لمستها الخاصة وجددت الوصفة الأصلية كي تتوافق مع مقاييس الصحة العالمية. ويكمن تجديدها المعتاد في استخدام زيت الزيتون بكل الوصفات سواء كانت صينية أو مكسيكية أو سعودية. وينبغي أن ننوه بأن هذا التجديد، سواء كان ملائماً للوصفات من عدمه، لا تقدر عليه سوى الفئات الموسرة نظراً لثمن زيت الزيتون الباهظ في مصر.

لا يختلف السيد في معالجاته للطهي عن عامر خلا أنه يتوجه بخطابه أكثر نحو العرب المهاجرين إلى الولايات المتحدة وكندا. فهو يختار جمهوره من المهاجرين إلى الدول الخليجية أو أولئك الذين بطريقة أو بأخرى عاشوا بالدول العربية الغنية بالبترول أو الولايات المتحدة أو أوروبا ثم رجعوا بعدها إلى بلدهم الأصلية، ولا سيما مواطنيه المصريين. وعلى عكس وصفات عامر، تتميز وصفات السيد بغناها باللحوم وتعقيدها، إذ تتألف من تشكيلة من الأطباق الصغيرة المنفصلة التي تجتمع بعدها في طبق تقديم واحد. تحوي واحدة من وصفاته على سبيل المثال حملاً ينقع في المرق ثم يشوى بعد أن يحشى بالتوابل ويغطى بالفريك ثم تضاف إليه كرات من اللحم المفروم غارقة في صلصة الطماطم (داود باشا). يقدم المزيج في طبق كبير تزينه حبات العنب والخوخ والمشمش لتضفي ألواناً زاهية وتجعل طبقاً مزيناً بالفعل. وسواء عدل السيد هذه الوصفة أو نسخها من وصفة أخرى قائمة، فهو طبق يرضي ذوقاً يقدر اللحم (ويستطيع شراءه) بأشكاله المتعددة ويستمتع بعرض كميات كبيرة فوق المائدة. إنه تباه لا تخطئه الأعين بنجومية ووفرة لا يقدر عليها سوى قلة من الناس.

إن تأثير مذاق يغلب عليه التعقيد كالمذكور أعلاه يسيطر على تقديم الأطباق الغنية باللحوم والتوابل والأرز

والشريك والكسكسي والسمن. إذ تخيم الوفرة والألوان المتعددة على أصناف مقدمة في أطباق ضخمة. من الواضح أن السيد يخاطب جمهوراً مسلحاً بمعدات عصرية بالمطبخ ويمكنه توفير المنتجات المختارة و/أو معاونة من الخدم.

وعلى عكس السيد وعامر، تحاول المهداوى تعريف ما تسميه المطبخ المصرى الأصيل منذ عصر القدماء المصريين. فالطعام التقليدى والأصيل كما تراه هو الطعام الذى لا يزال المصريون يتناولونه منذ القدم كأنواع معينة من الخضروات والحبوب واللحوم. ويشمل هذا أكلات تقليدية في مصر مثل الفول بالزيت: الملوخية المطبوخة مع لحم الضأن في المرق، ويضاف إليها الثوم المقلى والكزبرة الجافة والحمص: «مبار»: الفسيخ وهو سمك بورى يخلل في الملح. وتعتبر المهداوى أن هذه مكونات صحية وطبيعية ولذيذة لأنها قديمة وعليه تكون أصيلة. ثمة نبرة يخالها حنين غامر تطفى على خطاب المهداوى ووصفها للمطبخ المصرى. إذ يتولاها اشتياق إلى العادات القديمة عندما كانت النساء يمضين الساعات الطوال لطهى وجبات طبيعية شهية. وفى اعتقاد المهداوى أن المجتمع المصرى يفقد تقاليده من جراء تحديث أسلوب المعيشة وغزو المنتجات الصناعية والطعوم والألوان الصناعية وأن إحياء هذا المطبخ يجب أن يتم من خلال استخدام كمية أقل من السمن وتحسين طريقة تقديمه على مائدة العشاء.

ومن بين الثلاثة، تنفرد المهداوى بالعمل مع وصفات تعرفها أغلبية السكان. إلا أن ميزتها ليست مستمدة من حنينها ولا من نزعتها القومية إنما من مجهودها في جمع وصفات على حافة الانقراض من أجزاء مختلفة من مصر. هناك أيضاً محاولتها للتذكير بنشاط إنسانى طالما غفل عنه الناس ألا وهو الطهى والأكل. لا مراء أن إسهام المهداوى يشمل إعادة تكامل أطباق عديدة تمثل المذاق الشعبى، أطباق لم تعد وجيهة بما يكفى بالنسبة لقوائم الطعام «الراقية». وتتضمن تلك الأطباق الشكشوكة (تطبخ الطماطم والفلفل الأخضر في صلصة طماطم ثم تغطى ببيض مقلى)؛ كبد إسكندرانى (يقلى الكبد مع الفلفل الأخضر والطماطم والثوم ويتبل بالبهارات الحريفة)؛ والمش (تحفظ بقايا الجبن ومنتجات الألبان في قدر فخارى ويحكم إغلاقه لتختمر محتوياته لمدة عام ثم تقدم مع الطماطم والزيت والفلفل الأحمر). إن هذه الوصفات لا تحتل مكاناً بمائدة الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة المصرية ما لم تؤكل كوجبات عجيبة استثنائية.

إن المؤلفين الأولين لا يقدمان وصفات تقترح بأية حال إعادة تدوير بقايا الطعام إنما توحى ضمناً بغزارة المكونات وسهولة ارتياد شتى المتاجر حيث تباع خيرة المكونات العالمية والمحلية. من الواضح أيضاً أن معظم الوصفات لا تتوجه بالحوار إلى الميزانيات الهزيلة أو الأذواق المحلية. على النقيض، تخاطب عامر جمهوراً/قارئاً على استعداد لأن يباشر رحلة إلى المذاق الطيب القادم من أجزاء مختلفة من العالم ويغامر بتجربة أساليب جديدة للأكل. على الجانب الآخر، تتحدث المهداوى إلى من نسوا «ثقافتهم المحلية» أو فقدوها ومن يساورهم الحنين إلى «المذاق المحلى». يمكن للمرء أن يخمن أن قراءها (كما ترنو هى إليهم) قد نأوا بأنفسهم عن «الثقافة الشعبية التقليدية» أو لم يكونوا جزءاً منها قط، ومن ثم يحاولون من آن لآخر تذوق الأطباق «المحلية التقليدية». أما السيد فيقدم وصفاته للبيئات الثرية بالدول العربية ولا سيما المغرب ومصر والأردن والسعودية والدول الخليجية. إذ يتيح لهم وصفات وافرة غنية عمادها اللحوم عدلها طاهيها لإنتاج مزيج معقد من الأطباق المتعددة.

تنزع الاتجاهات الجديدة في الاستهلاك الغذائى - في أجواء التحول الثقافى بالمجتمع المصرى - إلى تبنى معايير الفئات الغنية في ظل نشر وسائل الإعلام والصحافة لها. هكذا تحدد الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة تدريجياً مقاييس المذاق والتمثيل الغذائى وفقاً لقواعد الحداثة والصحة.

إن هذا البحث ليس المقصود منه الدعوة إلى الرجوع إلى العلاقات الطبقية التقليدية أو النماذج التقليدية لعرض الطعام، ولا يبغى الترويج إلى فكرة البحث عن هوية قومية من خلال الثقافة الغذائية. كل ما هنالك هو أنه يقترح أن النزعات الجديدة في الطهى تعزز التفاوت الاجتماعى عن طريق الفوارق الطبقية والانسلاخ عن المجتمع. المفارقة هنا أن هذه الاتجاهات تزعم أنها تروج مذاقاً جديداً يندرج تحت مقتضيات الحداثة والصحة والجمال وذلك عبر إدماج مساحات اجتماعية جديدة تشترك فيها فئات اجتماعية مختلفة. بيد أن هذا المفهوم قد ينشأ بمجتمعات تتقلص فيها الاختلافات الطبقية تقلصاً ملموساً. أما بالنسبة للفئات المحرومة بالبيئة القاهرية - وهى الأغلبية - تفاقم هذه الاتجاهات إحساسهم بالإحباط وفى الوقت ذاته تعمل على تقوية شعور الأقلية بالتميز وتنميته. ٪

كتاب الزاوية



فى العطف على اليتيم

أريج البستان

١ - ألق ظلك على رأس اليتيم الذى مات أبوه، وانفض غباره وانزع شوكته.

٢ - لا تدرى ماذا حدث له، إنه يائس جداً، وهل تكون الشجرة بلا جذر ناضرة أبداً؟

٣ - لا عجب أن يكون ذابلاً وأسود البخت، لأن الشجرة لا تكون ناضرة بدون جذر.

٤ - حين ترى يتيماً مطرق الرأس، لا تقبل وجه ولدك.

٥ - اليتيم إذا بكى، من يدلله؟ وإذا غضب، من يتحمله؟

٦ - ألا، حذار أن يبكى! فإن العرش العظيم، يرتج حين يبكى اليتيم.

٧ - امسح الدمع من عينيه برحمة، وانفض التراب عن وجهه بشفقة.

٨ - إذا انحسر ظل «أبيه» عن رأسه، فربّه أنت فى ظلك.

٩ - لقد كان رأسى متوجًا، حين كان رأسى فى حضن أبى.

١٠ - كانت إذا حطت على جسمى ذبابة، كان يضطرب خاطر عدة أشخاص.

١١ - والآن إذا أخذنى الأعداء أسيرًا، لا يكون أحد من أصدقائى نصيراً.

١٢ - لى خبرة ودراية بألم الأطفال، لأن أبى رحل عن رأسى فى طفولتى.




www.maccarpet.com



مثلما يصح - أولاً - أن نقول إن الإنسان حيوان ناطق، ويصح - ثانياً - أن نقول إن الإنسان حيوان له تاريخ، يصح - ثالثاً - أن نقول إن الإنسان حيوان يضحك.

كذلك فإن من الصحيح - أيضاً - أن نقول إن الإنسان - عندما يصل إلى أعلى درجات نموه العقلي (الذكاء)، وأغنى مراحل استقراره، واختباره للحياة، وفهمه للمؤثرات والضغوط، والمعاينة المدققة لسيادة ما اصطلحنا على تسميته بالصدفة أو بالقدر، حيوان ساخر.

كل ما فات ليس صحيحاً فحسب، لكنه - بنفس القدر، ضروري لنفهم ماهية الضحك والإضحاك، ولنعرف قدر الفنون المختلفة، التي تستطيع توليدهما.

وحدنا.. نحن الضاحكون و..

والحقيقة أنه لا يوجد عضو آخر - بحسب ما وصلت البشرية إليه من علم - من إخوتنا وأبناء أفخاذ قبيلتنا الحيوانية (ونخص بالذكر ثدييّاتها) فمما عم غير الإنسان العاقل، من يستطيع النطق (إلى درجة التعبير الفني)، أو من هو قادر على الاحتفاظ بخبراته التاريخية المتراكمة، والاستعانة بها على تغيير الواقع من حوله ليصبح أكثر ملاءمة لطموحاته (فليس غيره بمستطيع التشوف والتخيـــل وتحقيق المتخيل)، وأن عضواً آخر في المملكة الحيوانية، يعجز عن الضحك، فما بالك بالإضحاك القصدي، والسخرية.

ذلك ببساطة لأن الضحك والإضحاك والسخرية، يتطلبون كل ما اختص به الإنسان: العقل الذكي الكشاف المتشوف، والنطق الفني المعبر، والخبرة التاريخية - في أمور الحياة - المتراكمة، أو التراكمية.

الحيوانات الأخرى - غير الإنســان - لا تضحك، حتى إخوتنا القردة العليا لا يفعلون، وما قد يبدو لنا من مراقبتهم على أنه ضحك، لا يعدو كونه تقلصات عضلية، ليس فيها من الضحك الذي نعرفه، ونمتاز به - غير تراقص عضلات الوجه، وتوتر عضلات الصدر، وارتجاج الجسم، وبعض الأصوات أو التصويتات التي تصاحب ضحكنا نحن، وهذه العناصر الثلاثة وحدها لا تعني قدرتها على الضحك.

فالضحك، كما عهدناه معروف علمياً أنه واحدة من وظائف المخ العليا، من وظائف القشرة المخية، ومراكزها الأكثر تطوراً، وتعقد هذه القشرة وظيفياً خصيصة مميزة وصل إليها العقل البشري وحده.

الضحك عملية شديدة التعقيد:

يستلزم الضحك إدراكاً شديد الحساسية والحدة للأمور التي تطرأ باستمرار في حياة الإنسان، والإدراك المعني وظيفة عقلية للمخ الإنساني، تمكنه منها مراكز قشرته المخية وخلاياها العصبية ذات الارتباطات القوية المتشابكة عالية التطور، ويعمق هذا الإدراك خبرات حياتية (معيشة / مسموعة / مقروءة) يستطيع الإنسان أن يحتفظ بها في ذاكرته، وأن يستدعيها،

هشام السلاموني

ويربط بينها وبين الحادث الطارئ / الفعل / القول وأن يستخلص نتائج جدلية منها، ويستطيع الإنسان في الإضحاك والسخرية أن يعبر تعبيراً فنياً عنها.

الضحك هو إدراك أولاً (يعقبه الاستدعاء والربط والتفسير)، وهذا الإدراك يؤدي إلى انفعال شديد التوتر، وإلى تحول طاقة الانفعال هذه لتتسرب في انقباضات متتالية لعضلات الصدر والبطن (على الأقل)، وبذلك تؤدي إلى ارتجاج الجسم والقهقهات (وربما التصفيق والخبط وهز الرجلين مستندتين أو مرفوعتين حسب درجة الانفعال، والانقلاب على الظهر أيضاً)، وتسرب الطاقة هذا يخلف وراءه نوعاً آخر من الانفعال يتراوح بين طرفين بعيدين هما الانتشاء الشديد والاكتئاب المروع).

نعم الضحك قد يؤدي إلى الاكتئاب، وهذه نقطة مهمة سوف نصل إليها.

الفلاسفة والعلماء يتبدخلون.. ويفسرون:

ولأن كثيراً من أسرار المخ البشري (والعقل وظيفة له، وليست الكلمتان - المخ والعقل - مترادفتين في العلم) لم يفك غموضها بعد، كان الفلاسفة منذ قرون - وحتى الآن - أصحاب قصب السبق في دراسة الظاهرة، وقد حذا حذوهم - بما لديهم من المعلومات العلمية المتاحة - بعض العلماء، مقدمين فرضيات ثلاث (إذا أتقنا التجريد) تنتظر مزيداً من الاكتشافات ليتم إثبات أي منها، وتبقى الحقيقة أن أحداً من الفلاسفة أو العلماء لم يقدم - حتى اليوم - تفسيراً شاملاً وصريحاً لأسباب الضحك، أو ماهية الشيء المضحك، ومن ثم ماهية الضحك والإضحاك. الفلاسفة والعلماء حاولوا التفسير، ويصح أن نقول إن تفسيراتهم تداخلت واشتركت في أمور، لكن الصحيح أيضاً أن نزعم أن تلك التفسيرات تناقضت، وأن الفرضيات الثلاثة لو جمعناها، وتجاهلنا التناقضات، أو وحدناها جدلياً يتبقى شيء ناقص يجعل الفهم الكامل مستعصياً.

وعموماً فإنه من الممكن تصنيف ما أورده الفلاسفة والعلماء في فرضيات ثلاث:

أولاها: أن الضحك ممارسة للتفوق من جانب الضاحك، يرى الضاحك فيها أن المضحوك منه أقل شأناً أو (أحط درجة)، وأن ممارسة التفوق هذه (وهي ضمن الطاقة العدوانية في النفس البشرية، وليست كلها مذمومة إلا حين تعمد إلى إيذاء مشاعر الآخرين) هي السبب وراء النشوة التي يخلفها الضحك في نفس الضاحك، وهذه الفرضية كانت أكثر الفرضيات بقاء وصموداً وسيطرة في كل العصور، اعتقد بها أفلاطون، وأرسطو، وشيشيرون، وكوينتيكان، وصولاً إلى فرنسيس بيكون، وفولتير، وبودلير، وبيرجسون (الذي صار علماً على الفرضية)، ومارسون بانيول.

وثانيتها: ترى أن الضحك ينشأ عن وجود تناقض بين الشيء - أو الأمر الحادث - وما اعتدنا أن يكون عليه، أو تراه إحباطاً لتوقع يكاد يكون مؤكداً، يتخذ - هذا التوقع - سمة التوتر الانفعالي، ويأتي الضحك حين يؤول هذا التوتر إلى الاصطدام بمفاجأة تعكس مساره، أو هي ترى أن الضحك نتاج لسوء الفهم، أو سوء التفاهم، في الأمر الحادث المشاهد أو المروي، وهذه الفرضية اعتقد بها باسكال، وكانت، وسيدني سميث، وهربرت سبنسر (العالم النفسي).

وثالثة الفرضيات ترى الضحك ارتخاء مفاجئاً - نتيجة حدث أو قول - لتوتر دائم في حياة البشر، وانفكاكاً لحظياً لإحباط لا ينتهي (أو ما نسميه - نحن - انبساطاً، أو تلاهياً)، وفرويد ينسب هذا التوتر والإحباط الدائمين، إلى ما هو مكبوت منذ الطفولة في الإنسان، بسبب الضغوط التي تمارسها عليه الأنا العليا (الضمير، والقيم الدينية والمجتمعية).

تعالوا نحاول التطبيق.. والاعتراض:

إن منظر رجل محترم، متأنق، ينزلق فجأة - في جو مطير - على الأرض الموحلة، يثير ضحك من حوله، فإذا اعتبرنا الضحك فرحة من يرون أنفسهم متفوقين على الرجل، لأنهم لم ينزلقوا مثله (الفرضية الأولى)، فلا بد أن نعترف بأن الفرحة تبقى محدودة بعامل الشفقة أولاً، ثم التألم ثانياً، فالحزن الجارف أخيراً. والواقع أن الشفقة تتداخل مع الضحك (الفرحة العدوانية) منذ اللحظة الأولى، فإذا تغلبت - الشفقة - في الميزان النفسي للمراقبين، انقطع الضحك، ولو حدث وأصيب الرجل إصابة تعوق نهوضه، أياً كان مداها، ستجد من يسارع بمد يد العون للرجل، سواء وهو مستمر في الضحك، أو وقد انقطعت تماماً ضحكاته (حسب ما يراه من حال الرجل المنزلق)، أما حين التأكد من أن إصابة الرجل بليغة، أو بدون ذلك أحياناً لدى العديدين من المراقبين، سنجد أن الضحك قد تحول إلى تأمل ممض، ومن ثم إلى حزن قد يصير جارفاً، بل إن بمجرد سقوط الرجل سنجد من يصرخ في الناس «علام تضحكون؟!!» (ربما وهو يضحك مثلهم، وهو أمر لا يشكك في جدية الصيحة، وفي تقزز الضاحك ونفوره من فعل الضحك في مثل تلك الحال المؤلمة)، هكذا: لا يمكننا القول إن الإحساس بالتفوق لدى الضاحكين، عامل غير مقيد - بالشفقة - منذ اللحظة الأولى، بل على العكس تماماً: يمكن أن نقول إن الضحك كان انفلاتاً لطاقة انفعالية تحاول التملص من قيود الشفقة، والتألم والحزن الجارف.

ثم إن ضحك المتواجدين في الشارع على من وقع، من الممكن ألا يعدو كونه انفلاتاً وقتياً لتوتر حادث (سواء كان وقتياً بالخوف من الانزلاق على الأرض الموحلة، أو كان دائماً كما شرحه فرويد)، يعود بعده التوتر سيرته الأولى، والتوتر الوقتي يكون حادثاً نتيجة الخوف على الذات، وهو تخوف يضع في اعتباره أن الكل - والذات بينهم - معرض لنفس السقوط، بنفس الشروط، وإلى ما حدث من جرائه، وهكذا لا يكون العنف عنفاً على الآخر فقط، بل عنفاً على الذات أيضاً، ولا يكون إحساس التفوق راسخاً، بل قد يعني القناعة ضمناً بعدم التفوق، وتكون تلك القناعة دافعاً للرغبة في الإحساس به للحظات قصيرة.

هكذا نجد تداخلاً بين الفرضية الأولى (ممارسة التفوق على الآخر) وبين الفرضية الثالثة (انفكاك لحظي للتوتر والإحباط)، وقد نلمح الفرضية الثانية بينهما: في رؤية الضاحكين للتناقض الحادث بين قدرة إنسان على تجنب السقوط، وبين السقوط المرئي، لكننا في نفس الآن نجد تناقضاً بينهم وفيهم، فلا التفوق حاسم، ولا التوتر دائم، ولا الاقتناع بالقدرة راسخ.

المؤكد أن هناك شيئاً ينقص الثلاث.

ماذا حدث للسجين؟

بعض أصحاب الفرضية الثانية (التناقض بين سيرورة الحادث، وما نرى أنه يجب أن تكون عليه، أو إحباط لتوتر في عكس مساره، أو سوء الفهم وسوء التفاهم) يروون نكتة تقول: إن حراس سجن شرسين كان ينقصهم واحد ليستطيعوا لعب الورق، فكان أن أتوا بسجين محكوم عليه في قضية أخلاقية ليكمل عددهم، لكنهم أثناء اللعب اكتشفوا أن السجين يغش في اللعب، وصمموا على عقابه، فقاموا بطرده إلى خارج أسوار السجن، انتهت النكتة، وهم يدللون بها على وجود أكثر من تناقض فيها كان مدعاة لضحك المتلقي، أولهم: بين كون الحراس حراساً وإطلاقهم سراح السجين!، وثانيهم بين كون المجرم مجرماً وظن الحراس أنه لن يغشهم في اللعب!، والثالث بين رغبة الحراس في معاقبة السجين على ما اقترفه في حقهم ونتيجة هذا العقاب التي حررت السجين، وكان ثمن الغش هو إطلاق السراح، ثم إنهم يرون أن مسار النكتة عكس مسار التوتر في متابعتها، فالتوتر تصاعد لحظة اكتشاف الحراس الشرسين أن السجين يغش في اللعب، وانبعث تصاعده من توقع عقاب صارم سينفذه حراس شرسون، فإذا بالعقاب يجيء إفراجاً عن السجين وإطلاقاً لسراحه، وبهذا ينتهي التوتر إلى عكس مساره تماماً. ويقولون إن النكتة أيضاً تحتوي على سوء فهم، بالطبع من الحراس لطبيعة عملهم ولماهية العقوبة التي يوقعونها على السجين، بل لطبيعة السجين وأخلاقياته، وما يمكن أن يصدر عنه من أفعال.

لكن ألسنا نضحك أيضاً - في نفس النكتة - لغباء الحراس، ولإحساسنا بأننا متفوقون عليهم، ولأننا في مكانهم لا يمكن أن نفعل ما فعلوه، وفي ذلك ممارسة لطاقة العدوان ضدهم (الفرضية الأولى)، ثم أليس في الأمر تعاطفاً خفياً من جانبنا (كمتلقين) مع السجين، الذي لم نتساءل قبل أن نضحك عن جريمته!، وأن التعاطف مع أي سجين يوضح انفلات طاقة تعبر عن فرحة لكسر الضغوط التي تمارسها علينا الأنا العليا، والقيم المجتمعية (الفرضية الثالثة).

مرة أخرى تلتقي الفرضيات الثلاث، وتتناقض.

ومرة أخرى نرى أن هناك عنصراً غائباً يجعل التفسيرات غير مرضية.

ولنسأل لسان العرب:

في مادة «فكه» نجد (رجل فكه: يأكل الفاكهة / من ينال من أعراض الناس / طيب النفس مزاح / الذي يحدث أصحابه فيضحكهم / الأشر البطر)، و(الفاكه: عنده فاكهة / من كثرت فاكهته / المازح والمزاح (وفي حديث أنس: كان النبي «ص» من أفكه الناس إذا خلا مع أهله)، و(فكههم بملح الكلام: أطرفهم (من الطرافة)) و(الاسم: الفكيهة والفكاهة: المزاح. التفاكه: التمازح)، و(تفكيت بالشيء: تمتعت به)، و(القوم يتفكهون بفلان: يغتابونه وينالون منه)، و(فكه من كذا: تعجب)، و(التفكه: التنعم).

وفي مادة «ضحك» نجد (الضحك: معروف)، و(في الحديث: يبعث الله السحاب فيضحك أحسن الضحك: جعل انجلاءه عن البرق ضحكاً، استعارة ومجازاً، كما يفتر الضحك عن الثغر، وكقولهم ضحكت الأرض إذا أخرجت نباتها وزهرتها)، و(ضحكة: ما يضحك منه)، و(ضحكة: الرجل كثير الضحك)، و(الضحك: مدح)، و(الضحك: العجب)، و(الضحوك: الطريق الواسع، وطريق ضحاك: مستبين) و(ضحكات كل شيء: خياره)، و(رأي ضاحك: ظاهر غير ملتبس)، و(يقال القرد يضحك إذا صوت).

وفي مادة «سخر» نجد (سخر منه وبه: هزئ به).

وهكذا يضعنا لسان العرب أمام معان يجب ألا تغيب عنا:

أولها: أن الضحك فاكهة الكلام وملحه، وأن من يضحك طيب النفس، وأن الضحك إخراج للطيبات.

ثانيها: أن من الضحك ما هو غيبة، وما هو نيل من الأعراض، وما هو استهزاء.

ثالثها: أن الضحك رأي غير ملتبس، وطريق مستبين.

رابعها: أن في الضحك تعجباً وندماً.

لقد تكلمنا كثيراً عما ينقض الفرضيات الثلاث لتعطي تفسيراً مشبعاً عن الضحك

والإضحاك، الآن لنركز على «ثالثها ورابعها» فهما يتضمنان من الشيء الناقص الكثير.

ثم ليتكلم المفكرون والمبدعون:

يقول لويس ليري: «إن تاريخ الأدب الأمريكي يبدأ بمارك توين (الكاتب الأمريكي الساخر صامويل لانجهورن كليمنس) فهروبه إلى المفارقة، وإلى الماضي، وإلى الفكاهة، التي تأخذ مجراها ضمن الحقيقة وتتجاوزها....».

ويقول مارك توين: «إن روح الفكاهة ذاتها تجد مصدرها السرى في الحزن لا في الفرح، فليس هناك فكاهة في الجنة».

ويقول نيتشه: أعرف تماماً لماذا كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يضحك، فإنه لما كان الإنسان أعمق الموجودات ألماً، فقد كان لا بد له من أن يخترع الضحك، وإذن فإن أكثر الحيوانات تعساً وشقاء، هو بطبيعة الحال، أكثرها بشاشة وانشراحاً.

يقول لورد بايرون: «ما ضحكت لمشهد بشري زائل، إلا وكان ضحكي بديلاً استعين به على اجتناب البكاء».

ويقول د. زكريا إبراهيم: «هل كان الضحك إلا اختراعاً بشرياً، تفتق عنه ذهن ذلك الموجود المتناهي، الذي يعرف أنه لا محالة ذائق الموت، لقد أرادت الطبيعة لهذا المخلوق الناطق أن ينوء بهَمّ الموت، وكأنما هي أرادت أن تكون فكرة الموت هي الضريبة الفادحة، التي يدفعها الإنسان، ثمناً لنعمة العقل، التي اختصته به دون غيره من الموجودات، فكان لا بد لهذا الموجود الشقي أن يجد علاجاً لفكرة الموت، فكان الدين، وكان الضحك».

الفكاهة إذن تأخذ مجراها من الحقيقة، وتتجاوزها، وتنبع من الحزن والألم، والرغبة في اجتناب البكاء، ومقاومة السيطرة القابضة لفكرة الموت.

أقوال أخرى مهمة:

يقول د. زكريا إبراهيم: «والحق أن الابتسام والضحك والبشاشة والمرح والفكاهة والمزاح والدعابة والهزل والنكتة والملحة والنادرة والكوميديا إن هي إلا ظواهر تنفيسية من فصيلة واحدة، وكلها إنما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة، التي سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس، فتلتمس في اللهو ترويحاً عن نفسها، وتبحث في الفكاهة عن متنفذ للتنفيس عن آلامها، وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع، الذي كثيراً ما يثقل كاهلها».

ويقول: «وليس العنصر الوجداني الوحيد الذي يدخل في ظاهرة الضحك هو عنصر الارتياح والانشراح أو الغبطة والسرور، بل هنالك عنصر وجداني آخر قد لا يقل أهمية، ألا وهو عنصر اللهو والمرح والتسلية واللاواقعية».

ويقول يونج «بعض الأقوام في جنوب افريقيا كثيراً ما تستخدم الضحك وسيلة للتعبير عن الدهشة أو القلق، أو التعجب، بل قد تعبر به عن شعورها بالحزن العميق، في بعض الأحيان، وأما عندنا نحن المتحضرين، فقد عملت العوامل الحضارية عملها، فاصبح للضحك من الدلالات الاجتماعية، والمعاني العقلية ما جعله يفقد مضمونه البدائي الأصلي».

ويقول د. زكريا إبراهيم: «ذهب بعض علماء النفس إلى أن الفكاهة تقوم في حياتنا النفسية بدور أو وظيفة تشبه إلى حد ما وظيفة اللاشعور، على نحو ما يتبدى في الأحلام. مثلاً. أو في الأعراض العصابية، وهذا ما قرره فرويد نفسه في دراسته للنكتة، وعلاقتها باللاشعور».

ويقول فرويد: «إن العلاقة وثيقة بين الفكاهة والحلم لأن كلاً منهما ينطوي على ضرب من الارتداد نحو الطفولة، من أجل التملص، ولو إلى حين. من تلك الحدود أو القيود، التي تفرضها علينا الحياة الجدية، ومعنى هذا أننا نجد في الضحك نكوصاً نحو الأسلوب الطفلي في المعيشة، بما فيه من أحلام براقة، وخيالات سعيدة، وتهاويل جميلة».

ويلاحظ روس في دراسته لعلاقة روح الفكاهة ببعض المتغيرات في الشخصية، أن أولئك الذين يتمتعون بحس فكاهي يجئ ترتيبهم في العادة متأخراً نسبياً في سلم الأشخاص المعرضين للأمراض النفسية، ومهما يكن من شيء فإن طابع اللهو واللاواقعية الذي تتميز به المواقف الفكاهية والنكتة، سواء أكان هذا الطابع طبيعياً تلقائياً، أم اصطناعياً تعويضياً هروبياً، كما نقول أحياناً، فإنه لا بد أن يكون ماثلاً في جميع الحالات كخاصية أساسية تميز كلاً من الضحك والفكاهة.

يقول لو دافيتشي: «إن في الضحك شيئاً من الغدر أو التشفي في الآخرين، وإن الشعور بالتفوق الذي يقترن بالضحك كثيراً ما يكون مجرد محاولة تعويض، يراد بها تغطية خوفنا من التعرض لحالة الدونية أو النقص، كما يحدث مثلا حينما نجد أنفسنا في موقف مهين يدعو إلى السخرية، فنضحك على سبيل الدفاع عن النفس».

و يقرر مارسيل باتويل أن في الضحك استعلاء وقتياً.

.. الفكاهة والضحك إذن: هما إدراك لواقع محزن يحاول الإنسان جاهداً أن يفر منه. وقتياً. مثلما يفر الإنسان من واقعه في الحلم، وفي اللاواقعية (التي هي هروب قصدي)، بل وفي الاستعلاء على المواقف، وهذا الهروب يحاول، لبعض الوقت. استعادة الطفل فينا، ذلك الكائن المختنق تحت ركام من الضغوط أهمها الحقيقة الكامنة وراء واقعنا، الحقيقة التي لا تفتأ تعيرنا بضعفنا، الذي يستأهل أن تُمارس ضده سخرية، وأن السخرية قد تبدو للعين غير المدققة أنها سخرية من الآخرين، لكنها في الأساس سخرية من النفس.

أقـــوال ثـــالـــثـــة

يقول فرويد. في بحث له عن الفكاهة ظهر ١٩٢٨. إن الفكاهة تقوم بدور (الفيلسوف الساخر) الذي يلقى جلائل الأمور بروح الهزل والاستخفاف أو بروح الاستهانة وعدم الاكتراث.

ويرى فرويد أن في (إنكار الواقع) عن طريق النكتة درباً من السمو الأخلاقي الذي يرجع إلى ما يقوم به (الأنا الأعلى) من دور هام في صميم هذا النوع من أنواع الضحك، فالأنا الأعلى في مثل هذه الحالات، يعامل (الأنا) كما يعامل الشخص البالغ الرحيم طفلاً ألمت به بعض المصائب الصغرى، أو الكوارث البسيطة، إذ يبين له، في ضوء خبرته الناضجة كيف يزن تلك الأحداث البسيطة، التي هي مما لا يستحق كل هذا الاهتمام، وكأن (الأنا الأعلى) يريد أن يأخذ بيد (الأنا).

ويرى ديكارت أن الضحك (القهقهة) فعل يفلت من طاقة العقل، وهو ليس انفعالاً من انفعالات النفس، وإنما هو انفعال من انفعالات البدن.

ويقول كانت: «إن الضحك هو ضرب من الإعياء المفاجئ الذي يصاب به العقل، فلا يلبث البدن أن يقوم هو بالاستجابة للمؤثرات الخارجية، على طريقته الخاصة، إن كل ما يستثير لدينا القهقهات العالية لا بد أن ينطوي على شيء من «الاستحالة»، التي لا يجد فيها العقل أية لذة خاصة، وتبعاً لذلك فإنه ليس للضحك من فائدة سيكولوجية بالنسبة للفكر، ولكن تنحصر فائدته في الآثار الفسيولوجية التي يتركها في الجسم».

وتؤكد نظرية جيمز لانج أننا لا نضحك لأننا مسرورون، بل نحن مسرورون لأننا نضحك.

ويصمم الوجوديون على أن الضحك ليس ثمرة تصميم إرادة، وإنما هو يقترن دائما بضرب من (الفائية)، التي تخلع عليه معناه، والتي بدونها يفقد كل صبغة إنسانية، ولهذا يعمدون إلى توضيح أن الإجابة على السؤال «لماذا نضحك؟» لا منسوحة أن تكون بـ «كي» وليس بـ «لأن»، إننا نضحك لكي نعبر عن انشراحنا، وفي أحيان لكي توجد هذا الانشراح.

ويكتب الأمريكي الشهير لاميتيه «إن الضحك لينطوي في جميع الحالات على حركة تبدأ من الذات، وتنتهي إلى الذات، يستوى في ذلك أن نكون بإزاء ضحك السخرية القاسي المرير، أم ضحك اليأس المليء بالفزع والخوف، أم ضحك الشيطان المنهزم الذي يصر على المقاومة فيلوذ بكبريائه الغاشمة التي لا تلين، أم ضحك الأبله المعتوه».

ويتبع الكتاب العرب القدماء ما روى عن الرسول (ص) أنه قال: «روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت» فيرون أن الضحك استراحة واسترواح.

ومما قاله على بن أبى طالب: «من كانت فيه دعابة فقد برئ من الكبر».

وكان من رأى الجاحظ أن الضحك ليس نقيضاً للجد، بل هو حال من حالاته و تجل من تجلياته.

ويقول أبو العلاء المعرى: «ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة / وحق لسكان البسيطة ان يبكوا / يحطمنا ريب الزمان كأننا / زجاج ولكن لا يعاد له سبك».

ويقول مارك توين إن صورة الإنسان عن الإنسان «ليست إلا صورة نفسه منظورة بمنظار الإخلاص الذاتي العميق في قلبه» وهو في هذا الصدد يرى الإنسان «متحف أمراض»، وأنه يبدأ قذارة، وينتهي رائحة نتنة، وأن ليس هناك من سبب لوجوده غير تغذية الجراثيم وإنعاشها».

ويرى فرويد أن للضحك جانباً «نزوعياً» (هو إحساسنا بالتفوق على الآخرين، أو الرغبة في الاستمتاع بهذا الإحساس)، ويرى أن الجانب النزوعي إنما ينشأ عن الاقتصاد في إنفاق طاقة الكف أو المنع (سيطرة الضمير والقيم المجتمعية على الأنا)، كما يرى في الضحك جانبا «وجدانياً»، ويراه اقتصاداً في العواطف، أما الجانب الثالث فهو الجانب «الإدراكي»، ويراه اقتصاداً في التفكير، وفي هذا السياق يطلق أيزنك اسم «الفكاهة» على العنصر «الوجدني» واسم «النكتة» على الجانب «النزوعي» واسم «الكوميديا» على العنصر الإدراكي.

ويقول لوسيان فابر: «إن الضحك انطلاق من حالة شعورية إلى حالة شعورية مغايرة».

ويرى بعض العلماء «إن عمليات تفريغ الطاقة عن طريق الفكاهة هي عمليات معقدة متباينة إلى أقصى حد، وليس تنوع تلك العمليات بمقصور على عمومية أو جزئية مصدر التوتر، أو على طبيعة مضمونه الانفعالي، وإنما يمتد هذا التنوع أيضاً إلى الآلية النفسية التي يتم عن طريقها التحرر، أو التخفف (النكتة/ الموقف الطارئ / جلسات التريقة / الكتابة الفكاهية.....

.. الضحك إذن ينطلق من الذات، رغبة في إنهاء شعور أو انفعال، بإطلاق طاقته في اتجاه آخر، بفرض التحرر أو التخفف، ولأنه ينطلق من الذات فهو يأخذ موضوعه منها، وهو يأخذ هذا الموضوع عندما يعطى «إدراكياً» معنى للمؤثر الداخلي أو الخارجي الباعث للتوتر، وكونه يأخذ معناه الانفعالي من الذات، فهو إذن سلاح موجه لها وليس للآخرين (إلا في حالات قصدية)، بل ربما كان سلاحاً للدفاع عن الذات (لا علاقة له بالآخرين) لحمايتها من هذا المعنى الباعث للتوتر، والذي كونته للمؤثر، وذلك بإفلات الطاقة الانفعالية إلى مسارب لا تؤذيها.

والآن.. مـــــاذا يـــــقـــــول الفينومينولوجيون؟:

تتجه النظرية الفينومينولوجية (الاختزال الفينومينولوجي) إلى وصف بيان الشعور الخالص في علاقته بموضوعات العالم، واستخلاص معنى الظواهر بإرجاعها إلى البنيان المقابل لها من الشعور الخالص.

ويعني هذا الأمر لدى المقتنعين بها والمطبقين لها . ضرورة الابتعاد . مؤقتاً . عن اليقين البديهي، الذي يفترضه كل فكر وكل فعل. كيما يتسنى إبرازه وإيضاح دلالته، حتى نستطيع أن ننظر نظرة جديدة تكشف عن معنى الألم، وعن أصل الظواهر في الشعور الخالص.

وبناء على ما فات فإن واقعة نفسية مثل الانفعال، وهو يعتبر . عادة . اضطراباً لا يحكمه قانون، هي واقعة ذات معنى خاص بها، ولا يمكن إدراكها في ذاتها دون فهم هذا المعنى، إن معنى واقعة شعورية يكمن في كونها تدل على الواقع الإنساني في جملته، من حيث أنه . الواقع الإنساني . يكون واقعا منفعلاً أو متنبهاً أو مدركاً أو مريداً أو...

وترى النظرية الفينومينولوجية أن الانفعال يحيل إلى ما يدل عليه من معنى، وما يدل عليه إنما هو مجموع علاقات الواقع الإنساني، ومن هنا، ولأن الانفعال تحقيق لماهية الواقع الإنساني من حيث هو وجدان، فلا بد أن يبدأ وصفه . الانفعال . من الواقع الإنساني نفسه.

ويقول سارتر . شارحاً الانفعال على المنهج الفينومينولوجي في كتابه نظرية في الانفعالات، أن الانفعال يعني تغييراً للعالم، أي أننا به نحاول أن نحياه . العالم . كما لو لم تكن العلاقات بين الأشياء وإمكانياتها خاضعة لعمليات حتمية، ونحن . بالانفعال نستغرق في الموقف الجديد، ونتفانى فيه بكل ما نملك من قوة، ثم أن هذه المحاولة ليست شعورية بما هي كذلك، وإلا أصبحت موضوعاً للفكر، بل هي قبل كل شيء إدراك لروابط جديدة ومطالب جديدة، ولما كان إدراك الموضوع محالاً أو مثيراً لتوتر لا يطاق، فإن الشعور يدركه . أو يعمل على إدراكه . على نحو آخر، أي أنه يغير نفسه لكي يغير الموضوع.

ويقول هوسرل (من كبار مفكري النظرية الفينومينولوجية) إن التكشف يتم على دفعات، فالشيء المدرك ينكشف للشعور تدريجياً في سلسلة لا نهائية من المظاهر، وهذه المظاهر هي أوجه مختلفة لنفس الشيء.

ويقول هيجل: إن الشعور هو علاقة محددة بين الأنا وموضوع ما.

أي أن الانفعال هو خبرة الفرد الشعورية بذاته والعالم (الواقع الإنساني)، ونحن لا نستطيع تفسير الشعور إننا فقط نستطيع أن نتفهمه.

وبعد:

كنا نحاول أن نجد الشيء المفتقد بعد أن استعرضنا فرضيات الضحك الثلاث،



يرى فرويد أن للضحك جانبا «نزوعياً» (هو إحساسنا بالتفوق على الآخرين، أو الرغبة في الاستمتاع بهذا الإحساس)

والآن يصح لنا (بعد أن عرضنا ثلاث مجموعات من أقوال الفلاسفة والعلماء والمبدعين، والأساس اللغوي لقاموسنا المعبر عن الظاهرة) أن نتقصى هذا الشيء المفتقد من خلال النقاط الآتية:

(أ) الضحك يأتي من انفعال.

(ب) الانفعال يتجنب الاستمرار في مساره، فينفلت ليتسرب في مسار أقل إيذاء.

(ج) الانفعال يأتي استجابة لإدراك.

(د) الإدراك يكون لمعنى متصل اتصالاً مباشراً بالواقع الإنساني (العالم).

(هـ) لاشيء (حدث / قول / فعل) مضحك في ذاته.

هكذا يصبح الشيء المضحك هو شيء . حين يتم لنا إدراك قدر من معناه . مثير للانفعال، ولا يعني هذا أن الانفعال هو استجابة للشيء المضحك في حد ذاته، بل هو استجابة لما أدركناه من معنى لهذا الشيء، أي أن الشيء الذي نصفه بأنه مضحك، والمعنى الذي أدركناه، هما جزءان من الاستجابة الشعورية (من الانفعال).

وأن الطاقة المنبعثة في الاستجابة الشعورية (الانفعال)، يتم تسريبها وقتياً (لأن احتجازها شديد الضرر بنا) في مسارب الضحك أو البكاء، وأن تسريب هذه الطاقة جزء من طبيعة الانفعال (دفاعاً عن أنفسنا ضد ضرره).

والنشوة التي تعقب الضحك، مثلها مثل الراحة التي تأتي بعد البكاء، سببها التخلص من الانفعال بعد تسريبه.

الانفعال يصبح هكذا عملية ذات معنى، ومعناه يكمن في تفاعل الذات مع العالم أو رؤية الذات للواقع الإنساني.

هكذا لا يكون لدينا مضحوك منه غير العالم منعكساً في ذواتنا، وغير الواقع الإنساني في هذا العالم.

نحن لا نضحك من الآخرين، أو على الآخرين (وإن بدا لنا ذلك، أو وإن حاولنا أن نظهر أننا نفعل ذلك) إننا لا نضحك إلا من، وعلى . حالنا، على الواقع الإنساني، على واقعنا مدركاً في الآخرين، لا نضحك إلا على أنفسنا منعكسة في مرايا الآخر.

وبكل ما سبق نقول إن ما افتقدناه في الفرضيات الثلاث التي حاولت أن تفسر عملية الضحك، لتصل إلى ماهيته، سواء كان قصدياً (مجموعة تتلاقى لكي تضحك)، أو كإدراك واستجابة بالانفعال لفعل أو حدث أو قول، كان . ما افتقدناه . هو المعنى المتصل اتصالاً مباشراً بالواقع الإنساني.

إن الإنسان . مثلما هو الكائن الوحيد الناطق، صاحب التاريخ، والضاحك، هو الكائن الأوحد الذي يعي واقعه الذاتي، يعي ضعفه، الذي لم يكن تاريخه كله إلا محاولة دءوب مستمرة للتقليل من أثره المدمر للذات (لهذا كان يتجمع، ولهذا كان يحاول فرض سيطرته على الآخرين، بحثاً عن تفوق زائف، ولهذا بنى الحضارات، ولهذا فكر في الاشتراكية والشيوعية، ورغب في تحقيقهما، فهما منجاته من الاستناد على قوة مكذوبة . ومن ثم طريقة . في السيطرة على الآخرين واستغلالهم).

والإنسان . بدرجات متفاوتة . يعاني من ضعفه، وهذا سر توتره الدائم، الذي أشار إليه فرويد (الفرضية الثالثة): فالإنسان لا يتقبل الكف المستمر الذي يمارسه عليه الضمير والقيم المجتمعية والدينية، إلا ليخفي ما هو أبشع وأكثر إيلاما من الكف المستمر (والذي يرتاح منه قليلاً في الحلم، وفي الضحك)، والإنسان وهو يمارس التفوق على الآخرين بالضحك (الفرضية الأولى) تتداخل مع شعوره بالتفوق مشقة أساسها أنه يدرك أن الضعف، الذي يثير الضحك، مشترك بين الضاحك والمضحوك منه، ولهذا إذا زاد الأمر عن حده انقلبت الضحكات وجوماً أو بكاءً واكتئاباً، والإنسان ينفعل للتناقض (الفرضية الثانية) لأنه يدرك هذا التناقض الحادث بين ضعفه وحلمه الذي لا ينقطع بالسمو والقوة والحق والخير والجمال.

الإنسان إذن ينفعل (بما نسميه مثير الضحك)، وحتى لا يدمره الانفعال، يتم تسريبه عبر المتشابكات في المخ الإنساني، إلى فعل انقباضي في عضلات الصدر والفم وبقية العضلات (حسب قوة الانفعال) فيبتسم أو يقهقه أو يرفس الهواء برجليه أو ينقلب على ظهره، وهو ما نسميه الضحك.

لله ما أعظم المصريين . الذين سخر بعض المثقفين من كلماتهم، عندما يقولون بعد الضحك: اللهم اجعله خيراً!!. ✻

المــــــراجـــــع:

(١) سيكولوجيا الفكاهة والضحك (في علم النفس) أ.د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر القاهرة (مرجع أساسي).

(٢) مارك توين (أعلام الأدب الأمريكي)، المكتبة الأهلية، بيروت.

(٣) الموسوعة الأمريكية الجزء ١٤ ص ٢٦٣ وما بعدها، والجزء ٤ ص ٣٣ وما بعدها، والجزء٧ ص ٢٥٤ وما بعدها، والجزء ١٠ ص ٨٢٤، والجزء ١١ ص ١١، والجزء ٢٣ ص ٥.

(٤) جحا، عباس محمود العقاد، دار المعارف القاهرة.

(٥) لسان العرب لابن منظور (دار المعارف القاهرة)

(٦) نظرية في الانفعالات، جان بول سارتر، ترجمة د. سامي محمود علي، ود. عبد السلام القفاش، أمهات الكتب مهرجان القراءة للجميع، القاهرة.

(٧) الفكاهة في مصر، أ.د. شوقي ضيف، القاهرة.

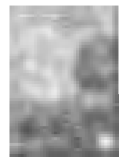
(٨) الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد، عالم المعرفة، يناير ٢٠٠٣، الكويت.

✽ تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات. ✽

المجتمع المدني والدولة في مصر

أماني قنديل

القاهرة: مركز المحروسة للنشر، ٢٠٠٦، ١٦٠ صفحة



على الرغم من أن مصر والمجتمعات العربية والإسلامية عرفت المجتمع المدني باكرًا ممثلاً في أشكال بدائية من التكافل في الأوقاف والأربطة وغيرها، فإن المجتمع المدني في صيغته الحديثة يستحق اهتمامًا أكبر من قبل الباحثين في العلوم الاجتماعية والسياسية، وهو ما تضطلع به الباحثة منذ سنوات، ليس فقط بوصفها باحثًا يراقب ويرصد ويحلل، وإنما بوصفها مديرًا تنفيذيًا للشبكة العربية للمنظمات الأهلية.

ويركز هذا الكتاب على تطور العلاقة بين المجتمع المدني والدولة في مصر منذ القرن التاسع عشر وحتى العام الماضي (٢٠٠٥)، والتغيرات الداخلية والدولية التي تؤثر في صياغة العلاقة بين الطرفين، وهذه الدراسة هي الأولى من نوعها في المنطقة العربية التي تركز على هذه المسألة في ضوء أمرين أساسيين، أولهما العولمة بأبعادها السياسية والاقتصادية والتكنولوجية، وثانيهما أحداث ١١ سبتمبر وما أعقبها من إجراءات ألقت مزيدًا من الأضواء على دور المؤسسات الأهلية في المجتمعات العربية، وتناقش المؤلفة على مدى أربعة فصول مرجعية مؤسسات المجتمع المدني والإطار العالمي والإقليمي الذي تعمل من خلاله، ثم تشرح خريطة المجتمع المدني في مصر قبل الألفية الثالثة، ثم خريطة المجتمع المدني في مصر بعد ٥ سنوات من الألفية الجديدة، ثم تناقش عددًا من الإشكاليات المحيطة بموضوع المجتمع المدني من نوع الاستقواء بالخارج والتمويل وتعاملات الدولة مع مؤسسات المجتمع المدني.

وتلاحظ المؤلفة فيما يتصل بالنقطة الأخيرة تحديدًا أن الملمح الرئيسي الذي اتسمت به العلاقة بين الدولة والمجتمع المدني عبر هذه الرحلة الطويلة هو مشاكسة وضعف الثقة بين الطرفين وهو ما انعكس على التشريعات التي تنظم أوضاع المجتمع المدني خاصة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، وهو ما انعكس على التعامل الأمني مع بعض هذه المنظمات، بالإضافة إلى أن المجتمع المدني منذ ولادته في أواخر القرن التاسع عشر على وجه الخصوص، تبنى مطالب تتدرج بشكل أو بآخر تحت عنوان الإصلاح. وتشير المؤلفة إلى أن المجتمع المدني في مصر تأثر بشكل كبير بطبيعة الدولة المصرية المركزية التي تطرح وبقوة السلطة الأبوية وتركزها في مواقع صنع القرار السياسي، ثم في أجهزتها البيروقراطية التي لعبت هي الأخرى دورًا في صياغة المجتمع المدني، كما تلاحظ الباحثة وجود دور قوي للعامل الخارجي بأشكال مختلفة، وقد ساهم هذا الدور في تطور المجتمع المدني على عدة مستويات، وقد شهد العقدان الأخيران درجة عالية من التفاعل بين العوامل الداخلية والخارجية في إطار عملية التحول الديمقراطي واحترام حقوق الإنسان.

وبين الملاحظات المهمة التي ترصدها المؤلفة في نهاية دراستها هي النزوع إلى العمل السياسي بين هذه المنظمات، وما صاحبه من توظيف الدولة لبعض مؤسسات المجتمع المدني في اتجاه المساندة السياسية للنظام، وتشير كذلك إلى أن تطور المجتمع المدني في مصر صحبه تواجد مكثف للجمعيات الدينية الإسلامية والقبطية، والتي تصل نسبتها إلى ٣٢٪ من إجمالي الجمعيات الأهلية.

✽

لحظات غرق جزيرة الحوت

محمد المخزنجي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ١٢٠ صفحة



نصان يمكن اعتبارهما نوعًا من التحقيق الأدبي، وقائعهما عاشها المؤلف بنفسه، النص الأول عن «فصول تشيرنوبيل الأربعة»، وهو ولد مع الانهيار المدوي لمفاعل تشيرنوبيل الشهير في ١٩٨٦، وثانيهما «طوابير موسكو ٩٠»، وولد مع وداعه لموسكو في نفس العام ١٩٩٠.

والنصان كما يقول المؤلف فيهما من جسد التحقيق نواة الواقعية، ومن أثير القص ذلك الشجن، فيهما أيضًا تلك الحسرة... والتي هي أقرب ما تكون لشاعر من يتابع بكيانه المقدور كله جزيرة حلمه الكبير وهي تخوض سريعًا، غارقة في أعماق سوداء لمحيط لا متناه.

والجزيرة هي الاتحاد السوفيتي الذي آثره المؤلف على السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حين جاءه العرضان في نهاية عام ١٩٨٥، الأول لدراسة الطب بموسكو، والثاني لدراسة الأدب بأمريكا، ولم يتردد المؤلف في حسم اختياره لصالح الاتحاد السوفيتي الذي رأى فيه دومًا المثل والنموذج الحلم بعدالة اجتماعية والتكافل العام، برغم أنه - المؤلف - لم يكن شيوعيًا أبدًا بالمعنى الاصطلاحي للكلمة، بل كان مثل كثيرين غيره من الثوريين الرومانسيين، ويحلم بدولة العدالة والحرية، والتي تجسدت أمام ناظريه في روسيا: تلك التي عاش عليها ومات فيها الكتاب الذين سحروا بأعمالهم عمر الصبا: تورجنيف ودوستويفسكي وتشيكوف وتولستوي وجوركي، يقول المؤلف: وصلت، أكاد أكون محلقًا من فرط الغبطة إلى موسكو في مطلع عام ١٩٨٦، وبعد أيام السحر الأولى في أول بلد كبير أراه، وأول ثلج في الشوارع، وأول وعد من الصبايا البيض ملونات العيون، بدأت أنضجر وحتى في نوبات بكاء ليلية مريرة.

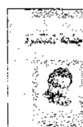
ويقول في موضع آخر: «كنت قد لمست أطنانًا من الكذب الأممي، وعانيت أشكالاً شتى من دناءات الرشوة والفساد، واقتربت كثيرًا من حدود انكسارات القلوب، وهكذا انهار الحلم.. وهكذا غرقت جزيرة الحوت.

✽

الأجنحة المتكسرة

جبران خليل جبران

القاهرة: دار البستاني، ٢٠٠٦



هذا الكتاب واحد من الكتب الشهيرة لمؤلفه الأشهر، وهو يروي قصة حبه الأولى مع سلمى كرامة حين كان وعيه يتفتح وعواطفه الشابة تتوثب لملاقاة مشاعر جديدة لم تألفها، والغريب أنه يهدي قصة حبه الأولى تلك إلى صديقته الأمريكية والمؤتمنة على أسراره ماري هاسكل.

وقد كانت تلك الحبيبة امرأة متزوجة، إلا أنها أحبت جبران وسعت دومًا إلى لقائه بعيدًا عن أعين الناس، متجاوزة كل الأعراف والتقاليد التي تحكم حياة الناس في الشرق وتضع ضوابط وسياجات للعلاقات من هذا النوع، والمعروف أن جبران عاش حياة حرة بلا قيود من أي نوع، بل دعا في كتاباته إلى التحرر من كافة القيود، خصوصًا في علاقات الحب والعلاقات الإنسانية عمومًا، وفي قصته تلك يخاطب المتمسكين بالتقاليد والقيم بقوله: إن السجين المظلوم الذي يستطيع أن يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جبانًا، وسلمى كرامة كانت سجينة مظلومة ولم تستطع الانعتاق، فهل تلام لأنها كانت تنظر من وراء نافذة السجن إلى الحقول الخضراء والفضاء الوسيع، هل يحسبها الناس خائنة لأنها كانت تجئ من منزل منصور بك غالب لتجلس بجانبي بين عشتروت المقدسة والجبار المصلوب؟ ليقل الناس ما شاءوا، فسلمى قد اجتازت المستنقعات التي تهز أرواح الذئاب، وبلغت ذلك العالم الذي لا يبلغه عوى الذئاب وفحيح الأفاعي، وليقل الناس عني ما أرادوا، فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه اللصوص، والجندي الذي رأى السيوف مشتبكة فوق رأسه وسواقي الدماء تجري تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التي يرشقه بها صبيان الأزقة.

✽

أوراق نقدية في الأدب

عبدالرحمن أبو عوف

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦، ٤٢٢ صفحة



يضم الكتاب ما يقرب من ٦٠ دراسة نقدية لأعمال روائيين وكتاب قصة ومسرحيين من أجيال مختلفة، فضلاً عن قسم خاص للمعارك الفكرية الأساسية التي جرت في الواقع الثقافي المصري منذ المعركة بين العقاد وشوقي وحتى معارك صلاح عبدالصبور.

في الرواية يبدأ الناقد بإشكالية أسلوب وبناء الرواية عند طه حسين، وهو يرى أن مجايلي طه حسين مثل هيكل والمازني والحكيم وتيمور ويحيى حقي يتميزون عنه بدرجة كبيرة، أو على حد قوله: هناك فرق شاسع بينهم وبينه في التعبير البنائي والتشكيلي وآليات السرد وبناء النماذج والتعبير بالصورة والمجاز وإدراك وحدة الموضوع.. إلخ.

وحتى حين نقارن بين رواية طه حسين ورواية الجيل التالي مثل نجيب محفوظ، فإن الميزان يميل لحساب محفوظ، ويلخص المؤلف رأيه في أن الرواية عند طه حسين تفتقد الوحدة الفنية والنسق البنائي للموضوع، ويتبدى الأسلوب الخبري اليقيني متعارضًا مع

شاعرية السرد، فهو - أي طه حسين - يفي بالانشاء البلاغي الجزل وينحو نحو الخطابة وعلو النبرة في الحديث. وهو عكس ما يلاحظه في تحليله لأعمال نجيب محفوظ مثلاً التي رأى أنها تلتحم بسياق وتحولات التاريخ المصري المعاصر، وأنها تعبر عن وعي حقيقي بمسار وتناقضات الثورة الوطنية الديمقراطية منذ اندلاع ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول وحتى تدخل العسكر وثورة يوليو ١٩٥٢، وذلك عبر قراءة عديد من أعماله منها ما فاض في أعماق النفس الإنسانية وتابع مسيرة البشرية مثل أولاد حارتنا والحرافيش، ومنها ما تابع التطورات السياسية والاجتماعية في حقبة الديمقراطية الليبرالية مثل بين القصرين وقصر الشوق والسكرية ومنه ما تنبأ بهزيمة ١٩٦٧، وانتقد التنظيم السياسي الوحيد (الاتحاد الاشتراكي) مثل ميرامار، ومنها ما عبر عن قلق وصخب ومجد وهزيمة الثورة مثل «السمان والخريف» و«ثرثرة فوق النيل» و«الطريق» و«الشحاذ» و«حب تحت المطر» وهكذا.

ويلاحظ المؤلف في تحليله لأعمال يوسف إدريس أن شخصيته القلقة البركانية الحافلة بالتناقضات والشهوة والحلم والصدامية كانت سبباً وراء ابداعه القصصي والمسرحي المتنوع، وأن هذه الشخصية التي عرفها أبو عوف عن قرب، تميزت أيضاً بقدر من الشفافية والصفاء والإدراك العميق لماهية ما يجري حوله، كما تميز ادريس بقدرة خارقة على استشعار الخطر المحدق بالبلد، وكذلك على استشعار المستقبل والتنبؤ بما سيقع من احداث في حياة وطنه وحياته الخاصة، ويشير بالذات إلى مجموعته بيت من لحم.

على هذا النحو يتابع المؤلف اعمال يحيى حقي وعبدالحكيم قاسم وصنع الله إبراهيم ومحمد البساطي ويوسف أبورية والرواية النوبية، وكذلك أعمال جبرا إبراهيم جبرا، وغالب هلسا، ويحيى الطاهر عبدالله، وإحسان عبدالقدوس، ولطفي الخولي، فضلاً عن الشعراء حسن طلب، وفاروق جويدة ومحمد صالح.

※

الفشل الإسرائيلي في لبنان

إعداد وتقديم: أنطوان شلحت

رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، ٢٠٠٦، ١٣٤ صفحة



برهنت الحرب الإسرائيلية الأخيرة في لبنان على إمكانية هزيمة الجيش الإسرائيلي، وهذه الهزيمة لا يمكن قياسها بحسابات العدة والعتاد، وحجم القطع العسكرية التي تم تحطيمها، والقتلى من الجنود على الجانبين، فصمود مقاتلي حزب الله، وعدم قدرة الجيش الإسرائيلي على تحقيق أهدافه، وتراجع هذه الأهداف إلى الحدود الدنيا مع توالي أيام الحرب، يؤكد الفشل الإسرائيلي في لبنان وينفي من ناحية ثانية فكرة الجيش الذي لا يقهر التي رسخها الإعلام الصهيوني على مدى عقود.

المحللون والخبراء العسكريون الإسرائيليون أجمعوا - كما يبين الكتاب - على إخفاق الجيش الإسرائيلي في الحرب، وكذلك على أن هذه الحرب كانت حافلة بالمفاجآت غير المتوقعة، وهي مفاجآت لم تشر فحسب إلى قوة الجانب الآخر وجاهزيته لخوض حرب من هذا النوع في مواجهة جيش قوي حديث منظم، وإنما ايضاً أثارت شكوكاً حول قوة الجيش الإسرائيلي وأدائه، وكذلك الحال بالنسبة لاستخباراته.

يتضمن الكتاب آراء نحو تسعة عشر خبيراً إسرائيلياً من اتجاهات مختلفة، يقول أحدهم مثلاً في مجلة «تخيلت» أن ثمة حاجة لاتخاذ خطوات وإجراءات فورية للحد من التبذير الصارخ في المؤسسة العسكرية الإسرائيلية. ويطالب وزير الدفاع بإصلاحات في جهاز الاحتياط.. وإحياء الروح الصهيونية التي تشكل حافزاً للدفاع عن الدولة.

ويشير موشيه يعالون رئيس الأركان السابق في عدد آخر من المجلة إلى أن إسرائيل رغم توطيدها لمكانتها كقوة إقليمية في المنطقة، فإن حقها في الوجود كدولة يهودية مستقلة، مازال موضع خلاف وجدل.

وتحت عنوان الضربة القاضية التي تلقيناها، يقول رؤوبين بدهستور وهو خبير استراتيجي جامعي إن حرب يوم الغفران (٦ اكتوبر) لا تزال محفورة في الذاكرة الجمعية الإسرائيلية باعتبارها حدثاً انعطافياً تصدعت في أعقابه ثقة الجمهور الإسرائيلي بالجيش، ومن السابق لأوانه القول بأن حرب لبنان ستذكر كخط انكسار يصحو الجمهور في أعقابه من وهم القوة العسكرية الإسرائيلية غير المحدودة.

ويقول المعلق السياسي عوزي بنزيمان إن الحرب اثبتت حدود القوة العسكرية لإسرائيل وقوة الاستفزاز الكامنة في تأييد مطالب الفلسطينيين والسوريين حيال إسرائيل.

ويؤكد «زئيف شيف» المعلق العسكري لصحيفة «هاآرتس» أن الصواريخ كانت هي المفاجأة التي أعدها حزب الله لإسرائيل، تماماً كما كانت الصواريخ هي مفاجأة حرب يوم الغفران.

ويتساءل «يوفال شطاينيس» عضو الكنيست من الليكود: هل الحديث هو عن فشل موضعي ناجم عن قيادة سياسية

إسرائيل والمجتمع الاستيطاني



صدر في فبراير/شباط الماضي عن دار نشر بلوتو بريس كتاب بعنوان «إسرائيل والمجتمع الاستيطاني» للدكتور لورينزو فيراتشيني، وهو أكاديمي أسترالي، وباحث في مرحلة ما بعد الدكتوراه بجامعة كانبرا الوطنية. ويبدو من الاطلاع على بعض أعماله أن اهتماماته لا تقتصر على الاستيطان الصهيوني، بل تتعداه لتشمل مختلف تجارب الاستيطان الأوروبي في وطنه أستراليا، وغيرها من الأصقاع التي شهدت مشروعات استيطانية تراوحت بين الإخفاق والنجاح.

تنطلق رؤية لورينزو فيراتشيني لطبيعة وبنية ومسار المشروع الاستيطاني الصهيوني عن فكرة أساسية مؤداها أن الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين ليس فريداً أو متميزاً بذاته، مهما كانت الانطباعات والتضمينات التي تجترحها وسائط الإعلام ومصادر الأخبار في الغرب. يجادل فيراتشيني بأن أفضل طريقة لفهم هذا الصراع هي في إطار وسياق الاستعمار (الكولونيالية).

وشأن كثير من المجتمعات الأوروبية خارج أوروبا، تظل إسرائيل مجتمعاً استيطانياً بامتياز. ولدى النظر برؤية تفصيلية متفحصة إلى نشوء وتطور المنظومات والمشروعات الاستيطانية الأخرى -كنظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، والاستيطان الفرنسي بالجزائر قبل الاستقلال، والاستيطان الأسترالي الراهن- يقدم فيراتشيني تفسيراً معمقاً لمختلف حركيات وآليات (ديناميات) الاستيطان الاستعماري، مما يتيح إطاراً تفسيرياً واضحاً يمكن من خلاله فهم وتفسير ازمة الصراع في الشرق الأوسط.

يتحدى فيراتشيني أسطورتين هامتين من الأساطير المؤسسة للكيان الصهيوني، ويرتكز عليهما المشروع الاستيطاني. أولاهما: إن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني هو حالة فريدة في العلاقات الدولية، تستعصي على المقاربات والمقارنات التي تفسر مختلف أشكال وحالات الصراع. ثانيتهما: أن مرتكزات الصراع الأساسية هي القومية والدين، وبالتالي فهو صراع مختلف عن صراعات وحروب (التحرر الوطني) التقليدية الناجمة عن الاستعمار.

لكن على العكس من ذلك، يبين فيراتشيني كيف أن المجتمع الإسرائيلي قد تم تنظيمه بشكل متواز مع الخطوط العامة لنظام الفصل العنصري.

ويعتبر فيراتشيني أن معظم الأفكار أو التصورات التي يقترحها الاستيطان الصهيوني فيما يتعلق بمستقبل الفلسطينيين - من حكم ذاتي أو شبه دولة منزوعة السيادة ومفتقرة إلى التماسك الجغرافي والقدرة على الحياة- ترمي إلى عزل التجمعات السكانية الفلسطينية في إطار ما كان يعرف في جنوب أفريقيا بـ «البانتوستان»، وهي جزر منعزلة من السكان الأفارقة، تكرس فكرة الفصل العنصري.

وفي سياق نزوع الأيديولوجية الاستيطانية نحو إنكار التاريخ الدموي الحقيقي للاستيطان وعدم الاعتراف بكوارث -تصل حد الإبادة- والتي أوقعها بالشعوب الأصلية، والإصرار على الاحتفاظ بالرواية الاستيطانية التقليدية، يقارن فيراتشيني بين إسرائيل وأستراليا. فكلتا الدولتين قد شهدت رفضاً عاماً ملحوظاً إزاء القبول ببعض النتائج التي تقدمها دراسات المؤرخين الجدد (التصحيحيين) في إسرائيل وأستراليا، خصوصاً إذا تعلقت بتقييم العنف التأسيسي للمشروع الاستيطاني. ونادراً ما يتم استبدال أي جزء من الرواية الرسمية لتاريخ الكيان الاستيطاني بدون معركة.

ويعتبر فيراتشيني أن مستوى العنف الذي مارسه الإسرائيليون ضد الفلسطينيين مؤشر على اتساع مدى خطة الاستيطان الصهيوني باتجاه طرد العرب من بلادهم، بل ويعتبر مجزرة دير ياسين -وغيرها من المجازر- دليلاً على وجود مخطط كبير للمشروع الاستيطاني باتجاه اقتلاع العرب من فلسطين. ويرى المؤلف في مصير مشروع الاستيطان الفرنسي الذي تفكك وانهار في النهاية، واضطرار المستوطنين الفرنسيين إلى الخروج من الجزائر والعودة إلى فرنسا، يرى فيه نذيراً ومصيراً محتملاً لمستقبل المشروع الاستيطاني الصهيوني.

د. مازن النجار

دار بلوتو بريس، فبراير ٢٠٠٦، ١٦٠ صفحة

عديمة التجربة، أم أن الأمر يكمن في عجرفة وكبرياء قيادة الجيش الإسرائيلي التي صمت الآذان عن النقد لاعتمادها البالغ فيه على عجائب القوة الجوية.

انتقادات كثيرة عسكرية وسياسية يوجهها الخبراء لأداء الجيش الإسرائيلي في هذه الحرب، كما يشير الكتاب.

❊

تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية

قاسم عبده قاسم

القاهرة: عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠٦، ٣٢١ صفحة



لاتزال الحركة الصليبية تستأثر بجهود الباحثين والمؤرخين في الغرب الأوروبي وفي الشرق العربي الإسلامي على السواء: وهذا الكتاب نموذج للعمل الجماعي البحثي في هذا المجال، فضريق العمل الذي يقوده المؤرخ جوناثان رالي سميث أحد أبرز المتخصصين المعاصرين في الحركة الصليبية، يقدم خمس عشرة دراسة عن جوانب عديدة تتم دراستها لأول مرة في تاريخ الحركة الصليبية في عمل مشترك يحمل اسم أوكسفورد، حيث يتم تناول المسألة برؤية جديدة وفي جوانب مختلفة، التاريخ والفن التشكيلي والعمارة والموسيقى والآثار والشعر والرهبنة والأحوال الاجتماعية والمعارك العسكرية.

ويبرر سميث في تقديمه للكتاب هذا التنوع في دراسة الحملات الصليبية، بأنه كان من الصعب تصنيف السلوك في الحرب بالمصطلحات القديمة القاطعة عن البطولة أو الجسارة، كما أن النظريات التي تبرز مفهوم الحرب العادلة حظيت باهتمام أكبر، كذلك فإن محاكمات نورمبرج التي جرت على افتراض أن الجرائم يمكن أن ترتكب ضد الإنسانية، قد أعادت إحياء الاهتمام بالقانون الطبيعي.

وبينما يحتمل أن تكون التطورات الفكرية قد هيأت الناس للنظر إلى الحروب الصليبية بقدر أكبر من الوجدانية، فإن معظم التفسيرات لتورط مثل هذا العدد الكبير من الناس في الحركة الصليبية كانت لاتزال تدور حول أنها كانت تفتقر إلى العقلانية أو أنها كانت ترنو إلى المكسب المادي.

ويضيف في موضع آخر: كان المؤرخون غافلين عن الحقائق والبراهين بسبب نفورهم من العنف الأيديولوجي وعدم قدرتهم على فهم أنها كان يمكن أن تكون فعلاً دعوة مقنعة، إذ إنهم قد نسوا كيف كانت النظرية المسيحية عن العنف الإيجابي محترمة فكرياً.

ويشير المحرر إلى هذا الاهتمام بدوافع الفقراء في الحرب الصليبية، وهم الذين شكلوا عنصراً مهماً في الحملات الصليبية الباكرة، كما تجمعوا سوياً بين الحين والآخر في هيات شعبية في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر، لكن هذا الاهتمام بالصليبيين الفقراء والذي كان تعبيراً عن حماسة حركات الجماهير التي كانت شائعة في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، بدأ يتبخر عندما بات واضحاً أن ما يمكن معرفته عنهم قليل للغاية، وبدأت معظم الدراسات تتجه إلى كتابات المفكرين، رجال القانون الكنسي وعلماء اللاهوت، مفاهيم النبلاء والفرسان، مناقشات البابوات والمبشرين.

❊

ثقافة المصريين

فؤاد قنديل

القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، ٢٠٠٦، ١٣٦ صفحة



مم تتشكل ثقافة المصريين؟ وهل للمصريين جميعاً ثقافة واحدة أو ملامح ثقافية مشتركة تشابكت عبر القرون؟ سؤالان كبيران يجيب عنهما المؤلف عبر مقالات تراقب حركة الناس وترصد المصادر الرئيسية التي تشكل وعيهم في سعيهم اليومي بادئاً بتعريف معنى الثقافة التي يحصى لها أكثر من ثلاثمائة تعريف، مشيراً إلى تعريف تايلور الذي يجمع بين المعرفة والمعتقد والفن والأخلاق والقانون والعادات، وأي قدرات أو مهارات يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع معتبراً أن هذا التعريف هو الأشهر، وإن أشار إلى الإجماع على تعريف الثقافة بأنها مجموعة المعارف والقيم التي تتجلى في سلوك جماعة من الناس، أي أنه هنا يربط بين الأفكار وقدرتها على التغلغل في حياة الناس والتأثير في سلوكياتهم وتعاملاتهم، وهو ما يعرف بثقافة الجماعة دون تجاهل لخصوصيات الأفراد وتمايزاتهم عبر ما يحصلونه من ثقافة بشكل شخصي.

يتقافز المؤلف بعد ذلك راصداً سلوكيات المصريين وفهمهم لمعنى حقوق الإنسان والديمقراطية والتدين ومعنى النهضة وحقوق المرأة واحترامهم أو عدم تقديرهم لمعنى الاختلاف، ويشير كذلك إلى تأثير العشوائيات على سلوك الأفراد ومنظومة القيم لدى الشعب المصري في عمومه، ويؤكد على أن الوجه الحقيقي لثقافة الاستبداد ليس فقط في صورة الحاكم الديكتاتور وإنما يتجلى في مجالات العمل والتعامل بمختلف مناحي الحياة العربية «حيث تحتشد بذور الاستبداد وشرانقه لتتربى وتتجذر».

ويناقش في الفصل الثاني من الكتاب عدداً من المفاهيم حول منتج الثقافة ودور الأدب والفن في تشكيل الثقافة الجمعية وحدود حرية الأديب والمفكر وميثاق شرف المثقفين وغيرها من الموضوعات المهمة التي تؤكد أن النهضة لا تتحقق فحسب بتنمية الموارد وزيادة المداخيل، وإنما ببناء الإنسان وتنمية وعيه الثقافي والاهتمام بالأجهزة والمؤسسات التي تسهم في تقديم المنتج الثقافي.

❊

ديمقراطية التعليم في الفكر التربوي النقدي

شبل بدران

القاهرة: عين للدراسات الاجتماعية والبحوث، ٢٠٠٦، ٢٠٨ صفحات



يتضمن الكتاب عدداً من الدراسات والأطروحات النظرية للاتجاه النقدي في الفكر التربوي في أوروبا وأمريكا، ويشير المؤلف وهو عميد لكلية التربية بجامعة الإسكندرية ورئيس اتحاد كتاب الإسكندرية: إلى أن هذه الحركة التجديدية في الفكر التربوي المعاصر، كانت محل انشغال العالم المتقدم بها منذ السبعينيات وحتى الآن، إلا أن حركة الفكر التربوي المصري والعربي، مازالت تدور حول مجمل أفكار جون ديوي، وما طرحه من خلال فلسفته التربوية الشائعة في عالمنا المعاصر، وظلت حركة الفكر التربوي النقدي بعيدة عن متناول الباحثين والدارسين والمشتغلين بالعمل التربوي، وهو ما يسعى المؤلف إلى الاشتباك معه في هذا الكتاب وعبر دراساته كلها.

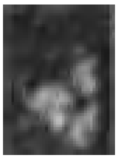
يتضمن الكتاب سبعة فصول، يتناول الأول الأبعاد الاجتماعية والتربوية للمنهج النقدي، والثاني: ديمقراطية التعليم في الفكر النقدي حيث يطرح المؤلف فيه النظريات التي عالجت مفهوم الديمقراطية التعليمية من زوايا عديدة، وفي الفصل الثالث: يدرس التعليم المدرسي في المجتمع الرأسمالي محاولاً الإجابة عن سؤال رئيسي هو: هل تستطيع المدارس أن تحقق المساواة، ويتناول الفصل الرابع: الإصلاح التعليمي والتغير الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية، ويعرض الخامس للتعليم غير العادل والتقسيم الاجتماعي للعمل، أما السادس فيدور حول اتجاهات معاصرة في الاقتصاد السياسي للتربية، ويركز السابع على ديمقراطية التعليم وتكافؤ الفرص في المجتمع المصري بوصفه مجتمعاً رأسمالياً في التوجه والممارسة.

❊

جرح بلا جداول

معروف الخضر

طرطوس (سوريا): دار قرطاج، ٢٠٠٦، ٨٢ صفحة



نصوص حرة كما يسميها المؤلف نفسه على غلاف الكتاب، كي يحصنها ضد التصنيفات الأدبية المتعارف عليها، فهي ليست قصائد تتعامل على هذا النحو، وإن كانت هي أكثر شعرية من كثيرين مما يكتب هذه الأيام بوصفه شعراً.

من أجواء الكتاب:

ورود ذابلة/ في أصيص من البلور/ فيما مضى/ أصحابها/ كانوا عبيراً/ وشهدهم الندى/ واليوم باتوا رحيلاً/ أدخل كل يوم/ إلى بيتي/ أرى ذاك الصبوح/ واليوم/ فتحت باب بيتنا/ فلم أره/ من يومها/ صرت بلا روح.

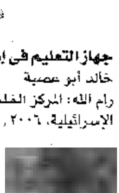
والنصوص هي الرابعة للشاعر بعد دمع الصعاليك (٢٠٠١) ومباسم ولقاء (٢٠٠٣) وعلى ضفاف الأصيل (٢٠٠٤).

❊

جهاز التعليم في إسرائيل

خالد أبو عصبة

رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، ٢٠٠٦، ٢٩٨ صفحة



جهاز التعليم في إسرائيل هو المسئول عن تفريغ هذه المقولة الكارهة لكل ما هو عربي ومسلم، هو الذي يشحن عقول التلاميذ بأسباب الغضب والعنصرية والرفض، ويشحذهم للقتل والتدمير بلا رحمة، والمفارقة أن أجهزة التعليم عندنا تحت دعوى التطوير ونشر فكر التسامح والتعايش وقبول الآخر، تنزع كل ما يشرح حقيقة اليهود والصهيونية حتى لو كان نصاً دينياً أو وقائع تاريخية.

في ستة فصول يتحدث المؤلف عن هذا الجهاز: جهاز التعليم العبري قبل قيام دولة إسرائيل، السياسة التربوية، مناهج التعليم ورؤية الآخرين، جهاز التعليم العربي في إسرائيل، التعليم العالي، فجوات تعليمية في جهاز التربية والتعليم الإسرائيلي.

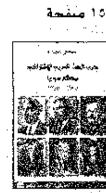
ولأهمية هذا الجهاز في إسرائيل فإنه يحظى باعتمادات مالية هائلة تتزايد بشكل سنوي، كما أن النقاشات الجادة لا تتوقف حول تطوير هذا الجهاز وتحسين أدائه، ويلاحظ المؤلف أنه إلى جانب تطوير شبكة التعليم التقليدية تطورت شبكة من المدارس البديلة التي تقدم خدمات تعليمية مناسبة للمدارس القائمة، وأن إحياء اللغة العبرية إحدى المهام الجسيمة التي تضطلع بها تلك المدارس، كما يؤكد على النمط الأيديولوجي المهني للتعليم والذي رعته الحركة الصهيونية منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى، وأن الدعم البريطاني للتعليم اليهودي لم يتوقف، وإن الأهداف القومية بما فيها تلقين الأيديولوجية الصهيونية ونشر اللغة العبرية بقيت تتصدر سلم الأولويات التربوية على امتداد فترة الاستيطان وصولاً إلى قيام الدولة، فقد كان الجهاز التربوي أداة تستعملها الحركة الصهيونية لإنتاج المعنويات القومية وتعميمها في سبيل بلورة «الإنسان الجديد» كما أطلقوا عليه في الدولة العبرية، إلى جانب التشديد على أهمية الجماعة والارتقاء بأهدافها إلى ما فوق الأهداف والمصالح الفردية، واستعداد الأشخاص للتضحية في سبيل هذه الأهداف، وتعميق الفكر الصهيوني وتنمية النزعة القومية اليمينية لدى الطلاب، وتوظيف الصراع العربي الإسرائيلي في هذا المجال، وعلى العكس من ذلك، بقي جهاز التعليم العربي يعاني من الإجحاف ونقص التمويل وضعف الموارد، وإقصاء العرب تماماً عن المشاركة في وضع سياسة هذا الجهاز.

※

حزب البعث العربي الاشتراكي يحكم سوريا

سمير عبده

دمشق: منشورات دار حسن علش، ٢٠٠٦، ١٥٢ صفحة



حكم حزب البعث الاشتراكي سوريا لمدة تتجاوز نصف عمر سوريا الحديثة منذ نالت استقلالها عن فرنسا، ويتناول هذا الكتاب أحداثاً سياسية عصفت بسوريا في الفترة من ٨ مارس عام ١٩٦٣، وحتى ١٦ نوفمبر عام ١٩٧٠، وهي بدورها تنقسم إلى قسمين، المرحلة الأولى من مارس ١٩٦٣ وحتى ٢٣ فبراير ١٩٦٦ التي سميت بالمرحلة القومية أو اليمينية لحزب البعث، أما المرحلة الثانية التي تمتد من ٢٣ فبراير ١٩٦٦ وحتى ١٦ نوفمبر ١٩٧٠، فهي تعرف بالمرحلة القطرية أو اليسارية لحزب البعث.

وقد مثلت المرحلة الأولى فترة استلام حزب البعث العربي للسلطة في سوريا، ومنها برزت التناقضات بين أعضائه إلى أن تم حسم الأمر بين اتجاه قومي وآخر يساري، وتغلب الأخير على الأول وأطاح به ليتسلم السلطة بعد فبراير عام ١٩٦٦.

وفي المرحلة الثانية طفت الأطروحات والنظريات اليسارية من أقصاها إلى أدناها، وكانت محصلتها صراعاً بين جناحين قادهما حافظ الأسد وصلاح جديد، ولم يكن الخلاف بين الجناحين في العمق بقدر ما كان خلافاً حول التكتيك والاستراتيجية. وحين انتهت هذه المرحلة وقامت حركة التصحيح في ١٦ نوفمبر عام ١٩٧٠ بدأت مرحلة جديدة من حياة الحزب، لم يعد فيها أجنحة متصارعة داخل الحزب الواحد، ولم يعد هناك تيار يميني أو يساري، وتمكن الحزب من تجاوز الكثير من أخطاء الماضي.

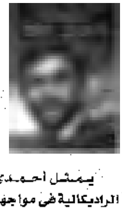
ويشير المؤلف في تحليله إلى أن حزب البعث جاء إلى السلطة في سوريا على أساس نظام علماني قائم على عصبيات ما دون طائفية، وقد سعى إلى إعطاء مختلف الفئات التي تشكل أقليات تاريخية في البلاد فرصاً للكسب وتبوؤ مراكز مهمة، وتشكل في كنف هذا الحزب برجوازية طفيلية اختلط في صفوفها البعثي بغير البعثي، والعسكري بغير العسكري، وتحولت هذه الطبقة إلى الحلقة الأهم في صناعة القرار في النظام السوري متغلغلة في معظم الميادين والمشاريع.

※

أحمدي نجاد رجل في قلب العاصفة

عادل الجوجري

دمشق: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٦، ٣٢٥صفحة



يمثل أحمدي نجاد بمواقفه الراديكالية في مواجهة الأمريكان والغرب حالة استثنائية، خصوصاً في هذه الفترة التي يبحث فيها العرب والمسلمون عن صقر وسط الحمائم، وما يصدر عن الرجل من تصريحات، وما يطرحه من رؤى يضع بلاده في مواجهة صارمة وحاسمة مع القوة الأكبر في العالم، ولا أحد يعرف إلى أين تتجه المواجهة.

من هو الرئيس الإيراني أحمدي نجاد، كيف استطاع أن يجمع بين أسطورة المحارب في الحرس الثوري، ودرجة الدكتوراة في الهندسة وأستاذية الجامعة، أي ريح وضعته على أعتاب السلطة ما بين الظل والضوء حين صار محافظاً للعاصمة طهران، كيف استطاع أن يحصل على ثقة ١٧ مليون ناخب إيراني، وأن يطيح بالكبار في لعبة الكراسي الديمقراطية؟ لماذا صاحبته العواصف الغربية والصهيونية والأمريكية وكأنها كانت تختبئ وراء الباب في انتظار الرجل الذي يستدعيها بتصريحات ثورية عن مستقبل إسرائيل، وبإجراءات عملية لبناء القدرة النووية الإيرانية.

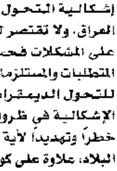
هذا الكتاب يحاول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال الوثائق والشهادات والتحليل السياسي الموضوعي والمحايد لمسيرة الرجل.

※

التحول الديمقراطي في العراق

عبدالوهاب حميد رشيد

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ٤٨٨ صفحة



في هذا البحث محاولة لتحليل إشكالية التحول الديمقراطي في العراق، ولا تقتصر لفظة «إشكالية» هنا على المشكلات فحسب، بل تعني أيضاً المتطلبات والمستلزمات والشروط اللازمة للتحول الديمقراطي. وإذا كانت هذه الإشكالية في ظروفها الحالية تشكل خطراً وتهديداً لأية مسيرة دستورية في البلاد، علاوة على كونها مرتبطة بحلول بعيدة الأمد تتطلب جهوداً مجتمعية واعية ومتواصلة، وتسير تمطياً مع مسيرة التحول المنشودة، فإن هذا البحث كذلك يفترض أن عملية البناء الدستوري والبدء بالتحول الديمقراطي يتطلبان بروز جبهة وطنية تاريخية فعالة تقود مهمة إنهاء الاحتلال وبناء الاستقلال وقادرة على تعبئة أكثرية الناس بمختلف أطيافهم ومجموعاتهم في إطار قبولهم وتبنيهم برنامج حد أدنى، واقعياً يتسم بالوضوح الفكري والمفاهيمي، مرناً ووافياً ومتناسباً مع قدرات ومتطلبات المجتمع، وفي سياق إعادة بناء إرادة الإنسان العراقي.

※

مقالات في الفردانية

ترجمة: بدر الدين عرودكي

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٦، ٢٩٠ صفحة



من خصائص الأيديولوجية الحديثة أنها تخضع الكلية الاجتماعية للفرد، باعتباره كائناً «معنوياً» مستقلاً بذاته. هذه الأيديولوجية تميز بين المجتمعات الغربية والمجتمعات الأخرى التي تعطي قيمة للكلية الاجتماعية وتخضع الفرد لها.

لكن كيف ولماذا اختلف الغربيون عن الآخرين؟

في هذا الكتاب تحليل عميق لتشكل الفردانية الغربية ولصيرورتها الدينية والسياسية منذ بدايات العصر المسيحي إلى اليوم.

وهو، مع حرصه على التوعية بما للغرب من فرادة، لا يكتفي بالتفكير في الاختلافات الأيديولوجية، وإنما ترسم مسارات ذكية نحو كونية ملموسة هي حصيلة مقارنة مستمرة بين الأشكال المختلفة للإنسانية.

لقد اعتمد المؤلف في تناول الفردانية مقارنة كلية تتجاوز تناول الكوني، مستقلاً عن الاختلافات والخصوصيات. كما تتجاوز التصنيفات المعهودة للمجتمعات حسب ترسيمات جامدة.

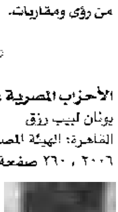
هذا التناول يزعزع كثيراً مما هو سائد من رؤى ومقاربات.

※

الأحزاب المصرية عبر مائة عام

يونان لبيب رزق

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦، ٢٦٠ صفحة



بهذا الكتاب يستكمل المؤلف جانباً من رحلة بحثه الحداثية التي بدأها عام ١٩٧٠ بصدور كتابه «الحياة الحزبية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني

١٨٨٢ - ١٩١٤»، ثم كتابه «الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢» الصادر عام ١٩٧٥، ثم «تاريخ الأحزاب المصرية» عام ١٩٩٧.

وهذا الكتاب الذي يرصد التجربة الحزبية المصرية منذ نشأتها في ١٩٠٧ وحتى اليوم يؤكد على خصوصية التجربة المصرية من حيث النشأة، التي انعكست بدورها على المفهوم.

فقد نشأت هذه الأحزاب لمواجهة التدخل الأجنبي في شئون البلاد، ثم الاحتلال الإنجليزي بدءاً من عام ١٨٨٢، وقد بدأت على شكل تيار يضم جماعة الوطنيين الذين عارضوا الاحتلال، فأطلقوا على أنفسهم «الحزب الوطني»، وهو عكس نشأة الأحزاب في أوروبا التي انبثقت أساساً من داخل النظام البرلماني ممثلة للقوى الاجتماعية وتعبيراً عن مصالحها.

كما أن الأحزاب التي نشأت في مصر قبل الحرب العالمية الأولى نشأت أساساً حول الصحف الكبيرة التي كانت تصدر في تلك الفترة وأهمها صحيفة المؤيد التي صدرت عام ١٨٨٩ وتبعتها جريدة اللواء عام ١٩٠٠، فيما كانت الصحف في أوروبا تصدر لتكون لسان حال الحزب لا أن يخرج الحزب من عباءة الصحيفة.

والسمة الثالثة هي أن الأحزاب في مصر نشأت بمعزل عن البرلمان فيما نشأت الأحزاب الأوروبية في أحضانه.

والكتاب يؤكد من ناحية ثانية فكرة التواصل، وهي ظاهرة ممتدة في أنساق الثقافة المصرية عموماً.

فالتجربة الحزبية الأولى ١٩٠٧-١٩١٤ تمتد ظلالها في التجربة الثانية ١٩١٩ - ١٩٥٣، ثم التجربة الثالثة منذ ١٩٧٦ بإعادة التعددية وحتى اليوم.

والمؤلف يعرض للتجارب الثلاث كاشفاً عن الظروف التي أحاطت بكل منها، مستنداً إلى وثائق وزارة الخارجية البريطانية وأوراق الأحزاب والمذكرات الشخصية للزعماء، وقائمة طويلة من الدوريات والرسائل الجامعية.

ويضيف المؤلف إلى ذلك دراسة تحت عنوان: «شقوب في التجربة الحزبية الثالثة.. يتناول فيها أصداء إعلان الرئيس مبارك في فبراير ٢٠٠٥ عن نيته لتعديل المادة ٧٦ من الدستور، وهي المادة الخاصة بطريقة تولي رئيس الجمهورية لمنصبه ليصبح بالانتخاب بدلاً من الاستفتاء، وهي المادة التي أثارت كثيراً من الجدل منذ صدورها ويطالب كثير من القوى السياسية بتعديلها.

مدخل رياضي إلى عروض الشعر العربي

د. أحمد مستجير

دار العين للنشر، ٢٠٠٥، ١٦٥ صفحة



في لفتة كريمة، أعادت دار العين للنشر العام الماضي إصدار كتاب مدخل رياضي إلى عروض الشعر العربي للعالم والشاعر والناقد الراحل الدكتور أحمد مستجير والذي كانت «وجهات نظر» قد نشرت مقدمته في العدد الماضي.

ومن شأن إعادة إصدار هذا الكتاب المهم تسليط الأضواء مجدداً عليه بعد سنوات من نفاد طبعته الأولى التي أصدرها المؤلف الراحل على نفقته الخاصة في النصف الثاني من ثمانينيات القرن الماضي.

ويقدم الكتاب رؤية مختلفة في موسيقى الشعر العربي، من شأنها أن تلغي الكثير من المشاكل في علم العروض؛ وأن تبسط أمره لكل من يود معرفته.

وأن تصف بعضاً جديداً من خصائص الأذن العربية، وأن تفتح طريقاً لنوع جديد من الدراسات الموسيقية في الشعر.

وهو يبين توحد الشاعر والرياضي في موسيقى الشعر العربي.

ويكشف ويؤكد أن ثمة نظاماً رياضياً يكمن خلف ما تحبه الأذن العربية من أوزان. نظام تخرج منه كل البحور المهملة والمصطنعة، ويتحكم رقم تفعيلة العروض فيه في تركيب الأبحر التي تستسيغها آذاننا.

ويكشف لنا المنقاب عن هذا النظام. وقد استطاع الكاتب تحويل فكرة الأدلة الرقمية لبحور الشعر - التي هي هذا الكتاب - إلى إنجاز فعلي فاستطاع أن يضع نظاماً بسيطاً للوصف الرياضي لبحور الشعر، وطور هذه الطريقة، التي نشأت عن علاقة مع الحاسب الآلي، فطوعت الشعر له، لكنها تجاوزت هذه العلاقة لتصبح ناتجاً ثانوياً بالنسبة إلى نتائجها الأخرى.

فقد أوضحت هذه الطريقة الكثير من أسرار بحور الخليل، وأصبحت تمثل صيغة «عصرية» لعلم العروض.

وقد تختلف قليلاً عما قال به الخليل، لكنها تؤكد بعد مضي أكثر من ألف عام عبقرية هذا العالم العربي.

المازني.. صورة من قريب

من «جمع وتحرير وتقديم» الأستاذ عبدالسلام حيدر - أصدر المجلس الأعلى للثقافة «الأعمال غير المنشورة» للأستاذ إبراهيم عبدالقادر المازني تحت عنوان «التأملات والذكريات». وذكر الجامع أنه سينشر هذه الأعمال على أساس موضوعي بحيث يقسمها إلى ثلاثة أقسام: قسم التأملات والذكريات، ويقع في المجلد الأول من الأعمال غير المنشورة ويضم ما نشره المازني من مقالات تعرض فيها لذكر بعض أحداث حياته وتأملاته حولها، وحول الحياة بصفة عامة. وأما المجلد الثاني فيضم ما تيسر جمعه من «المقالات والدراسات النقدية». ويخصص المجلد الثالث لقسم «الأشكال السردية» - سواء كانت قصيرة مثل الصورة والأقصوصة والمثال القصصي أم طويلة مثل الرواية. أما رحلات المازني فسوف يخصها الجامع بمجلد خاص - بقيت المقالات الاجتماعية والسياسية، خاصة تلك التي نشرها في أخريات حياته، ويذكر الجامع أنه لم يرتح بعد إلى طريقة مناسبة لنشرها - وإنه لما تذكره أنه ترد ضمن هذه الطائفة الأخيرة من المقالات ما عرض فيه المازني - للمسألة الفلسطينية عرضاً موسعاً لو أتيح نشره لما ترددنا أن نقرر أنه إنما يتحدث عن الواقع الذي نعيشه هذه الأيام!!

وإذا كان الأستاذ عبدالسلام حيدر يذكر أن ما نشره في هذا المجلد، وما هو بصدد نشره في المجلدات الأخرى التي قد تكون ثلاثة، وقد تكون أربعة إذا «ارتاح» إلى طريقة مناسبة لنشر المقالات السياسية والاجتماعية، إلا أنه لم يوضح لنا ما إذا كانت هذه المجلدات الثلاثة أو الأربعة ستضم أيضاً أعماله التي سبق نشرها في كتب أم ستقتصر على «الأعمال غير المنشورة» وإن كنا نتمنى أن تضم - في مجلدات أخرى - ما سبق نشره علاوة على ما لم يسبق نشره، فبذلك يصدق عليها وصف «الأعمال الكاملة»، وهو ما ندعو الله أن يوفقه إليه في ظل «اعتمادات مالية» كثيراً ما يتعذر تدبيرها!

وقد قدم الجامع للمجلد الأول ببحث شيق، قدم - أو رسم - فيه «صورة من قريب» للأديب إبراهيم عبدالقادر المازني، ووعد بتقديم كل قسم بمقدمة خاصة يشير فيها إلى بعض خصائص الأعمال المنشورة فيه.

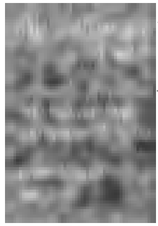
وهي صورة للمازني ضمت جميع الزوايا.. لم تقف عند «تاريخ حياته» بل حرصت على أن تصور - وترصد - خطواته في سبيل تكوين نفسه كإنسان يواجه حياة صعبة قاسية، فقد جفت الموارد، ونضب المعين. وكان عليه منذ صباه أن ينهض بأعباء جسام فقد مات أبوه وهو صغير، ولم يترك له إلا النزر اليسير، وكان على أمه أن تمضي بهذا النزر لتصل بالقافلة إلى بر الأمان، ولذلك عاش المازني وهو يذكر أمه بكل خير، بل ويشيد بذكرها، وبحكمتها وصلابتها، حتى لقد أصابته أزمة عقب وفاتها استغرقت منه جهداً ووقتاً حتى عبرها، وقد أمكن له من ذلك الدخل الضئيل أن يواصل دراسته حتى منتهاها، وحصل على شهادة المعلمين العليا متخصصاً في اللغة الإنجليزية، وقد أكسبته دراسته وقراءاته مقدرة نادرة على الترجمة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية حتى ليذكر عنه - كما يروي صنوه العقاد - أنه كان يجلس أمام الآلة الكاتبة، وعن يمينه الكتاب الذي يريد ترجمته، فتكفيه النظرة، لينقل المعنى في أحسن عبارة - وأسلمها - وما إن ينتهي حتى يسلم الصفحات التي تضم ترجمة كاملة قد صيغت في أحسن عبارة، دون أدنى مراجعة أو تصحيح، وتلك هي التي سماها العقاد «عبقرية الترجمة».

وتبلغ صفحات المجلد الأول ٧٣٦ صفحة. وقد ضمت فضلاً عن التقديم والصورة التي رسمها الجامع للمازني - المجموعة الأولى من مقالات المازني التي لم يسبق نشرها؛ والتي اختار لها الجامع عنوان: «التأملات والذكريات»، وهو عنوان لا اعتقد أن المازني كان يرتضيه لو أن له الخيار، فمن أطلق على مجموعاته «حصاد الهشيم» و«قبض الريح» و«خيوط العنكبوت» كان حرياً، كما قال في بعض ما كتب أن يختار لهذه المجموعة عنوان: «باطل الأباطيل» - أو ما هو من قبيله -. فقد ذكر أنه هم بأن يختار هذا العنوان لبعض ما كان ينتوي جمعه.. ولا نقف عند العنوان طويلاً، فهو في رأي «الجامع» عنوان معبر عن الموضوع الذي يجمع هذه المقالات، حيث إن الجامع حرص على «التقسيم الموضوعي» في نشره للأعمال غير المنشورة.

والمجموعة الأولى التي بين أيدينا تضم ١٣٢ مقالاً. ليس منها مقال يمكن أن يوصف بأنه قد بعد به العهد، أو يتجافى مع روح العصر، أو يعيدنا إلى «أيام زمان»... ورغم أنها ترجع إلى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، فإنها لا تفترق عما يمكن أن يكتب أو ينشر في هذه الأيام، فيما لو كان من بين كتاب اليوم بعض من يضاهي المازني: دقة تعبير، وخفة روح، وصدق نظرة، وعمق تفكير.. فضلاً عن حسن التناول. لا نقول هذا من قبيل المبالغة، أو إعلاء قدر كل ما هو قديم، وإنما نقوله تقريراً لواقع، وإحقاقاً لحقيقة واضحة ومؤكدة.

ولم تقف موضوعات المجموعة عند التأملات والذكريات، فقد اتسعت في الواقع، وتعددت، وتنوعت بحيث شملت الكثير من جوانب الحياة والفكر، والأدب والإبداع، وإن اتسمت جميعها بالصدق، والصراحة، والمضي قصداً إلى الهدف، حتى لو كان الهدف هو التهرب من الإجبار على قول لا يريده، أو إبداء رأي لا يوافق عليه.

أحمد السيد عوضين



The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11

(البرج المرتقب: طريق القاعدة إلى ١١/٩)

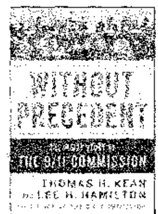
Lawrence Wright

Knopf. 2006. 480PP, 27.95$

كتاب من أكثر الكتب اهتماما بتأريخ نشاط القاعدة، بدءا من الغزو الروسي لأفغانستان عام ١٩٧٩، والمساعدات الأمريكية والإسلامية العديدة لأفغانستان لمقاومة الغزو.

شكلت القاعدة عام ١٩٨٨ بقيادة أسامه بن لادن، وكانت أولى نقاط جدول أعمالها معاداة امريكا، بعد ذلك بعشرة أعوام. فجرت القاعدة سفارات أمريكا في أفريقيا والمدمرة كول.

الكاتب يمر بتاريخ القاعدة وعملياتها، ويتعرض إلى طريقة عمل الوكالات الأمنية الأمريكية في مكافحة الإرهاب، ويصل الكاتب إلى أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر ما كانت لتحدث لو تعاونت تلك الوكالات فيما بينها.



Without Precedent: The Inside Story of the 9/11 Commission

(بدون سوابق: قصة تقرير لجنة ١١/٩)

Thomas H. Kean, Lee H. Hamilton

Knopf, 2006, 384PP, 25.95$

تقرير لجنة الحادي عشر من سبتمبر كان مختلفا عن جميع المنشورات الحكومية الأمريكية، فقد جاء في لغة سهلة وطرح في الأسواق بصورة واسعة محققا مبيعات ضخمة.

الكتاب يتناول القصة حول تلك اللجنة، كيف تشكلت وكيف كانت تعمل، أعضاؤها وانتماءاتهم السياسية، ومدى تأثير ذلك على آرائهم داخل اللجنة، كما يتناول الكتاب معارك اللجنة مع الكونجرس ومحاولة وصولهم إلى الوثائق السرية.



Aftermath: Unseen 9/11 Photos by a New York City Cop

(آثار الكارثة)

John Botte

Regan Books. 2006, 224PP, 44.95$

في الذكرى الخامسة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر يصدر «جون بوت» كتابه المصور عن هذا اليوم، «بوت» كان شرطيا بمدينة نيويورك، كلف بعد الحادث بتوثيقه فوتوغرافيا، يقول «بوت» عن هذا اليوم: «أمضيت مع الآلاف الآخرين ممن فقدوا أحباءهم تلك الأيام، فقدت أصدقاء هناك، وكانت هذه الحادثة سببا لتقاعدي من مهنتي التي أحبها، فقد أصبت بربو رئة مزمن».

مع مائة وثلاثين صورة بالأبيض والأسود، ملحقين بتعليق من المصور، نرى الدمار الذي خلفته الحادثة، نرى تلال الرماد، والدخان في كل مكان، والناجين والفاقدين لأسرهم وأحبائهم.



Debunking 9/11 Myths: Why Conspiracy Theories Can't Stand Up to the Facts

(فضح أساطير ١١/٩)

David Dunbar , Brad Reagan

Hearst. 2006, 192PP, 12.98$

العديد من نظريات المؤامرة التي ظهرت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، حاولت إثبات تورط الحكومة الأمريكية في الأمر، سواء بالتواطؤ، أو حتى بتنفيذ تلك الأحداث. المؤلفون يرون أن تلك النظريات غير مستندة إلى دلائل ولا حتى أسباب منطقية.

المؤلفون يتعرضون إلى أكثر عشرين نظرية شيوعا بالنقد، مثل نظرية أن البنتاجون لم تضربه طائرة، أو أن انفجار الطائرتين في برجي التجارة لم يكونا السبب الرئيسي وراء انهيارهما.

يأتي النقد من خلال العديد من شهادات العلماء البارزين في الطيران والدفاع الجوي والهندسة والعسكريين.



America, Islam, and the War of Ideas Reflections in a Bloodshot Lens

(أمريكا، الإسلام وحرب الأفكار)

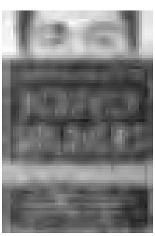
AWRENCE PINTAK

AUC Press. 2006, 384PP, 29.95$

الصحفي المخضرم ومراسل أخبار السي بي إس السابق «لورانس بينتاك» يتعرض في هذا الكتاب للاختلاف الأساسي في الفهم بين الأمريكان من جانب والمسلمين من جانب آخر، الذي يعتبره نتيجة طبيعية للانقسام الدائم منذ قرون والعلاقة التضادية السائدة.

يرى «بينتاك» أيضا أن الإعلام المُسيطر عليه من قبل أجهزة الدولة على الجانبين، كان سببا في تفاقم المشكلة. فالقادة والزعماء على الجانبين على السواء لا يعرفون أو لا يفهمون كيف تؤثر كلماتهم على مصير العالم بشكل عام على المدى الطويل.

الكتاب يستكشف كيف يصور الإسلام بوسائل الإعلام الأمريكية، وكيف تتعرض وسائل الإعلام العربية والإسلامية لأمريكا وسياستها، وكيف يؤدي سوء الفهم والتحريف الذي تقوم به وسائل إعلام الجانبين إلى كوارث كبرى.



Perfect Soldiers: The 9/11 Hijackers: Who They Were, Why They Did It

(جنود مثاليون)

Terry McDermott

Harper Paperbacks; Reprint edition, 2006, 368PP, 14.95$

«تيري ماك ديرموت» أمضى ثلاثة أعوام في دراسة شخصية منفذي أحداث الحادي عشر من سبتمبر، قابل خلالها العديد من أصدقائهم، وجمع العديد من الوثائق التي تشير إليهم، ليقوم بإخراج هذا الكتاب.

يبدأ الكاتب بنبذة سريعة حول القاعدة وكيفية نشأتها، متعرضا للشخصية المجاهدين الإسلاميين في حرب أفغانستان، ثم مدى التأثر الحادث في الشخصية الإسلامية والعربية نتيجة غزو العراق للكويت وتدخل القوات الدولية، والحصار الأمريكي للعراق.

جنود فدائيون، لم يكونوا يوما متطرفين دينيا، ولم يكونوا يوما فقراء، واشتاقوا على الموت، ورحبوا به، ودربوا من أجله. وقاموا بمهمتهم خير قيام. هذا ما يدور حوله الكتاب.



The War for Muslim Minds

(الحرب من أجل العقول الإسلامية)

GILLES KEPEL

Translated by Pascale Ghazaleh

AUC Press, 2006, 336PP, 24.95$

كان لتعطل عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية عام ٢٠٠٠ دور كبير في بداية دوامة العنف والدموية التي كان احد شواهدها أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وخاصة مع بداية الثورة المحافظة في الولايات المتحدة التي أدت إلى زعزعة السياسة الأمريكية الشرق أوسطية، التي اهتمت في تلك الفترة بالأمن الإسرائيلي، ونفط الخليج فقط.

كان لهذا أثره على الراديكاليين الإسلاميين الذين رأوا أن السياسة الأمريكية وصلت إلى الحد الذي يستوجب معه نقل ميدان العمل الإرهابي من الأراضي الإسلامية إلى الغرب فأعلن «بن لادن» ورفاقه الجهاد ضد أعدائهم عالميا.

«كيبيل» يتحرى، في هذا الكتاب، تأثير الإرهاب العالمي والعمليات العسكرية التي تتبعه، ويشكك بقدرة الولايات المتحدة على مواجهة هذا التحدي على طريقة خطابات الحرب الباردة، كما يقترح مخرجا لمستنقع الشرق الأوسط يخدم مصالح أطراف النزاع، الإسلاميين والغرب والنخبة العربية والإسلامية الحاكمة، محددا شروطا لقبول إسرائيل، ولتطبيق الديمقراطية في المجتمعات العربية والإسلامية، موصيا الغرب بمحاولة الفوز بقلوب وعقول المسلمين.

*



Forever After: New York City Teachers on 11/9

(دوما في الأثر)

Maureen Grolnick

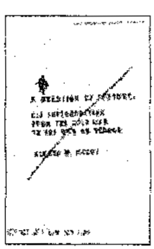
Teachers College Press, 2006, 253PP, 17.95$

لم يكن أكثر من ٨٥٠٠ طالب و٤٠٠ مدرس في ذلك الصباح، يعلمون أن حياتهم ستكون مهددة بعد ساعتين، وأنهم سيهرعون للنجاة بحياتهم.

«جرولنيك» يحكي قصصا لم تحك من قبل عن الوقائع التي حدثت بمدارس نيويورك بعد الحادث مباشرة، كيف شهدت بعض المدارس فوضى كبيرة، وكيف كان، على العكس، البعض الآخر منظما إلى درجة كبيرة.

من خلال سبع عشرة قصة يستعرض الكاتب ما حدث فعلا بمدارس نيويورك ذلك الصباح، ثم يعرض رأيه الشخصي حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر وكيف أثرت في حياة المعلمين.

*



Question of Torture : CIA A Interrogation, from the Cold War to the War on Terror

(سؤال عن التعذيب)

Alfred McCoy

Metropolitan Books, 2006, 304PP, 25.00$

أستاذ التاريخ بجامعة (ويسكنسن ماديسن) «ألفريد مكوي» يقيم محاكمة تخيلية لوكالة الاستخبارات المركزية (CIA) حول قضايا التعذيب وانتهاك حقوق الإنسان منذ الحرب الباردة وحتى الحرب على الإرهاب الدائرة الآن.

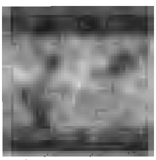
يكشف الكاتب عن تطور وسائل التعذيب النفسي والجسدي خلال الخمسين سنة الأخيرة، من الحرب الباردة إلى أبو غريب، وما بعده.

يري الكاتب أن الفضائح الأخيرة التي شهدها سجنا أبو غريب وجوانتانامو لم تكن نتيجة لانحرافات قلة، كما ادعى البيت الأبيض، وإنما هي نتيجة طبيعية وتطور منطقي للبرنامج التي تتبعه الولايات المتحدة في الاستجواب، المبني بشكل رئيسي على الحرمان الحسي والألم الذاتي الذي يشكل هجوما شاملا على أحاسيس الضحية مدمرا قاعدة الهوية الشخصية لديه، ولعل أقدم وأبسط الطرق في التعذيب في العالم تشكل جانبا هاما من ذلك البرنامج مثل العزلة وتغطية الرأس وإجبار السجناء على الوقوف لساعات وتعريضهم لدرجات حرارة حادة الارتفاع أو الانخفاض.

«مكوي» يتعقب تطور طرق التعذيب عبر السنين منذ حرب فيتنام مرورا بإيران وأمريكا الوسطى، وصولا إلى التطور الذي حدث بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وهو الذي شهد استعانة الولايات المتحدة بحلفائها من الدول محترفي التعذيب لانتزاع الاعترافات من المشتبه بهم والمتهمين.

يصل الكاتب في نهاية كتابه إلى استنتاج أن وسيلة التعذيب لا تصل إلى نتائج مرضية بعكس الوسائل القانونية العادية، فالاعترافات المنتزعة تحت وطأة التعذيب عديمة الجدوى، ناهيك عن الانتهاك الشديد لحقوق الإنسان الذي، ومن الواضح، انه لم يعد أمرا يوضع في الاعتبار لدى وكالة الاستخبارات المركزية (CIA).

*



Unembedded: Four Independent Photojournalists on the War in Iraq

(غير ملحق: أربعة مصورين صحفيين مستقلين في حرب العراق)

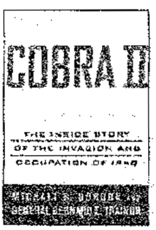
Thorne Anderson, Ghaith Abdul-Ahad, Kael Alford, Rita Leistner, Philip Jones Griffiths (Foreword), Phillip Robertson (Introduction)

Chelsea Green Publishing Company, 2006, 192PP, 29.95$

مجموعة من الصور التي تصف الحرب في العراق، أربعة مصورين صحفيين مستقلين يغطون الحرب، يلتقطون صورا نادرة وفريدة، لا يمكن أن تراها في وسائل الإعلام، تظهر الصور مدى بشاعة الحرب على الجانبين.

الكتاب صنف على انه ليس سياسيا، وإن كانت التعليقات على الصور تحمل الكثير من النقد للإدارة الأمريكية، والتشكيك في جدوى الحرب من الأساس.

*



Cobra II : The Inside Story of the Invasion and Occupation of Iraq

(كوبرا ٢: القصة الخفية لغزو العراق)

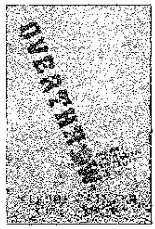
Michael R. Gordon, Bernard E. Trainor

Pantheon, 2006, 640PP, 27.95$

خلال الأعوام الماضية، ظهر العديد من الكتب والتقارير التي تتعرض لحرب العراق، وانتشرت التفسيرات المختلفة للحرب، وانقسم المتعرضون للحرب ما بين، مؤيد ومعارض، ولكن، وعلى الرغم من هذا كله، لم يجزم أحد بمعرفته القصة الخفية وراء الحرب على العراق.

كوبرا ٢ يجزم بمعرفة القصة الحقيقية، استراتيجيات الحرب، المعارك الفعلية، الأدوار الرئيسية التي لعبت، والشخصيات التي لعبتها، الدبلوماسية، والاحتلال. كتاب جديد مليء بالفضائح الجديدة.

*



Overthrow : America's Century of Regime Change from Hawaii to Iraq

(الإســـقاط)

Stephen Kinzer

Times Books, 2006, 400PP. 27.50$

للإدارة الأمريكية سوابق كثيرة على مدار القرن الماضي في تغيير أنظمة الحكم وإسقاطها حول العالم، بدأت تلك السياسة بهاواي عام ١٨٩٣ عندما تآمر البيت الأبيض مع الأقلية البيضاء بهاواي من أجل إسقاط حكم الملكة «ليليووكالاني»، كخطوة لضم الجزر وجعلها جزء من الولايات المتحدة الأمريكية.

تلا هاواي العديد من الدول الأخرى، فالولايات المتحدة أحبطت حركة الاستقلال في كوبا، بورتيريكو، الفلبين ونيكاراجوا، كما قامت بإخراج العديد من الحركات السرية والانقلابات في إيران، غواتيمالا، جنوب فيتنام، وتشيلي، كما غزت جرينادا، بنما، وبالطبع افغانستان والعراق. على مدى العقود الأحد عشر الماضية نشرت الولايات المتحدة قواتها في جميع أنحاء العالم، لتضع يدها على الموارد الطبيعية في العالم.

*



Insurgents, Terrorists, and Militias: The Warriors of Contemporary Combat

(متمردون، إرهابيون، ميليشيات: محاربو المعركة المعاصرة)

Richard H. Shultz, Andrea Dew

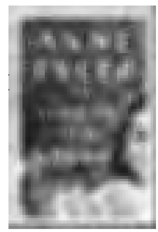
Columbia University Press, 2006, 328PP, 29.50$

طبيعة الحروب تغيرت بصورة كبيرة عما كانت عليه في العقود الأخيرة، ولعل أهم تلك التغييرات ظهور العديد من المجموعات المقاتلة غير الحكومية، والتي تستخدم تكتيكات متقدمة وجديدة لم تعهدها الجيوش النظامية من قبل.

المدرسان بأكاديمية الأمن العالمي «ريتشارد شالتز، وأندريا ديو» يؤكدان على ان عدم فهم هذه التغيرات في طبيعة الحروب يؤدي إلى نتائج وخيمة، ضاربين المثل بالحرب العراقية وكيف أدى عدم الفهم الأمريكي لطبيعة العراقيين وطريقتهم في المقاومة، إلى عواقب سيئة علي الجيش الأمريكي.

المؤلفان يستعرضان تاريخ الحروب والصراعات المسلحة بين قوات حكومية وأخرى غير حكومية خلال العقدين الماضيين، كحروب الصومال والشيشان وأفغانستان والعراق، التي واجهت فيها القوات الحكومية المدججة بالأسلحة المختلفة والمتطورة، صعوبات شديدة في مواجهة قوات غير حكومية، لا تملك من السلاح إلا الفتات.

*



Digging to America

(الحفر لأمريكا)

Anne Tyler

Knopf, 2006, 288PP, 24.95$

الرواية الجديدة لأني تايلر (الحفر لأمريكا) التي تدور حول اصطدام الثقافات في المجتمع الأمريكي، مع التركيز على أثرها في الحياة اليومية للأسرة الأمريكية الحديثة.

الرواية تدور حول تبني الزوجين الأمريكيين، «بيتسي وبراد دونالدسون» وسامي وزيبا يزدان، لفتاتين كوريتين صغيرتين.

يلتقي الزوجان في مطار بيلتيمور لأول مرة، حيث كانا بانتظار ابنتيهما بالتبني قادمتين من كوريا، ونظرا لعلاقة الابنتين القوية ببعضهما، تضطر الأسرتان إلي إنشاء علاقة تجمعهما.

القصة التي تدور أحداثها منذ وصول البنتين عام ١٩٩٧ إلى عام ٢٠٠٤، تجسد الصراع الثقافي والاصطدام الحضاري في المجتمع الأمريكي، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي اثرت على علاقة الأسرتين.

*

The Foreigner's Gift

(هدية الأجنبي)



Fouad Ajami

Free Press, 2006, 400PP, 26.00$

لم يكن أحد ليتوقع ما يحدث في العراق الآن، فسقوط صدام حسين إن كان أعطى لمحة للحرية التي حظي بها العراقيون، فهو أعطى أيضا حالة التشوش والفوضى التي تعاني منها العراق الآن. فالعنف والطائفية تتفجر في كل مكان في العراق.

لا يفهم أحد ماذا يحدث ولا تعرف إجابات لأسئلة كثيرة حول الوضع في العراق، «فؤاد العجمي» يبحث في العديد من تلك الأسئلة. ما مدى تأثير التاريخ العراقي على ما يحدث الآن؟، وما هي طبيعة العراق الطائفية؟ وما السيناريوهات المحتملة الحدوث في الفترة القادمة؟

الكاتب يستعرض الحروب العراقية الأخيرة، منتهيا بالحرب الأمريكية العراقية الدائرة حاليا، ويحاول تفسير ما يدور على الساحة الآن مستعينا بتاريخ العراق الممتد.

«فؤاد العجمي» قام بمقابلة العديد من الشخصيات العراقية خلال سنوات الحرب، وسجل آراءهم وأفكارهم حول الحرب ونتائجها وأسبابها، قابل العجمي رجال دين من السنة والشيعة وسياسيين أكرادا وأدباء وفنانين وعناصر من الشرطة والجيش، والعديد ممن يعتبرون مواطنين عاديين، كما سجل أيضا العجمي آراء بعض السياسيين الأمريكيين ومواطنين عاديين أمريكيين.

*



Armed Madhouse

(مستشفى المجانين المسلحة)

Greg Palast

Dutton Adult, 2006, 384PP, 25.95$

الاقتصادي وصحفي التحقيقات الأمريكي «جريج بلاست» يأتي بكتابه الجديد (مستشفى المجانين المسلحة) الذي ينتقد بسخرية لاذعة فيه السياسة الأمريكية.

الكاتب يعترف بعدم احترامه لجورج بوش، وهو يرى أن بوش سقط مرتين في الانتخابات الرئاسية الأمريكية وذلك نظرا لضعف الفارق بينه وبين منافسيه.

الكتاب يكاد يغطي كل المواضيع السياسية المثيرة للجدل بدءا من الحرب على الإرهاب وصولا إلي إعصار كاترينا، في نقد لاذع مبني، وبحكم خبرة المؤلف، على الحقائق الواضحة والأرقام الدالة.

*



Disinformation : 22 Media Myths That Undermine the War on Terror

(التشويش: ٢٢ أسطورة إعلامية قوضت الحرب ضد الإرهاب)

Richard Miniter

Regnery Publishing, 2005, 256PP, 27.95$

يواجه هذا الكتاب اثنتين وعشرين أسطورة حول الحرب على الإرهاب، تلك الأساطير روجتها وسائل الإعلام ويساعد الكثير من الناس في نشرها، المؤلف لم ينسب ترويج هذه الأساطير إلى النوايا

المسيئة كلها ولكنه يرى انه يجب نسيان كل شيء عن تلك الأساطير وتنحيتها جانبا إذا ما أراد الشعب الأمريكي معرفة حقيقة ما يواجهه في تلك الحرب.

تعرض الكاتب للأساطير جاء مثيرا للجدل في بعض الأحيان، فهو يرى أن هناك صلة بين صدام والقاعدة، كما يرى أن العراق كان يمتلك أسلحة الدمار الشامل ويدحض قوله ببعض الأدلة التي جمعها بنفسه من مصادر مختلفة.

يبدأ الكتاب بأربع أساطير عن بن لادن موضحا أن بن لادن لم يدرب من قبل المخابرات الأمريكية ولا مول منها، كما انه لا يملك هذا الكم من الثروة التي يعتقدها البعض، بالإضافة انه كان معروفا قبل أحداث سبتمبر وتحدثت عنه وسائل الإعلام قبلها.

ينتقل الكاتب إلى ثلاث أساطير حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي تقول أن الحكومة كانت عندها تحذيرات عدة حول بن لادن ونواياه، وبأن الموساد كان على علم بما سيحدث فحذر اليهود من الذهاب إلى أعمالهم في ذلك اليوم.

يتعرض الكاتب للعديد من الأساطير الأخرى حول العراق وأسلحة الدمار الشامل قائلا أن العراق كان يحتوي على أسلحة دمار شامل، كما يتعرض لأساطير حول مخاوف بيع السلاح النووي من قبل بعض دول الاتحاد السوفيتي السابق ويتعرض كذلك الى الإرهاب بوجه عام.

۞



Incendiary

(الاحـــــــراق)

Chris Cleave

Knopf, 2005, 256PP, 22.95$

هجوم للقاعدة على ملعب كرة قدم في لندن أثناء مباراة لفريق الأرسنال، وتفجير عدة قنابل به، الدمار ينتشر في كل أرجاء المكان، القتلى بالآلاف، بينهم أب وابنه ذو الأربعة أعوام، والأم تشاهد كل هذا الدمار مباشرة على التلفاز، لندن تتعرض للإرهاب الدولي، مشاعر غاضبة تجتاح الأم، لا تصدق ما حدث وتحاول الانتحار، الأم لا تجد شيئا لتفعله، سوى إرسال رسالة غاضبة إلى أسامة بن لادن.

الرواية تدرس تأثيرات العمليات الإرهابية على المجتمع ككل وعلى أهالي الضحايا، من وجهة نظر التعامل مع الصدمة العصبية التي تصاحب الحادث، وأيضا التعامل مع الصعاب التي تصاحبها فيما بعد.

۞



(الإرهاب: التشخيص والحلول)

عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيه

١٥٠ صفحة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥

الباحث «عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيه» يبحث في هذا الكتاب مدلول كلمة الإرهاب، باحثا في العديد من المعاجم العربية والأجنبية، ليصل الى تعريف شامل للإرهاب، فعلى سبيل المثال عرف معجم روبير الفرنسي الإرهاب بأنه تيار يتخذ الإجراءات الاستثنائية العنيفة بانتظام، للوصول الى أهداف سياسية، في حين أن معجم لاروس عرفه على انه جملة أعمال العنف التي ترتكبها منظمة من أجل خلق جو الرعب، أو من اجل قلب نظام الحكم.

المدقق في التعريفين يجد اختلافا شديدا بينهما، فلاروس ذكر أن الإرهاب يكون إما لخلق جو من الرعب، أو لقلب نظام الحكم، وهو هدف سياسي، بينما اشترط روبير وجود هدف سياسي في جميع الأحوال.

الإرهاب وتعريفه، هما محور الكتاب، ويختتم الكاتب بوضع بعض الحلول والمقترحات التي يراها تساعد على التخلص من الإرهاب تماما.

۞



(العرب وعالم ما بعد ١١ سبتمبر)

برهان غليون

١٢٣ صفحة، دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٥

ظن العالم أجمع انه بانتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتي، أن العالم سيبتعد لفترة عن المنازعات، وسيتحول إلى عالم متعدد الأقطاب، مما يحقق فرصا أفضل للتنمية، ولكن قيام النظام العالمي الجديد المعتمد على وجود قطب أوحد، كان خيبة أمل كبيرة، فالولايات المتحدة وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، اتخذت الحرب على الإرهاب ذريعة لفرض هذا النظام، فقامت باحتلال أفغانستان ثم العراق، وتمادت في تهديد كوريا الشمالية وإيران وسوريا، مثبتة سيطرتها، وفارضة سطوتها.

الكاتب يتساءل عن دور العالم العربي من هذا كله وخاصة أنه يقع في المنطقة الأكثر اشتعالا في العالم، ومهددا بأخطار عديدة نتجت عن السطوة الأمريكية، وتفردها في النظام العلمي الجديد، ترى هل يستطيع العالم العربي لعب دور فعال فيما يحدث، وهل يستطيع أن يفرض سيطرة ما في هذا العالم الجديد؟

۞



(الإسلام في عالم متغير: سياسات الإصلاح السياسي بعد ١١ أيلول)

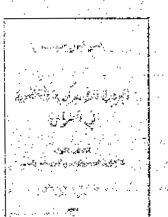
مجموعة مؤلفين

١٦٨ صفحة، دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٥

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، اختلف شكل العالم، واختلفت النظرة الغربية للإسلام، وأفرزت العديد من الإشكاليات والتحديات التي واجهت العالم الإسلامي، وظهر ولأول مرة انتقادات للخطاب الديني، كما أثيرت قضايا عديدة تتعلق بالإرهاب وخلفياته، وأسبابه الحقيقية، مما دفع إلى المناداة بالإصلاح السياسي، الذي يضمن نوعا من الحرية السياسية يكون من شأنها تقليل التطرف.

العالم الإسلامي والإصلاح السياسي المطلوب والمفروض، إشكاليات الديمقراطية وحقوق الإنسان والمدنية، والتعارض بين القيم الإسلامية والغربية، مواضيع شائكة يخوض الكتاب في تحليلها ودراستها.

۞



(الجريمة الأمريكية المنظمة في العراق)

حسن خليل غريب

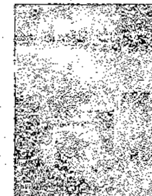
٨٢٢ صفحة، دار الطليعة للطباعة والنشر، ٢٠٠٦

في ثلاثة أجزاء يوضح لنا الكاتب «حسن خليل غريب» منهجية الجريمة الأمريكية المنظمة في العراق، الجزء الأول بعنوان (التكوين الأيديولوجي والنهج السياسي)، يستعرض فيه الكاتب التاريخ العدواني للولايات المتحدة الأمريكية، مثبتا كونها الأشد دموية وعدوانية عبر التاريخ الإنساني كله، فتاريخها لا يخلو من العدوانية والدموية، بل وإن قيام الدولة الأمريكية كان على دماء الهنود الحمر، وتاريخها الحالي مليء بدماء الأفغانيين والعراقيين.

الجزء الثاني من الكتاب جاء بعنوان (وحشية الممارسة والتطبيق) يقدم فيه الكاتب وصفا للوحشية الأمريكية في المعتقلات سواء داخل الأراضي الأمريكية أو خارجها، وخاصة بسجون العراق، ويتحدث الكاتب عن الممارسات الأمريكية بشأن العراقيين.

(أمام قوس المحكمة الجنائية الدولية) هو عنوان الجزء الثالث الذي يتحدث فيه الكاتب عن محاكمة الرئيس العراقي صدام حسين أمام محكمة عينت بواسطة الاحتلال. وهو ما يراه الكاتب كان سببا في انقسام المحامين المتطوعين إلى قسمين، قسم يرى أنه لا يجوز لهم الترافع أمام محكمة غير شرعية؛ لأن هذا من شأنه الاعتراف الضمني بشرعية الاحتلال، وقسم يرى أنه لابد من الترافع لفضح عدم شرعية المحاكمة.

*



(العالم في عصر الإرهاب)

توماس فريدمان، ترجمة، تحقيق: محمد طعيم
٢٩٩ صفحة، منشورات الجمل، ٢٠٠٦

الكاتب، توماس فريدمان، محرر قسم الشئون الدولية لجريدة «نيويورك تايمز» في محاولة وصفها بالتدوينية، يحاول في هذا الكتاب فهم ما حدث بالفعل يوم الحادي عشر من سبتمبر، وفهم دوافع منفذي الحادث التسعة عشر، وفهم أسباب الفرحة ونشوة الانتصار التي جابت أنحاء العالم العربي والإسلامي، يقول «فريدمان»: إنه إن لم تستطع الأمة الإجابة عن تلك الأسئلة، فهي حتما في خطر كبير.

الكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات نشرت في أوقات مختلفة، جزء منها نشر قبل الحادي عشر من سبتمبر، ويهدف الكاتب من وضع تلك المقالات في الكتاب إلى المساعدة على التحليل السليم لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، ثم يحتوي الكتاب على معظم مقالات الكاتب في الفترة من سبتمبر عام ٢٠٠١ إلى ابريل ٢٠٠٣.

الكتاب يحتوي على مذكرات الكاتب التي جمعها خلال رحلته للعالم العربي والإسلامي التي قام بها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر مباشرة.

*

(العالم الإسلامي وتحديات ١١ سبتمبر)

د. محمد بشاري
٢٠٨ صفحة، دار الفكر، ٢٠٠٦

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ظهرت العديد من المبادرات الأمريكية والأوروبية من أجل نشر الديمقراطية وتبني حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية والشفافية واقتصاد السوق وما إلى ذلك، ومن أشهر تلك المبادرات والتقارير مشروع الشرق الأوسط الكبير، ومبادرة منتدى المستقبل، ومشروع الإسلام المدني الديمقراطي، والمبادرة الألمانية الدنمركية.

الكاتب يتناول تلك المبادرات والتقارير بالتحليل والنقد، مطلقا تساؤل حول مرجعيات تلك المبادرات والهدف الحقيقي من ورائها، منتقلا إلى تحديات العولمة الجديدة التي تواجه العالم الإسلامي، ومنها تحديات التنمية الاقتصادية.

في نهاية كتابه يتعرض الكاتب إلى الأقليات المسلمة في الدول الأوروبية وأمريكا والتحديات التي تواجهها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتفجيرات لندن ومدريد، متعرضا إلى مسألة الحفاظ على الهوية والاندماج في المجتمعات الجديدة.

*

من البيزنس إلى الإرهاب



أسامة

جوناثان راندل
القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٦

كيف يتسنى لمليونير سعودي فرد في أواسط عمره أن يهدد القوة العظمى الوحيدة في العالم؟ هذا هو محور السؤال في رواية جوناثان راندل الأخاذة حول دور أسامة بن لادن في الشرق الأوسط والعالم.

ويقول المؤلف: «أمضيت أياما، بعد الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١، أتساءل عما إذا كان أسامة بن لادن قد جلس، كما العالم من أقصاه إلى أقصاه، يشاهد تلك الصور الحية لطائرات ملأى بالوقود خطفها طيارون انتحاريون مع أتباعهم وهي تخترق البنتاجون (مبنى وزارة الدفاع الأمريكية) وبرجي مانهاتن التوأمين حيث مركز التجارة العالمي. لأسباب لا أزال حائرا في إدراكها يبدو لي، بالنسبة إلى ١١/٩، كما باتت تعرف تلك الهجمات، أن كل شيء آخر كان خاضعاً لتلك الإمكانية. لعله في سنوات ماضية، وفي حصنه المحفور في أعالي جبال «هندوكوش» الأفغانية، راح يشبع رغباته كرجل ثري يتمتع بسحر الوسائل والأدوات الحديثة ويستمد بهجته من أن يعرض أمام زواره أحدث ما عرفته أسواق الكمبيوتر والهواتف الخلوية والصحون اللاقطة وسواها من أدوات التكنولوجيا الحديثة. تراه بات يتمتع الآن بفن تقليد الحياة وباستعادة عروض الابتذال الهوليوودية لأفلام الرعب على كمال بشاعتها، من الأجسام البشرية الساقطة من الأعالي إلى الســنة اللهب الهائج والأبنية المتفجرة من داخلها، إلى الأبطال من رجال الإطفاء يقتحمون أدراج تلك الأبنية لإنقاذ حتفهم؟ هل أخذ يرتاح إلى بدعة يشاهد فيها مسافرين يواجهون بين الأرض والسماء، قدرا محتوما، يشرحون عبر أحدث الهواتف الخلوية رحلتهم إلى الموت في حين يحاول مسافرون آخرون من طينة الأبطال أن يربكوا خاطفيهم ويستعجلوهم إلى ارتكاب الأخطاء مصممين على أن يحرفوا طائرتهم، التي تحولت صاروخا مدمرا، عن أن تصيب هدفا وترفع حصيلة التدمير؟

لم أحسب في تلك الأونة أن لهذه التساؤلات أجوبة واضحة وحاسمة، ذلك أنني غصت في بحر من التكهنات لكنها تكهنات مبنية على أكثر من سنتين من المحاولات اليائسة في سبيل فهم أسامة. شعرت أنه، قياسا بماضيه، يمكن أن يوافق، بل أن يزعم أنه أوحى بعملية عنف بهذا الحجم المذهل تحفر له موقعاً في سجل الإرهاب. لكن دون أن يعترف بأنه أمر بها أو خطط لها. والأهم من ذلك عدم اعترافه بأي دور في إدارتها وتنفيذها. هذه الطريقة المخادعة وغير المباشرة كانت قد أصبحت سلوكًا مألوفًا لديه منذ عقد من السنين تقريباً. وقد أهله للإيحاء بأن يده تمتد إلى زوايا الأرض الأربع حتى كان أشبه بالمستحيل، في ضوء أي مقياس منطقي، الربط بصورة حاسمة بينه وبين أعمال الإرهاب المتراكمة عند عتبة بابه. كذلك فإن هذا السلوك قد أبعده، على الأقل في حسابه، عن الأعمال الإرهابية التي تظلمها هو بالثمن».

تمتد خبرة المؤلف الصحفية بالشرق الأوسط على مدى أربعين سنة، وقد أوضح لنا في كتابه هذا كيف تختصر حياة أسامة بن لادن الصدام الحتمي بين إسلام القرن الحادي والعشرين والغرب، واصفا رحلة ابتعاده عن الغرب، وعن «مملكة النفط» السعودية التي تشكل عائلته جزءا لا يتجزأ منها.

يستعرض المؤلف نشاط أسامة قبل الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١، ويرى في شخصيته نموذجا جديدا غير مسبوق في التاريخ المعاصر: رجل أعمال مستقل ذو ثروة، ينتشر أتباعه في أرجاء العالم.

يستكشف راندل ما عرضه أسامة على السعوديين من أن تتولى قوات «القاعدة» إخراج صدام حسين من الكويت في العام ١٩٩١، وبعد أن يقتفي مصادر أسامة المالية ومعارجها إليه، يعود ليخبرنا كيف تحولت حرب العراق إلى أداة في أيدي أتباعه.

ينبثق نص راندل من مصادره الموثوق بها في الشرق الأوسط وفهمه العميق لهذه المنطقة، وهو الأنقى والأوضح من أي نص قرأناه لكل التساؤلات المحيطة بشخص يشكل أبرز بؤرة رعب في العالم.

وقد ولد جوناثان راندل في العام ١٩٣٣ في بافالو، من ولاية نيويورك، وتلقى علومه في «إكزتر» و«هارفارد»، خدم جنديا في الجيش الأمريكي في أوروبا، وبدأ العمل مراسلا صحفيا في أواسط الخمسينيات في باريس، ومن ثم عمل مع وكالة يونايتد برس وباريس هيرالد ومجلة تايم وصحيفة نيويورك تايمز، ثم انتهى به الأمر إلى العمل على مدى ثلاثين عاما تقريبا مراسلا لصحيفة واشنطن بوست. غطى حرب الاستقلال الجزائرية، ومن بعدها حروبا وأزمات عديدة شملت الكونغو وفيتنام وإيران ولبنان وكردستان والبوسنة وليبيريا وغيرها من النزاعات.

يحيى الرخاوى

همسة عند الفجر

تشكيلات الموت والحياة



الموت لا يجهز على الحياة والا أجهز على نفسه

نجيب محفوظ
من ملحمة الحرافيش:
(ص ٦٦)

تسير وأنا فى مقدمتها أسير حاملا كاسا كبيرة مترعة برحيق الحياة. فى مرحلة حاسمة من العمر. عندما تنسم بى الحب ذروة الحيرة والشوق، همس فى أذنى صوت عند الفجر.

«هنيئا لك فقد حم الوداع»

وأغمضت عينى من التأثر فرأيت جنازتى

همسة عند الفجر

نجيب محفوظ أصداء السيرة الذاتية (فقرة ٥٨)

«قالت لى الغمامة: سامحى

وقال الليل: سأغيب فى الفجر المضطرم

وقال الألم: سألوذ بصمت عميق كآثار خطاه

وأجابت حياتى: سأموت وأنا فى منتهى الكمال

وقالت الأرض: إن أنوارى تلثم أفكارك فى كل لحظة

وقال الحب: وتمضى الأيام ولكننى أنتظرك

وقال الموت: سأقود زورق حياتك عبر البحر»

طاغور

لا أشك فى أن شيخنا قد اختار الموت راضيا حين شاء الله تعالى أن يختاره إلى جواره بعد أن هيأ ربنا الظروف لذلك، كما أننى لم أشك أنه اختار الحياة طول الوقت، حتى لحظة اختياره الموت، اختار الحياة ليس بمعنى الاستمرار على ظهر هذه الأرض كائنا بشريا جسديا متحركا حاضرا..فحسب، ولكنه اختارها أكثر: كيانا فاعلا مبدعا جميلا مضيفا بما تيسر مهما نضبت الموارد وضعفت الأدوات. وحين تيقن أن الله تعالى قد أراد أن يجعل الأدوات أضعف حتى العجز، والمجال أضيق حتى الاختناق، اختار شيخنا أن يقولها بملء وعيه أن «كفى». لم يكن اختيار الحياة بديلا عن اختيار الموت، كان اختياراً متداخلا، متكاملا مكملاً. حين آن الأوان: قالها شيخنا بملء وعيه أن: «كفى»، ومضى إليه راضيا مرضيا، ومع يقينى أن هذا حقه بلا منازع، فقد رحت أعاتبه: «لم قُلتَها شيخى: «كفى» ؟ لِمَ قُلتَها الآن ونحن فى أشد الحاجة إليك؟ لم قلتها أصلا ؟ لم وافقت؟ لم تركتنا ؟ ولم أكن أعرف أنه ترك لى الرد مسبقا واضحا جليا فى أغلب أعماله حتى آخرها، «أحلام فترة النقاهة»، ومن قبلها «أصداء السيرة الذاتية».

لم يتمنَ محفوظ الموت الاختفاء/العدم لحظة واحدة، لكنه رحب بالموت الرحيل الجسدي حين يحل أوانه: طول الوقت

فرانسوا ميتران:

لكن ثمة حكاية تستأهل الحكى قبل المضى فى عرض بعض ردوده تلك:

اتذكر أننى فى أوائل معرفتى الحميمة به شخصيا، كان الرئيس فرانسوا متران يقترب من الموت بعد أن أصيب بالسرطان وتأكد من قرب النهاية، سأله أحد الصحفيين بعشم (أو وقاحة) عن توقعاته بعد الموت، وعن مدى إيمانه أو رغبته فى الجنة. فأجاب دون استهانة وبكل شجاعة، أجاب بما تيسر له، ومن ذلك أنه يرى أن الخلود فى الجنة بلا نهاية هو أمر يدعو للملل، نقلت للأستاذ هذا التصريح متعجبا، وربما مُعجبا بشجاعة متران ومساحة الحرية التى تسمح بمثل هذا التصريح، أطرق الأستاذ رأسه ليس قليلا، وقد عودنا أنه حين يفعل ذلك فهو يُعمل فكره دون التزام بالرد. صمتُ منتظرا، وطال الانتظار ثم نبهته بكل العشم أنى أحتاج إلى تعليقه: قال: «أنا لا أوافقه»، قلت له «ألم تلاحظ شجاعته حتى لو اختلفنا معه؟ ألسنا نفتقد إلى هذه المساحة من الحرية التى يتحركون فى إطارها بلا سقف يقزِّمهم؟» قال: «ليكن، لكنك تسأل عن رأيى فيما قال، لا عن ما أتاح له إبداء رأيه». انتبهت إلى دقة انتباهه، ووافقته، ثم أردفت أننى ما زلت أنتظر تعليقه على تصريح «ميتران»، قال بعد قليل: أنا لا أوافقه. اسمع يا سيدى: أنت حين تحب شخصا ألاَ تكون حريصا على البقاء معه أطول مدة ممكنة؟ قلت نعم. قال: هل يمكن أن يخطر ببالك ما هو ملل وأنت تحبه فعلا؟ قلت: لا، قال، فإذا كنت تحب الله سبحانه، فهل تشبع من قربه مهما امتد الزمن بلا نهاية، أم أنك تزداد فرحة وتجددا طول الوقت؟»

صمت شاكرا، فاهما، متعجبا، متأملا داعيا

نعاهدك ألا تموت بما تركت فينا:

كان هذا الحديث، على ما أذكر، قبيل وفاة ميتران (٨ يناير ١٩٩٦)، رحت أتأمل يقين شيخنا من حبه لله ورغبته فى البقاء إلى جواره، يدور فى فلكه إلى أبد الآبدين، لم يخالجنى أدنى شك فى موقفه هذا طوال معرفتى له بهذا القرب، وحتى قبل معرفتى الوثيقة تلك قبل أن ألقاه، كان قد وصلنى هذا الموقف، تماما وقد سجلته منشورا[1] بمجرد أن بلغنى حادث الاغتيال كتبت آنذاك أخاطبه قائلا»..تصورتُ أننى شاب من هؤلاء المخدوعين أتابع ما جرى لك , وأعايش موقفك , وأفهم أقوالك , فأفاجأ بك تدعو لى أنا القاتل أو المتربص للقتل , تدعو لى بالهداية , هل أستطيع بالله عليك إلا أن أقول «آمين» , وحين أهتدى بك شيخنا سوف أعرف الله الذى أردت أن تُعَرِّفَنى به طول عمرك على مسار إبداعك...» إلى أن قلت:

«يا شيخنا: مازلنا فى حاجة إلى بقائك بيننا.... ربنا يخليك لنا ولهم، وإن تَمُتْ - بإذن ربنا , لا بمديتهم - فنعاهدك ألا تموت بما تركت فينا ولنا».

مضى على استجابة هذا الدعاء إثنى عشر عاما، ثم اختاره ربنا، وبالتالى آن الأوان أن نفى بما تعهدنا به:... «لا يموت بما ترك فينا ولنا».



علمني الدهر

قبل ذلك بعام إلا قليلا نشر محفوظ في الأهرام قصة قصيرة بعد أن غير الأهرام عنوانها دون استئذانه - كما أخبرني !!- حتى أصبح عنوانا ضحلا هو «علمني الدهر»[٢]، وصلني منها أن شيخي يعد نفسه «بهدوء» للرحيل؛ وإن استغرق ذلك أكثر من اثنى عشر عاما.

تبدأ القصة القصيرة هكذا:

«آن لنا أن نرحل»

«.... نصح الطبيب بذلك وإذا نصح الطبيب وجبت الطاعة ، كانت إقامة طيبة ، وشقة أنيقة».

ثم تمضي القصة في اتجاه أن الساكن الجديد الذي سيحل محل الراحل هو أولى بالمسكن، إلى آخر ما يشير إلى أن البقاء هو للأكثر فتوة، وأوفر شبابا وأصغر سنا.

لكن يشوب بقية القصة تخوف الراحل من النسيان، وفتور العواطف، الأمر الذي أتعجب كيف خطر لشيخنا أصلا، وعلى قدر رضا هذا الساكن القديم بالرحيل: كان الساكن الجديد موهوما بالدوام حين قال لصاحبة المنزل:

-...... لتكن إقامة دائمة بإذن الله

فقالت له بثقة: ما أقام عندي ساكن وفكر في هجر بيتي.

ويعترف الراوي (الراحل) أنه فعلاً لم يفكر في هجر البيت، إنما الذي قرر الرحيل هو الطبيب، فهو يقول:

«هذا حق» ثم يضيف:

«ولكن ما العمل إذا نصح الطبيب!...»

«وثمة عتاب يا ست الستات: كنت عندك فرخة بكشك حتى حل بي المرض».

وحين صعد إلى القطار، أعلن رضاه بقوله (في باطنه):

- من الإنصاف أن أذكر أنها إقامة جميلة وأنها تستحق الشكر.

انتهت القصة القصيرة.

قال محفوظ كل ذلك حتى قبل الحادث، (سنة ١٩٩٣)

الاستلهام قبل التأبين، والنقد قبل التمجيد

فهل حدث بعد ثلاث عشرة سنة شيء آخر؟ وهل نتنبه إلى احتمال تخوفه من أن ننسى ما ترك فينا بعد رحيله؟ لا أظن، فكل ما بلغني مما يجرى حولي حالا يقول إن التكريم، والتأبين، والتمجيد، كل ذلك يجرى على قدم وساق، بكل معاني ومظاهر الوفاء الجاد، وضد كل التخوفات التي جاءت بالقصة. لكن لثقتي في حدس شيخي كتبت للجنة المكلفة بكل هذه المهام، والتي تقوم بها خير قيام، كتبت تحفظاتي على الاكتفاء بالتخليد دون الامتداد، وبالتأبين دون الاستلهام، وبالتمجيد دون مواصلة النقد والابداع.

كيف أحب محفوظ الموت وهو يحمل كل هذا الحب للحياة؟

لم يتمن محفوظ الموت الاختفاء/ العدم لحظة واحدة. لكنه رحب بالموت الرحيل الجسدي حين يحل أوانه: طول الوقت.

من أكثر الأعمال النقدية التي لا أتردد في الفخر بكتابتها هو ما جاء بالجزء الأول من نقدي لملحمة الحرافيش الذي صدر في أكثر من موقع منذ سنة ١٩٩٠؛ وقد كان بعنوان دورات الحياة، وضلال الخلود: ملحمة الموت، والتخلق في الحرافيش[٣]

يقول محفوظ في الملحمة (ص ٦٤):

«الموت لا يجهز على الحياة، وإلا أجهز على نفسه».

حاولت في نقدي هذا أن أبين كيف كان الوعي بالموت، الموت الامتداد، الموت الهارموني الأكبر، هو المحور الأساسي للملحمة، التي تجلى فيها كل من الإيقاع الحيوي، وإعادة الولادة، المرة تلو المرة، كأروع ما يكون التجلي، كما تعرى وهم الخلود على هذه الأرض، حتى ظهر أنه العدم الخامد، أي الموت الذي نخافه جميعا.

وصلني من الملحمة - ومن غيرها - كيف أن التوليف الجدلي بين الموت والحياة هو أصعب مراحل جدل الوجود.

الطفل يعرف الموت أفضل:

منذ ذلك الحين رحت أحاول التعرف على الموت من خلال إبداعات متعددة، حتى تحددت معالمه لي أثناء نقدي بعض حكايات هانز كريستيان أندرسون الخرافية للأطفال. اكتشفت: في قصة «بائعة أعواد الكبريت الصغيرة» كيف يرسم أندرسون موت الصغيرة على الوجه التالي:

صاحت الصغيرة: جدتي خذيني معك، أعلم بأنك ستختفين عندما ينطفئ عود الكبريت، ستختفين مثل الموقد الدافئ، مثل البطة الشهية وشجرة عيد الميلاد المباركة، ثم أسرعت بتحطيم عيدان الكبريت الباقية في الحزمة تلو الآخر. كانت تود بشدة أن تبقى جدتها، أضاءت عيدان الكبريت ببريق أصفى من ضوء النهار، لم تكن جدتها في يوم أحلى وأكبر منها الآن، حملت الجدة الفتاة الصغيرة بين ذراعيها وطارا بألق وفرح عاليا، عاليا جدا، حيث لا برد ولا جوع ولا خوف: كانا عند الله.

علمني أندرسون من خلال هذه القصة حتى النهاية كيف يمكن أن تكون النقلة هادئة بين الحياة والموت، إلى الله سبحانه.. كل ذلك ووعينا يضيء المرة تلو المرة في نعومة حانية، وألم جميل، بما يجعلنا أقرب إلى أنفسنا، وإلى خالقنا ورحمته، وبما يجعل الموت هو القريب البعيد، هو الذي نختشاه بقدر ما ننتظره، هو الطريق إليه ونحن نعيش واقعنا نجمع بين قسوة الفقر، وقرص الحرمان، ونداء الطبيعة، وفرحة الأمل، وقوة الخيال، في نفس الوقت.

في قصة أخرى لأندرسون للأطفال أيضا بعنوان «قصة أم» يتجسد الموت الذي خطف الصغير من أمه الثكلى في شكل شيخ غريب، فتهيم الأم على وجهها نائحة باحثة لتسترد ابنها المخطوف، وفي سبيل ذلك تضحي بكل شيء تعطيه لمن تقابله، وما تقابله، في مقابل أن يدلها على أين ذهب الشيخ (الموت) بابنها: تضحي بعينيها فلا تعود تبصر، وبلسانها و.و... الخ، حتى تصل إلى «مشتل الموت» فإذا بالموت ليس عدما بل مشتلا انتقل فيه الراحلون إلى زهور واعدة بما لا نعرف، وتنتهي القصة بأن ترضى الأم أن تتنازل عن إصرارها على استرجاع ابنها حيا، وتسلم ابنها زهرة بين الزهور في مشتل الموت، زهرة تنتظر قدرها وتقبله: إنها تتنازل عن محاولتها استرداد طفلها قائلة للموت: «... إحمله، إحمله بعيدا إلى ملكوت الله، إنس دموعي، إنس دعواتي».

يتعجب الموت (الشيخ) قائلا: «لا أفهمك، ألا تريدين طفلك، أتريدنني أن آخذه إلى هناك، حيث لا تعلمين»؟

ترد الأم: لا تسمعني حين أسألك بخلاف مشيئتك، التي هي المثلى، لاتسمعني لا تسمعني، وحنت رأسها إلى الأسفل إلى حضنها؛ ومشى الموت بابنها إلى البلاد المجهولة.

رثاء عاتب

لم أستطع أن أقف موقف هذه الأم الجميلة من رحيل شيخنا الجميل، الأم تعرفت على مشتل الموت بهذه الشجاعة والسهولة ورفضت استرجاع ابنها بعد أن اطمأنت عليه، لكنني رحت أعاتب شيخي أنه رحل دون استئذاننا . بل إنني رحت أطالبه أن يوقف الزمن، مع أنه القائل على لسان شمس الدين الناجي في ملحمة الحرافيش (ص ١٢٧): «إن هدم زفة مسلحة أيسر ألف مرة من صد ثانية بما لا يقاس......»

إبداع متواصل:

لم يحل أي حدث أو إعاقة أو صعوبة أو عجز دون أن يواصل شيخنا إبداعه حتى آخر لحظة، وأحسب أنه لن يطمئن إلى أننا لن ننساه إلا إذا واصلنا بدورنا مسئولية الإبداع عامة طول الوقت، طول الدهر، هذا هو ما يجنبنا تحقيق مخاوفه التي بدت متشائمة في «علمني الدهر».

عرفت نجيب محفوظ شخصيا قريبا حبيبا وشيخا رائدا منذ اثنى عشر عاما (بعد حادث الاعتداء عليه)، عرفته وقد نجا من موت محقق، لأن الله كتب له النجاة بشكل معجز، انتبهت من أول لحظة إلى كيف أن إرادة الحياة كانت ومازالت لديه متدفقة غامرة، حدث ذلك من أول زيارة له في مستشفى الشرطة بعد الحادث، فهدتني إرادته تلك إلى أن أكون عونا في أن يستمر في الحياة كما أرادها له ربنا، فوفقنا الله أن يخرج بانتظام إليها - الحياة - برغم كل الصعوبات، والإعاقات، والمقاومة المحبة ممن حوله خوفا عليه وحرصا على سلامته. راح شيخنا يمارس حب الحياة كما كان دائما، ولو لم يتبق له من أدواتها إلا بعض ضبيص سمع، وبعض بصيص بصر، وما تيسر من «شخبطة يد»، ثم جسد كالطيف يتنقل به بكل ثقة وإصرار كل يوم، كل يوم، كل يوم، بلا استثناء أو توقف إلا للشديد القوي!. صنع محفوظ من أصدقائه ومن ترتيب أيامه واقعا جديدا من الناس، فقد كانوا دائما

اسمع يا سيدي: أنت حين تحب شخصا ألا تكون حريصا على البقاء معه أطول مدة ممكنة؟ قلت نعم. قال: هل يمكن أن يخطر ببالك ما هو ملل وأنت تحبه فعلا؟ قلت: لا. قال: فإذا كنت تحب الله سبحانه، فهل تشبع من قربه مهما امتد الزمن بلا نهاية؟

غناء وجوده، فراح يمارس، بتلقائية رائعة ما أسميته الإبداع الحيوى المباشر، أو «إبداع حى- حى» (قياسا على صواريخ: أرض - أرض) اكتشفت أنه بحضوره بيننا، مع تواضع وسائل تواصله، يعيد تشكيل وعينا بشكل مباشر دون حاجة إلى أن يسجله فى رمز مكتوب أو نص مقروء.

فى أصداء السيرة الذاتية يقول نجيب محفوظ:

«... تذكرت كلمات بسيطة، لا وزن لها فى ذاتها، مثل «أنت» «فيم تفكر» «طيب» «يالك من ماكر»... ولكن لسحرها الغريب الغامض جن أناس، وثمل آخرون بسعادة لا توصف».

تحقق لى من خلال هذا التشكيل البشرى اليومى لوعينا من حوله: ذلك الفرض الذى طالما شغلنى، وهو: إن الحياة الحقيقية هى الإبداع الحقيقى؛ قبل وبدون أى ناتج إبداعى آخر خارج عن ذات صاحبه.

الإبداع بالمشاركة الحية:

رحت أتأمل اختراقه لكل ما أصابنا إذ أصابه، رحت أتابعه وهو يروض القدر بفعل هادئ طيب صبور، ساعة بعد ساعة، يوما بعد يوم. جلسة بعد صحبة. حديثا بعد نكتة، فعايشته وعايشته وهو يبنى معمارا جديدا من وعى المحيطين بحركية وعيه النافذة لتتجدد من خلال هذه اللقاءات المنتظمة.

ما وصلنى من معايشتى تلك ما بين لقاءاتنا به فى جلسات مفتوحة، أو حرفشة خاصة، هو أن ثمة مقاييس للإبداع: مثل أن يخرج الواحد منا – من جلسته – غير ما دخل، أو أن يكتشف الواحد منا – وهو يتحدث إليه – غير ما قصد، أو أن يتذوق الواحد منا طعم الهواء الداخل إلى صدره غير ما ألف، كل ذلك من واقع هذه المعايشة البسيطة الصادقة العميقة، إذ راح شيخنا يقرؤنا ويكتبنا ثم يعيد كتابتنا دون أن يخط حرفا واحدا على الورق، وهو لا يكتفى بهذا: بل يسمح لنا أن نعيد قراءته واستقبالنا له. أى خبرة وأى تجربة!!!

حل آخر: إبداع الأحلام:

بعد أن انتصر شيخنا بالتدريب اليومى المعجزة على عجزه عن الكتابة، لم يكتف بإبداع وعينا بهذا الحضور المباشر، فراح يعايش عالم أحلامه كواقع بديل، ثم استطاع أن يرغم مفردات واقع الحلم أن تبقى معه بعد استيقاظه، لتمثل له الأبجدية التى يصوغ منها إبداعه الجديد. كنا نسأله بين الحين والحين عن احتمال عودته إلى الكتابة، فيحسست، ثم إذا به ذات يوم يخبرنا بفرحة طفلية بديعة أن ثمة «نغبشة» بدأت تراود دماغه: ثم تصدر الإرهاصات الأولى، موجزة «مشخبطة»، ثم هات يا إبداع غير مسبوق لنا أسماه أحلام فترة النقاهة وخذ عندك: معجزة جديدة بعد الأصداء.

تشكيلات الموت فى الأحلام

عاودت قراءة أحلام النقاهة مجتمعة بعد رحيله، ووصلنى بعض الرد على عتابى له راقيا، وأيضا على التساؤلات التى سألها الناس عن «كيف أحب محفوظ الموت» لكن فى نفس الوقت- بالمصادفة – كان قد اصدر المجلس الأعلى للثقافة كتابى فى نقد الأصداء «أصداء الأصداء»[1].

فمررت فيه فإذا بتجليات الموت تمثل محورا أساسيا قدرت أن يكون الفصل الأول فى الجزء الثانى من الدراسة الطولية النقدية للأصداء، لكننى اكتفى هنا بمرور فى الأحلام.

هكذا أجابنى محفوظ عن كل ما تساءلت عنه بعد رحليه وكأنه كان يعلم جزعى واحتجاجى.

رفع الحواجز بين مستويات الوعى

أن نتعرف على الموت، وما بعده واقعاً ملموساً متحققاً، هو المستحيل بعينه. المبدع الحقيقى يستطيع أن يستشرف بعض ذلك، دون يقين مطلق. ومثلما أراد أفلاطون فى جمهوريته أن يعلمنا ماهية النفس الإنسانية، فكبرها بمجهر إبداعه حتى صارت جمهورية كاملة؛ فإن محفوظ اخترق الحواجز بين وعى الحلم ووعى اليقظة ليعرف ويتعرف. ولعله يعرفنا، ماذا هناك على الجانب الآخر (بما فى ذلك الموت): النوم موت أصغر، والحلم حركية مرنة زاخرة تتشكل بداخل هذا الموت الأصغر. واليقظة إحياء بعد الموت (الحمد لله الذى أحيانى بعدما أماتنى وإليه النشور) - حين لجأ محفوظ إلى إبداع الأحلام (وليس تسجيلها) وجد نفسه داخل هذا الموت الأصغر، فاستطاع أن يلمح بعض معالم الموت الأكبر من النافذة التى فتحها بين مستويات الوعى هكذا:

تعالوا نبدأ بآخر حلم نشر له. ونتجول معه وهو يرفع هذه الحواجز.

«رأيتنى أعد المائدة والمدعون فى الحجرة المجاورة تأتينى أصواتهم أصوات أمى وإخوانى وأخواتى: وفى الانتظار سرقنى النوم ثم صحوت فاقدا الصبر فهرعت إلى الحجرة المجاورة لأدعوهم فوجدتها خالية تماما وغارقة فى الصمت وأصابنى الفزع دقيقة ثم استيقظت ذاكرتى فتذكرت أنهم جميعا رحلوا إلى جوار ربهم وأننى شيعت جنازتهم واحدا بعد الآخر».

لِمَ قُلتَها شيخى: «كفى»!!

قد كنتَ فينا رنحاً أو شاديا تخطو بنا نحو الذى قد صاغنا، وجعلتَ إيقاع الحياة له صليلاً مثل نبض الكون سعيا للجليل، حتى حسبنا أنها لا تنتهى، وظللت تخطر هامسا كالطيف، كالروح الشفيف، كظلِّ رب الكون فيما بيننا، وجعلت تنحت جاهدا لتعيد تشكيل البشر،

حُلماً فحلماً، واقعاً منا: لنا، نسعى إلى عمق الوجود لنلتقى فينا بنا، «لتعارفوا»، هذا «طريق الزعبلاوى» نحو وجه الحق، نحو النور، نحو العدل، نحو الله فينا حولنا.

ومضيتَ تقهر كلَّ عجزٍ كلَّ ضعفٍ كلَّ هم. حتى دعونا ربنا أن تقهر الساعات تسحبُنا إلى المجهول إذ تخفى العدمُ، حتى نسينا أننا بشر لنا أعمارنا.

لم قلتَها شيخى: «كفى»؟

الآن؟ كيف الآن؟ شيخى!؟ ربنا!؟ بالله ليس الآنَ. إرجعْ عقارب ساعتك، لا، نحن لسنا قدرها، ليست «كفى»،

لا، ليس هذا وقتُها، أفلستَ تعلم أننا فى «عز» حاجتنا إليك؟

أفلستَ تعرف ما جرى؟

أفلست تعرف كيف تنهشنا السباعُ الجائعة؟

أفلستَ تعرفُ أن ما يأتى بدونك لهوَ أقسى ألف مرة؟

لو كنتَ أقسمتَ عليه، من أجل خاطرنا، لأبرّك الله العزيز بقدر ما وعد الذين همُّوا كمثلك.

لمَ قلتَها شيخى: «كفى؟

كنا نريدك دائما تخطو جميلا بيننا، كنا نريدك خالدا فى قرة العين هنا، كنا نريدك مثل أطفالٍ أبوْا أن يفطموا من حلو ما نهلوا عطاءك. مثلنا، كنا نريدك نحتمى فى دفء بُردكَ من برودة عصرنا.

لكنْ خاتمة الكتاب تقررت فسمعتَها، وكتمتَها حرصا علينا، وانسحبت برقةٍ وعذوبة، وتركتَنا.

لمَ هكذا؟

علمتنا شيخى بأنا قد خُلقنا للحلاوة والمرارة نحمل الوعى الثقيل تكونُه سعيا إليه.

فاجأتَنا، ورحلت دون سؤالنا.

ويكى الخميسُ لقاءنا، وتركتَ بيتى خاويا فى كل جمعة.

ماذا جرى؟

كيف جرى؟

هل يا تُرى: قد كان همسا من وراء ظهورنا يدعوك سرًا؟

ورجوتَ أن تُقتاد شيخى بعد ما طال العناء؟

فاستأذن الجسدُ العليل بشجة فى الرأس كانت عابرة؟

لا لم تكن أبدا مصادفة، ولم يشأ القدر، كانت نذيراً بالوداع، قطعت حبالَ وصالنا فتهتك العهدُ القديم وحرر الجسد العنيد، والشيخ درويش «الزقاق» يقولها:

«لا شىء دون نهاية»

وهجاؤها:

«قد حان وقتٌ للرحيل».

علَّمتنا شيخى الجليل:

أن الخلود بهذه الدنيا عدم، والموتُ لا يُنهى الحياةَ لكلِّ من أعطاها مثلك نفسه، الموتُ ينقلها إلى صُنّاعها من بعض فيضك، قد كنت رائدَ حملها.

يا للأمانة!!

يا ثقلها!!!

هل جاء من أتباك أنَا أهلُها؟

حتى الجبال أبينَ أن يحملنها.

كيف السبيل، وكل هذا حولها؟

لكنْ ما قدّمت علّمنا «الطريق» إليه عبر شعابها:

لَمّا عرفتَ سبيل دربك نحوه، كدحاً إليه:

ودخلتَ فى عمق العباد تعيد تشكيل الذى غمرته أمواجُ الضلال، حتى تشوه بالعمى والجوع والجشع الجبان.

شيخى الجليل:

ما دمت أنتَ فعلتَها فانعم بها واشفعْ لنا أن نُحمل العهد الذى أودعْتنا شيخى الجليل:

ثم احتضنا، وارجعَ إليه مُبدعاً، عبر البشر، وادخل إليها راضياً. أهلاً لها.

(حـــلـــم ٢٠٦)

أين الحواجز بين الحياة والموت، بين النوم والصحو، بين الذاكرة والواقع؟

كيف كان شيخى يتلقى الموت:

عاصرت شيخى مع بعض الحرافيش الأصليين، فرحنا بكل الجزع نفقد الحرفوش تلو الآخر فلا نستطيع أن ننسى الموت أو نتغافله، بل إن الموت سبق رحيل هؤلاء الحرافيش حين اختطف باكرا صديقا - ليس حرفوشا - هو مصطفى أبو النصر ثم اختطف صديقا لاحقاً فى عز وهجه هو أ.د. محمد راضى، ثم رحل من الحرافيش كل من بهجت عثمان، وأحمد مظهر ثم عادل كامل (بلغنا رحيله عن أمريكا بعد أن زارنا بضعة أسابيع) كان تفاعل شيخنا لكل ذلك هادئا صادقا متألما لعله يتمثل دائما فى القول الرائع: الموت حق، ولكن الفراق صعب.

التذبذب فى قبول قرار الموت

حين يقترب الموت واقعاً، حتى بقرار طبيب، تقفز منا، فينا، مواقف متذبذبة، هى أكثر من موقف فى آن، بعضها فى بؤرة الوعى وبعضها على هامشه، تتراوح هذه المواقف ما بين الجزع والتحدى والتسليم والتمنى والمراجعة، إلى غير ذلك، وقد تبدو متداخلة أو متناقضة لكنها كلها تعلن - فى النهاية - التمسك بالحياة، بشكل أو بآخر. ثم أن الوعى بتوقيت الموت القادم قد يدفعنا - بدلا من التسليم - إلى الإقدام على ما يبدو تمسكا بالحياة، أو اللحاق بآخر مركبة فيها، أو اختيار هو أقرب إلى التوريط.

هذا بعض ما وصلنى من هذا الحلم:

لم يبق فى الحياة إلا أسابيع فهذا ما قرره الفحص الطبى. فحزنت حزناً شديداً ثم تملكتنى موجة استهتار فأقبلت اتناول الأطعمة التى حرمها على الأطباء من سنين ولازمت صديقتى «س» وعرضت عليها الزواج فدهشت وقالت لى: إنك تفتقد صداقة بريئة عظيمة ولا تكسب شيئاً فألححت عليها حتى رضخت وبعد يومين جاءنى صديق طبيب يخبرنى بأن هناك اخصائيا عالميا سيزور مصر وأننا حجزنا لك مكاناً عنده فهنيئاً لك بفرحة الحياة، وغمرنى سرور من رأسى لقدمى غير أننى تذكرت الأطعمة الضارة التى التهمتها، والزواج الذى قيدت به نفسى على غير رغبة، فشاب فرحتى كدر وقلق.

(حـــلـــم ١٥٧)

الموت: تمزيق الصفحة فى انتظار الوعد. ثمَّ موت هو بمثابة تمزيق صفحة الزمن البليد، وذلك متى تبين صاحبها أنها خالية إلا من الاغتراب وتزجية الوقت باللاشىء، أو بتكرار مُمل، ربما بعزف أنغام النعابة، دون إضافة أو تجديد، حياة أشبه بالتسول، قد يقفز الوعى بهذه اللاجدوى فى أزمة منتصف العمر أو بعده أو ربما بمناسبة فقد عزيز أو بتذكر رفاق، رحلوا بلا معنى ولا أثر، هنا قد يقفز الحل التقليدى بالدعوة للانسحاب، أو حتى قبول الكف عن الشخبطة والثرثرة فى صفحة الزمن الخاوية إلا مما لا لزوم له، شىء أشبه باستجداء الأيام لمزيد من اللامعنى، وتظهر الوعود بالانتقال إلى المكان الجميل والرزق الوفير، وهى دعوة عيانية تصدر عادة من سلطة وصية مضمرة، أو حلم واعد بلا ضمان أكيد، ذلك أن تحقيق هذا الوعد يرجع إلى رأى أصحاب النفوذ القادرين الواثقين، فتبدو المسألة كأنها النقلة من خواءٍ فاتر، إلى راحة مؤمنة، ليكن، فهى الخلاص من الضياع على أية حال، أملا فى القبول بالموعود، ولو من حيث المبدأ، لكن الأمر يحتاج «همة عالية وصبر طويل»، فلم العجلة، فليقصُر وقت الانتظار أو يطول، فالأمر محسوم يوماً عند الجامع على طلوع الفجر

عند منعطف من منعطفات الحارة، رأيت أمامى الصديقين الشقيقين اللذين طال غيابهما وأحزننى غاية الحزن، وبهتنا لحظات ثم فتحت الأذرع وكان العناق الحار، وتذاكرنا الأحزان و الأفراح والليالى الملاح، وطلبا منى زيارة سكنى فمضيت بهم إليه على بعد أمتار، وتفحصاه حجرة بعد حجرة وضحكا طويلا كعادتهما ثم أعربا عن أسفهما لبساطة المأوى، ثم سخرا منى بلسانيهما اللاذعين الجذابين. وسألانى عن عملى الذى أعيش منه، فأجبت بأننى عازف رباب وأتغنى بعذابات الحياة وغدر الدهر، وعزفت لهما وغنيت فقالا إنها حياة أشبه بالتسول، ولذلك فهما لا يدهشان لما يبدو فى وجهى من آثار الضعف والبؤس، وقالا لى إنهما بحثا عنى طويلا حتى عثرا على، وتبين لهما أن قلقهما على كان فى محله وأنهما يبشرنى بالفرج.. حمدت الله على ذلك ولكن ما الذى يبشراننى به؟ قالا ستهاجر معنا إلى المكان الجميل والرزق الوفير، فسألت كيف يتيسر لى ذلك فقالا إنهما - كما أعلم - يمتان بصلة لأصحاب النفوذ ولا خير يجىء إلا عن طريق أصحاب النفوذ.

وتأبطا ذراعى وسارا بى إلى الخارج، حتى بلغنا أحد الرجال العظام شكلاً وموضوعا، واستمع للحكاية بوجه محايد، وقال لى إن الهجرة تحتاج لهمة عالية وصبر طويل، فوعدنى خيرا، وقال الصديقان، إنهما يطمئنانى.. فقال:

- انتظرونى عند الجامع على طلوع الفجر.

عاصرت شيخى مع بعض الحرافيش الأصليين، فرحنا بكل الجزع نفقد الحرفوش تلو الآخر فلا نستطيع أن ننسى الموت أو نتغافله

(حـــلـــم ٣٤)

الخوف من الموت:

مهما أعلنَّا حب الموت، أو زعمنا قبوله، أو سلَّمنا بانتظاره، ومهما صدقت الوعود بما بعده، حتى رأيناها رأى العين فى حلم أو بيقين راسخ، إلا أن المسألة - من عمق أعمق - ليست بهذه السهولة المعلنة. حتى بعد التأكد من اللقاء هناك بأمثالنا، وبعد الارتياح إلى صدق الوعد بما لذ وطاب، يظل الحرص على الحياة غالباً ربما من باب «اللى تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش»، الحرص على الحياة غالب إلى آخر لحظة حتى لو حُرِمنا هذا الحرص من المشاركة فى ما تُقدمه الحياة، وما بعد الحياة فالأصدقاء فى هذا الحلم هم أصدقاء العمر الراحلون، والامتناع عن مشاركتهم، وهم قد رحلوا، هو حرص على الحياة يمتد حتى بعد الاطمئنان إلى أن الذين رحلوا مازالوا يسمرون ليلاً تسبقهم ضحكاتهم المجلجلة، والمفارقة الموقظة هنا هى التنبيه إلى أن الخوف من الموت يمتد حتى بعد الموت.

وجدت نفسى فى بهو جميل، وبين يدى وعاء ذهبى ملئ بما لذ وطاب.

فذكرنى هذا بسمار الليالى من أصدقاء العمر الراحلين، وإذا بى أراهم مقبلين تسبقهم ضحكاتهم المجلجلة. فتبادلنا السلام وأثنوا على الوعاء وما فيه. غير أن سعادتى انحلقت فجأة وصارحتهم بأننى لن أستطيع مشاركتهم حيث منعنى الأطباء من التدخين منعا باتا، وبدت الدهشة على وجوههم ثم ركزوا أبصارهم فى وجهى وتساءلوا ساخرين:

- أمازلت تخاف من الموت؟!

حـــلـــم ٩٢

الموت لا يفرق بين الأحبة:

حضور وعى من يرحل عنا «فى» وعى من يبقى منا، هو فرض يزداد اقترابا واحتمال تحقق يوما بعد يوم، سواء من منطلق علمى بيولوجى، أو من منطلق نفسى باراسيكولوجى، أو حتى من منطلق ميتافيزيقى، وبالتالى: إنه من المحتمل أن يبقى - فينا - من نتصور أنه رحل عنا بجسده، خاصة إذا ما كان قد تم بيننا وبينه حوار حياتى جدلى عميق، يسمح بهذا التشكيل المتداخل لوعينا معاً، ليس فقط ما يسمى الحب هو الذى يسمح بمثل هذا الجدل، ولكنه يسمى عادة بهذا الأسم.

سمعت شيخى ينبهنى إلى ما يشككنى فى حبى له، من فرط افتقادى إياه وذلك حين أمعنت النظر فى رد المعلم القديم على المرحومة عين وهى تعتذر له بالموت عن الغياب.

رأيتنى فى حى العباسية اتجول فى رحاب الذكريات وذكرت بصفة خاصة المرحومة عين فاتصلت بتليفونها ودعوتها إلى مقابلتى عند السبيل وهناك رحبت بها بقلب مشوق واقترحت عليها أن نقضى سهرتنا فى الفيشاوى كالزمان الأول وعندما بلغنا المقهى خف إلينا المرحوم المعلم القديم ورحب بنا غير أنه عتب على المرحومة عين طول غيابها فقالت إن الذى منعها عن الحضور الموت فلم يقبل هذا الاعتذار وقال إن الموت لا يستطيع أن يفرق بين الأحبَّة.

مـــن حـــلـــم ١٠٤

الموت العدم والجسد الهش:

حضور وعى الراحل فى تشكيل وعى من تبقى من أحياء لا يتم إلا إذا كانت العلاقة حقيقية نابضة، أحيانا نتوهم باندفاع عاطفى مغترب أننا نحب شخصاً ما حباً هائلا، ونحن لانحب إلا ماتصورناه عنه، وحين يختفى جسد هذا المحبوب بالموت، تتراجع أو لا تتراجع معه صورته التى كوَّناها له، لكنها - الصورة لا الوعى - يمكن أن تُستدعى فى الحلم أو فى العلم، فى ذكرى أو تخيل، لكنها مجرد صورة لا تمثل وعى الراحل، فإذا ما حدثت الصحوة المفاجئة، فقد نصدم ونحن نتبين من خلالها الحقيقة، وأن «طلعتها البهية، ومشيتها السنية وملامحها الأنيقة» لم تكن إلا من صنعنا نحن، فتتعرى

عندما بلغنا المقهى خف إلينا المرحوم المعلم القديم ورحب بنا غير أنه عتب على المرحومة عين طول غيابها فقالت إن الذى منعها عن الحضور الموت فلم يقبل هذا الاعتذار وقال إن الموت لا يستطيع أن يفرق بين الأحبة

الصورة ولا يبقى إلا كيان هش، يعلن عدماً منذ البداية..

تريضت على الشاطئ الأخضر للنيل. الليلة ندية والمناجاة بين القمر ومياه النهر مستمرة تشع منها الأضواء. هامت روحى حول أركان العباسية المفعمة بالياسمين والحب. ووجدت نفسى تردد السؤال الذى يراودها بين حين وآخر. لماذا لم تزرنى فى المنام ولو مرة واحدة منذ رحلت؟ على الأقل لأتأكد من أنها كانت حقيقة وليست وهما من أوهام المراهقة. وهل الصورة التى طبعت فى خيالى هى الصورة الحقيقية للأصل؟

وإذا بصوت موسيقى يترامى إلى من ناحية الشارع المظلم. صارت أشباحا ثم تجلت مع ضوء أول مصباح صادفها فى طريقها أدهشنى أنها لم تكن غريبة على فى الموسيقى النحاسية التى كثيرا ما استمعت إليها فى صباى ورأيتها تتقدم بعض الجنازات، وهذا اللحن أكاد أحفظه حفظا، إما المصادفة السعيدة غير المتوقعة فهى أن حبيبتى الراحلة تسير وراء الفرقة. هى هى بطلعتها البهية ومشيتها السنية وملامحها الأنيقة، أخيرا تكرمت بزيارتى وتركت الفرقة الجنائزية تسير ووقفت قبالتى لتؤكد لى أن العمر لم يضع هدرا، وقمت واقفا منبهرا وتطلعت إليها بكل قوة روحى. وقلت لنفسى إن هذه فرصة لا تتكرر- لألمس حبيبة القلب.

وتقدمت خطوة وأحطتها بذراعى ولكنى سمعت طقطقة شىء يتكسر وأيقنت أن الفستان ينسدل على فراغ. وسرعان ما هوى الرأس البديع إلى الأرض وتدحرج إلى النهر وحملته الأمواج مثل ورد النيل تاركة إياى فى حسرة أبدية.

حلم ١٤

الموت التغيير والمراجعة

حين ينظر الميت (حيا) إلى من خلفه، فلا يجدهم غير سلبيات ما رحل عنه، يتحسر بلا جدوى. ما دام الأمر كذلك فلماذا تركها لهم آملا أن يخطوا هم الخطوة التالية، فتطرد مسيرة الحياة، هذا عن التوقف والجمود، فإذا أضيف إليهما جحود وبلادة هذا الجيل التالى للسابقين، فقد يصدق حدس محفوظ فى تخوفه من النسيان والإهمال فى قصة «علمنى الدهر».

... هذه «حجرة السكرتارية» حيث أمضيت عمرا قبل إحالتى إلى المعاش وحيث زاملت نخبة من الموظفين شاء القدر أن أشيع جنازاتهم جميعا واسترقت نظرة من داخل الحجرة لأرى من خلفونا من الشباب فكدت أن أصعق لأنى لم أر سوى زملائى القدامى، واندفعت إلى الداخل هاتفا سلام الله على الأحباب متوقعا ذهولا واضطرابا ولكن أحدا لم يرفع رأسه عن أوراقه فارتددت إلى نفسى محبطا تعسا ولما حان وقت الانصراف غادروا مكاتبهم دون أن يلتفت أحد نحوى بما فيهم المترجمة الحسناء ووجدت نفسى وحيدا فى حجرة خالية.

حلم ٩٧

يتبين إصرار محفوظ على أن الموت هو خطوة فى حركة متصلة نحو التغيير حين نتأمل ما جاء فى حلم باكر من دعوة إلى مراجعة لما يسمى مسلمات الماضى، حتى بعد رحيله، فقد أعاد محفوظ أستاذه الشيخ محرم من الآخرة بعد أن شيع جنازته قبل ستين عاما، أعاده ليخبره دون مقدمات بضرورة إعادة النظر فى المسلمات التى هو مسئول عن إبلاغها له.

رن جرس التليفون وقال المتكلم:

الشيخ محرم استاذك يتكلم

فقلت بأدب وإجلال:

أهلا استاذى وسهلا...

أنى قادم لزيارتك.

على الرحب والسعة

لم تمسنى أية دهشة على الرغم من أننى شاركت فى تشيع جنازته منذ حوالى ستين عاما وتتابعت على ذكريات لاتنسى عن استاذى القديم فى اللغة فى معاملة التلاميذ وجاء الشيخ بجبته وقفطانه الزاهيين وعمته الملفوظة وقال دون مقدمات: هناك عايشت العديد من الرواة والعلماء ومن حوارى معهم عرفت أن بعض الدروس التى كنت ألقيها عليكم تحتاج الى تصحيحات فدونت التصحيحات فى الورقة وجئتك بها.

قال ذلك ثم وضع لفافة من الورق على الخوان وذهب.



(حلم ٦)

وصية محفوظ ودورية النقد:

شغلتنى فكرة دورية نقد متخصصة لأعمال محفوظ منذ نال نوبل وكتبت إلى المسئولين بذلك، بدءا من خطابى إلى أ.د. عزالدين إسماعيل رئيس تحرير مجلة فصول آنذاك فى ١٩٨٨/١١/١١. ورحت أكرر طلبى لإصدارها فى كل مناسبة، كان آخرها للجنة المشكلة لتخليد ذكرى محفوظ، وهأنذا أعثر على حلم ينتهى بهذه الوصية «إن المقال أحب إلى نفسى من الانفعال والخداع، وأقرأ المقال بمعنى النقد ونقد النقد، فهى الدورية، وأن يكون حوار لا يتوقف. فهذا وحده هو الذى يحول بين الأجيال الحديثة وأن تفقد ذاكرتها...... الخ.

قرأت فى المجلة مقال نقد قاس لشخصى وأعمالى بقلم الأستاذ ع وإذا به يمثل أمامى معتذرا ويقول إنه يقصد بالمقال أن يكون أساس حوار بينى وبينه يحدث ضجة تعيد الغائب إلى الوجود فقلت له: من يصدق هذا الحوار وأنت ميت منذ ١٥ سنة فقال إنه يعتمد على أن الأجيال الحديثة فاقدة الذاكرة

فقلت له: إن المقال أحب إلى نفسى من الانفعال والخداع!

(حلم ١٦٥)

الموت فى أصداء السيرة

أما تناول محفوظ للموت كما ظهر فى الأصداء، فهذا يحتاج إلى عودة مطولة مستقلة، مكتفيا بالعينة التى صدرت بها هذه المداخلة وهى فقرة من أصداء السيرة الذاتية بعنوان «همسة عند الفجر»، تجليات الموت فى الأصداء هو الفصل الثانى فى الجزء التالى من أصداء الأصداء. ※

هوامش:

(١) الأهرام ١٨ أكتوبر ١٩٩٤

(٢) ١٠ ديسمبر ١٩٩٣

(٣) يحيى الرخاوى: مجلة فصول المجلد التاسع ـ العددان الأول والثانى - أكتوبر ١٩٩٠ (ص ١٥٥ ـ ص ١٧٥).

يحيى الرخاوى: كتاب «قراءات فى نجيب محفوظ» الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٢.

(٤) يحيى الرخاوى: أصداء الأصداء: تقاسيم على أصداء السيرة الذاتية «نجيب محفوظ». المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٦.

خيـــــري منصـــــور



البانوراما المحفوظية

من النقد الاتباعي.. إلى نقد النقد

■■ الكتابة عن نجيب محفوظ بعد رحيله هي أعسر من الكتابة عنه حيا، لأن الوداع وطقوسه غالبًا ما يؤجل الاستقرار النقدي. بحيث تغلب الأيقنة كنزعة شرقية مزمنة على التعامل الجمالي، ومحفوظ الذي عاش قرابة قرن، هو كما وصفه مؤرخوه أقصر القرون وأطولها، شهد بالنفي والإثبات معًا على أهم ما عصف بالعالم ومنه نحن العرب، ونادرًا ما كان شاهد ملك، لأنه بطبيعته مفطور على المقاربات السجالية للظواهر، سواء تعلقت بالنسيج الاجتماعي أو بميتافيزيقا الكون!

وقد تكون الكتابة عن أمثاله خصوصًا عندما تكون محررة من الطقوسية وكرنفالية الوداع أشبه بالبحث عن قدم مربع من اليابسة في محيط يخلو من الجزر، وهذا ما يقوله نقاد شكسبير وأحفادهم، وكذلك نقاد ديستويفسكي وبلزاك ودانتي وآخرين..

وثمة نمطان على الأقل من المبدعين الأكثر فاعلية في تاريخ الأدب، الأول مقل وذو إنجاز يتيم من طراز الأخوات برونتي ولامبيدوزا، والثاني غزير من طراز محفوظ وديستويفسكي وكازنتزاكي، لكن ما قاله الناقد فيتشر عن رواية لامبيدوزا، جدير بالتأمل، فقد قال إنه أعاد إلى كلمة الإنجاز بمعناه الكيفي اعتبارها المسلوب.

محفوظ مقل رغم غزارته، بمعنى آخر هو من المبدعين الذين تكون تكراراتهم إلحاحا دراميا على الفكرة ذاتها، هذا إذا صحت مقولة ألبير كامو الذي قال غداة فوزه بجائزة نوبل: إن لكل فنان فكرة أو نبعا واحدا يغذي أعماله كلها، وبالفعل استطاع ناقد أوروبي أن يتقصى أعمال كل من كامو وكنجوي من البداية إلى النهاية وهو ممسك بخيط حريري واحد، ليس لأنهما كتبا الرواية أو القصة ذاتها عدة مرات، بل لأنهما مهجوسان بسؤال خالد تتفرع منه أسئلة الوجود والعدم والحياة والموت والحرية وما يحول دون تحقيقها!

أكاديميا كان محفوظ محظوظًا بعدد الأطروحات المكرسة لإبداعاته، لكنه الأقل حظا إذا احتكمنا إلى ما أضافته

لن يتقلب محفوظ ذات يوم في قبره إذا علم بأن بلاده ولدت الأنجب، لأنه من صلبه الروائي أولا، ويشكل قيامته الإبداعية ثانيًا!

تلك الأطروحات، التي أكثر مؤلفوها أن يسلكوا الطرق المطروقة والمعبدة، بحيث لا يقع الحافر على الحافر فقط، بل ينطبق عليه. وبالطبع ثمة استثناءات مغامرة وكاشفة لكنها قد تكرس القاعدة، لهذا قد تكون الدراسات النقدية التي كتبت عن نجيب محفوظ بمبادرات ثقافية ومعرفية وذات نزوع موسوعي هي الأجدى، بل الأبقى وفي مقدمتها الدراسات التأويلية التي لم تحلق بجناحين مهيضين حول النص، بل سعت إلى تفكيكه، وأذكر على سبيل المثال مقالة تناولت روايته الطريق، وهي مقاربة تأويلية توصلت إلى أن جملة القرائن التي صاحبت بطل الرواية صابر الرحيمي، تلمح إلى أن المقصود هو جمال الدين الأفغاني، وهذا ليس قراءة بروكوستية تعسفية للرواية، لأن هناك محاولات سابقة، مارسها نقاد غربيون منها ما سعى إلى تأويل الأسماء، كما هو الحال في رواية همنجواي العجوز والبحر، وإحدى قصص كامو الطويلة، فاسم سانت ياغوب العجوز والبحر اقتاد الناقد باركر إلى طبرية، وكان النبي يعقوب هو ما أحاله إلى القرائن، فلم يعد الصياد عجوزًا يشتبك مع بحر وسمكة قرش بقدر ما هو إنسان يشتبك مع قدره، وبالنسبة لألبير كامو فإن قصته قبلت مثل هذا التأويل الميثولوجي لأن اسم بطلها هو يوحنا المعمدان!

وكي لا تأخذنا هذه التداعيات والاستطرادات بعيدًا عن نجيب محفوظ رغم أنها من صلب الملكوت الروائي الذي ينتسب إليه، فإن هنالك ثلاثة محاور على الأقل تحتاج إلى مفاتيح ذهبية تدار في أقفالها.

المحور الأول، هو التاريخ، لا بمعناه الحدثي، بل بمعناه النافذ وقد لاذ به محفوظ في بواكيره استلهامًا، وتمهيدا. وحتى الترجمة في هذا السياق تخضع للهواجس ذاتها، لأن نجيب لم يحولها إلى حزمة موازية لإبداعه، ولاح لمؤرخي أدبه أنه ابتدع ما ترجمه، أي انتشى به زمنًا ليحوله في زمن لاحق!

إن الثلاثية وهي النهضة الروائية الأعلى، والأكثر بانورامية في إبداعه الروائي، لم تكن مجرد تشخيص للزمن، أو تعقيب للتاريخ، فهي بإيقاعاتها الداخلية وصيرورتها، كيان روائي واحد، ربما أملت شروط النشر تجزئته في ثلاثة كتب، وكما أن لكل رباعية جزءا خامسًا لم يصدر فإن لكل ثلاثية رابعها المحذوف.

ولكي أوضح هذه النقطة كي لا تبدو أحجية، فإن ما كتبه سارتر عن رباعية لورنس داريل يصلح مدخلا نموذجيا لقراءة المحذوف أو المسكوت عنه، والجزء الخامس في رواية «داريل» حسب سارتر هو صمت وشخير حامد الأعور، الخادم النوبي الذي لم يشهد على امتداد الرواية..

وبهذا المقياس، فأين هم شهود نجيب الصامتون؟ الذين يتشكل منهم الجزء الرابع المحذوف من ثلاثيته؟ لكل ناقد وبالتالي لكل قارئ الحق في أن يعثر على الزوايا غير المضاءة في المسرح الروائي، وثمة مثلاً من يرون أن الصراع العربي الإسرائيلي شبه محذوف من القلعة الروائية لمحفوظ باستثناء إشارات قد لا تجد اللبيب الذي يفهمها.

واقعيـــة الممكـــن

عندما أصدر جارودي في مرحلته الوردية كتاب «واقعية بلا ضفاف» قبل السبعة عقود، صاح الواقعيون مثلما فعل أرشميدس قائلين وجدناها، فالواقعية

إن نجيب محفوظ هو كما هو.. مصري وعربي يكتب بلغة ذات مرجعيات جمالية غير إنجليزية وغير فرنسية، لهذا يستحق أن يطلق اسمه على كاتب فرنسي أو بريطاني في مثل حجمه الروائي إذا تجردت النوايا من ألغامها!



ليست رهينة التعريف المعجمي الهاجع في موسوعات النقد. لهذا أصبح ثلاثي عالمي منعوت بالسوريالية واللاواقعية والفانتازيا واقعياً، لكن بلا ضفاف.. وهذا الثلاثي هو اراغون وكافكا وسان جون بيرس. وإذا أضيف إليهم بابلو بيكاسو فإن التعريف الجديد للواقعية حررها من الكولوخوز ومستوطنات الحزب التوتاليتاري وأمثولة «الأم» لجوركي بعد أن أعلن العصيان على ما طلب منه صديقه لينين بعد صدور رواية «الأم».

ونجيب محفوظ جدير بأن يكون في طليعة الواقعيين الذين بلا ضفاف، لأن واقعيته تتدرج من المعنى الدقيق والكلاسيكي للمصطلح إلى ما يمكن تسميته واقعية الممكن أو الواقعية الفائقة، فهو مثلاً في عام ١٩٦٦ ومن خلال روايته ثرثرة فوق النيل تحدث عما سيحدث، وليس عما حدث، بحيث اكتشف عرب حزيران بعد تلك الهزيمة أنهم محكومون بالإقامة في اليوم السابع من حرب الأيام الستة عدة عقود وفي عوامة بسعة قارة.

وهو يذكرنا بواقعية مكسيم جوركي إلى حد ما وواقعية بلزاك إلى حد أبعد. فالأول كتب عن وقائع لم تقع إلا بعد رحيله، ومنها قصة الخادمة، التي خنقت طفل مخدوميها لفرط إحساسها بالنعاس وهو الذي كان يحول دون نومها.

وهذا ما تنبه إليه بحصافة الروائي كونديرا عندما كتب عن شخوص سلفه التشيكي كافكا، فهؤلاء الشخوص من لحم ودم، ولهم ذرية في نظم شمولية حيث الكوابيس لا تعود حكراً على الراوي!

وقد تكون رواية الشحاذ مزيجاً من واقعية قابلة للتأويل ومشحونة بالممكنات وبين الميتاواقعية التي صهرت خاتمة الرواية ومصير البطل «الحمزاوي».

والأرجح أن نجيب محفوظ بما احتازه وامتاز به من قدرة على التوازن. وتدريب على الانضباط لم يجابه الواقع وجهاً لوجه أو بمعنى أدق قلما لسوط. لهذا كان الترميز إحدى أدواته ودفاعاته أيضاً. فأسماء أبطاله لم تكن منحوتة جزافاً، بدءاً من الطريق حتى أولاد حارتنا والمرايا. وكذلك الأمكنة التي شكلت مسرحه الروائي، فهي أزمنة أكثر منها أمكنة إذا قبلنا بالتعريف القائل إن الجغرافيا هي تاريخ متخثر، فالجمالية والحسين وخان الخليلي والكرنك وقشتمر ليست مجرد أمكنة صماء أو ساحات يدار عليها وحولها السرد، المكان لدى نجيب بطل روائي بامتياز. بانسيون ميرامار، مكان بطل وكذلك العوامة في ثرثرة فوق النيل ومقهى الكرنك وزقاق المدق، لكن نجيب محفوظ بقي مسكوناً بالمكان الأول: وهو حي الجمالية، ويعترف في حوار أجراه معه محمد سلماوي أنه عندما انتقل من الجمالية إلى العباسية أقنع العباسيين بالعودة معه مرة في الأسبوع على الأقل إلى الجمالية، ويقول أيضاً إنه قد يذهب إلى فندق مثل سميراميس، ويستمتع بوقته. لكنه متأكد من العودة إلى مقهى الفيشاوي.. وقد تكون هذه النوستالجيا المحفوظية قدر تعلقها بالحنين إلى مسقط الرأس والطفولة هي ما يفسر حنين أبطاله للعودة إلى حيث كانوا، لكن عبر تأويلات زمانية وليست مكانية فقط.

المحور الثاني الذي يحشد عدة مقاربات محفوظية في قلعته الروائية المرأة، فنساؤه لسن نمطاً واحداً، رغم أن الأم تبقى ذات سمات شبه ثابتة، بسبب اعترافه في اكثر من مناسبة بتعلقه بأمه. نساء رواياته نماذج متباينة حد التضاد باستثناء الأم، وذلك لهدف محدد هو توضيح خطوط الطول والعرض الأنثوية في واقع ملغوم بالتناقضات وتحكمه أيديولوجية ذكورية، وثمة رأي شائع بأن بطلات محفوظ هن على الأغلب يرمزن إلى مصر.. وكنت قد سمعت هذا الرأي من الفنان الراحل محمود مرسي قبل ثلاثين عاماً، وهو يتحدث عن ربرى وعن دوره في رواية السمان والخريف، وإذا كانت الحارة كما يقول ترمز إلى مصر، كما في زقاق المدق، وإلى الكون كله كما في الحرافيش، فإن امرأة واحدة مثل زهرة في ميرامار قد ترمز إلى مصر، لكنها تتمدد لتقبل الحياة برمتها وفطرتها قبل أن تتعرض للغواية؛ لكنها قاومت وإن كان لعاب زبائن البانسيون قد سال مدراراً عليها باستثناء اثنين، هما الصحفي

الوفدى المتقاعد عامر وجدى والشيوعى التائب أو المضطر لإعلان التوبة تحت تأثير شقيقه الأكبر ضابط البوليس، وقد يغرى التشابه الظاهرى بين بطلات محفوظ خصوصًا من اضطرتهن الحاجة إلى الاتجار بالجسد بزجهن جميعًا فى خانة واحدة، «نور» فى «اللص والكلاب» و«ريرى» فى «السمان والخريف» و«بسيمة عمران» فى «الطريق»، التشابه الظاهرى يتجسد فى كون نساء محفوظ ملاذات لرجال مكسورين، يلجأون إليهن ثم يتمردون عليهن، وأخيرًا يندمون أو يعترفون بالذنب.

وهنا علينا ألا نغفل التدخل السينمائى فى مصائر الشخوص لدى محفوظ، فالروايات تخسر كثيرًا، وهى تهاجر من ورق الإبداع البكر إلى ورق السيناريو المصنع، وقد يحدث اختلاف عابر فى بعض التفاصيل خللاً بنيويًا فى النسيج الروائى، لا يستشعره مشاهد الفيلم، ولا قارئ الرواية الذى لم يشاهده، بل من قرأ أو شاهد وقارن!!

البغى الفاضلة

هذه الموضوعة بحد ذاتها مطروقة فى العديد من الثقافات، وقد نجد نصوصًا موغلة فى القدم تحاول الانتصاف للبغى، باعتبارها ضحية اجتماعية، لكن القرن العشرين شهد معالجات درامية لهذه الظاهرة المسكوت عنها أخلاقيًا، والمتواطأ عليها اقتصاديًا واجتماعيًا، والمسرحية الشهيرة «المومس الفاضلة» لجان بول سارتر تنسجم وتتناغم مع السياق الوجودى لأعمال هذا الفيلسوف الفكرية والفنية، حتى وجد من اتهمه من النقاد بأنه قدم أدبًا هو المعادل التعبيرى لأفكاره المجردة فى كتابيه الوجود والعدم ونقد العقل الجدلى.. بغايا روايات محفوظ من طراز مغاير، رغم أن إفراز مثل هذه النماذج فى كل بلدان العالم يبدأ من الحاجة، وبالتالى من استغلال الميسورين لمن يعانون من العسر، سواء كانوا من أحزمة الخدمات والمهمشين أو من النساء اللواتى يتاجرن بأجسادهن، لأن الجسد هو رأس المال الوحيد الذى يملكنه.

وبالرغم من أن مهنة البغاء هى أقدم مهنة فى التاريخ، كما يقال، إلا أن لكل عصر معياره الخاص الذى يحتكم إليه فى تعامله مع هذه المهنة. وبالنسبة لمحفوظ هناك نموذجان يجسدان البغى



الفاضلة، ريرى فى «السمان والخريف» و«نور» فى «اللص والكلاب»، ريرى يغدر بها عيسى الدباغ البطل المدحور والمصاب فى عمق نرجسيته الطبقية والعاطفية والحزبية أيضًا، وهى لم تكن تريد سوى حياة عادية، لهذا لم يحل فارق السن دون قبولها بالزواج من رجل يصونها ويوفر لها حياة كريمة، وهى إذ تتحول إلى زوجة ثم إلى أم رءوم لطفلتها الوحيدة وتستقيم بعد أن انتفت حاجة الإتجار بالجسد تقدم نموذجًا لبغى ساقتها الظروف إلى هذه المهنة، لهذا فهى أكثر نبلاً من الرجل الذى استخدمها ثم طردها، وأخيرًا استنكر عليها أن تكون أمًا لابنته وبعودته إليها فى نهاية المطاف باعتبارها الملاذ الوحيد الباقى، تكون فضيلتها قد استكملت الدائرة بالقوس الأخير.. الذى تشكل من الاعتذار والعودة!

لهذا لا أرى ما راه البعض وهو أن عيسى الدباغ بطل السمان والخريف كان الطائر المهاجر الذى اصطادته البغى من نقطة ضعفه وهى تعبه وانكساره وخذلانه بعد أن تزوجت خطيبته من ابن عمه، وانكسر صولجانه!

الصياد هنا ليس امرأة، إنه المجتمع، وبمعنى أدق طبقة سياسية محددة، لأن

قد تكون رواية الشحاذ مزيجًا من واقعية قابلة للتأويل ومشحونة بالممكنات التى صهرت خاتمة الرواية ومصير البطل

احتكار السلطة وفق أدبيات السياسة العربية المعاصرة يتأسس على النبذ المتبادل وفلسفة الإقصاء والإعدام الرمزى إن لم يكن الإعدام العضوى متاحًا.. وقد يكون عيسى الدباغ نموذجًا محفوظيًا للبطل التراجيدى الإشكالى، فهو فاضل أيضًا لكن بمقياس آخر، يقاتل فى صفوف خصومه القدامى فى العدوان الثلاثى على مصر، ويعلن طلاقًا سياسيًا بائنًا بينه وبين الرفاق القدامى الذين رأوا فى العدوان خلاصًا من الثورة وفرصة للثأر ممن قاموا بها!

إن هذا التناوب على الفضيلة بين بغى تائبة وسياسى يعود إلى رشده الوطنى فى زمن الحرب، حد تعبير عن التوازن المحفوظى الذى لا يرى البشر موزعين بين ملائكة وشياطين، والنموذج الثانى، وهو نور، التى لاذ بها سعيد مهران الهارب فى اللص والكلاب، وجد فى فضيلة إيواء سعيد والإنفاق عليه وحمايته التعويض عن الرذيلة، وكما عثر عيسى الدباغ على فضيلة تحقق له التوازن غير سعيد مهران اللص والقاتل على فضيلته أيضًا، فهو لم يتخل عن البغى التى احتضنته، وربما كان إصراره على إحضار الدواء لها أحد أسباب العثور عليه، وكما أن الدباغ جلاد وضحية وملاك وشيطان فإن مهران أيضًا كذلك، إذ لولا تلك المواعظ التى كان يحقنه بها الطالب الذى أصبح صحفيًا مرموقًا لما وجد التسويغ الكافى لاحتراف السرقة.

إذن هناك عدالة، ومرجعية ضميرية - كى لا نقول أخلاقية - كانت على الدوام تحقق لمحفوظ توازنه، وبالتالى خروج شخوصه عن الثنائيات الحاسمة التى تحولهم إلى بيض وسود وأخيار وأشرار.

والمحور الثالث الذى لا يمكن لقارئ محفوظ وناقده أن يتخطاه هو دور مدينة الإسكندرية فى بعض أعماله، والإسكندرية جغرافيًا وثقافيًا وتاريخيًا مدينة متوسطية، تشتبك فيها عدة هويات هى أشبه بما وصفه لورنس داريل وهو يتحدث عن الأساطيل الستة فى بحرها. وكان الناقد محمود أمين العالم أول من رصد التعامل المحفوظى مع الإسكندرية، خصوصًا فى السمان والخريف، فهى تبدو كما لو أنها مخلوعة من السياق الحضارى والثقافى الذى تقع مصر فى صميمه، بل فى العمق منه، فهل الإسكندرية بما تعنيه كملاذ ومنفى لمن فروا إليها من أعباء الإخفاق فى القاهرة هى مدينة كوزموبوليتية؟ أم أن هناك فى اللاوعى ما يوحى بأنها هيلينية، فيها الكثير من أصداء غرب البحر المتوسط؟

أذكر مثلاً أن رواية داريل عن الإسكندرية تضمنت مقاطع صريحة عن التباس هوية المدينة، وحين تلتقط جوستين بطلة الجزء الأول من الرواية حبة زيتون من الإناء، تقول بأن نكهة غرب المتوسط بدءًا من اليونان قد انفجرت فى حلقها!

أما نسيم حصنانى، فكل ما يرد من قرائن حول شخصيته يجزم بأنه ثمرة خليط من الثقافات، بل هو خلاصة تلك الكيمياء التى ربطت شرق البحر المتوسط بغربه، لأنه جسد أقصى التلاقح وليس التلاقى فقط بين الحسية الوثنية والتجريد الفلسفى.

وحقيقة الأمر أن الإسكندرية فى روايات محفوظ التى اتخذت من المكان بطلاً، تلعب الدور ونقيضه فى آن، عيسى الدباغ بطل «السمان والخريف» يهرب إليها من ماضيه، وقد يكون نداء المستقبل هو ما اجتذبه إليها ليجرب حظه، لكن صابر الرحيمى بطل «الطريق» يفعل العكس، فهو هارب من حاضره الإسكندرى ليبحث عن أبيه الذى يرمز إلى ماضيه فى القاهرة، رغم أن العثور على الأب قد يعادل العثور على المستقبل المحلوم به!

ولا تتحول إسكندرية محفوظ إلى مكان عائم الهوية إلا فى ميرامار، البانسيون الذى يحتشد فيه شخوص يمثلون أهم الشرائح التى كان المجتمع المصرى ينوء بصراعاتها.. وحين يلتقى فى مكان واحد الإقطاعى المؤمم والعاطل بالوراثة والموظف فى القطاع العام والعضو فى الاتحاد الاشتراكى مع الصحفى الوفدى المتقاعد والشيوعى الحائر بين التوبة والاستمرار فإن هذا المكان سيتحول إلى مسرح يعج لا بالصراعات فحسب، بل بكل ما كان يمور به المجتمع الآخذ فى التحول، والذى يشتبك جديده مع قديمه.

ميرامار تشبه إلى حد ما رواية السفينة لجبرا إبراهيم جبرا، لأنها مكان شبه مطلق وغير محدد، فالبانسيون محطة فى الطريق إلى مكان ما.. رغم أن ما أوحت به ميرامار هو أن النزلاء مقيمون إلى الموت، لأنهم غادروا مساقط رؤوسهم ومساقط أرواحهم أيضًا، وانتهوا إلى انتظار غودو الذى يأتى فقط ليقول بأنه لن يأتى!

بالطبع لن يكون هناك تماثل بين إسكندرية كفافى وداريل وإسكندرية

أكاديمياً كان محفوظ محظوظاً بعدد الأطروحات المكرسة لإبداعاته، لكنه الأقل حظاً إذا احتكمنا إلى ما أضافته تلك الأطروحات، التي أكثر مؤلفوها أن يسلكوا الطرق المطروقة والمعبدة، بحيث لا يقع الحافر على الحافر فقط، بل ينطبق عليه

محفوظ، رغم أن التماس قائم، وثمة مراوحة على تخوم مدينة بحرية محررة من شروط اليابسة، وهنا أحب أن أشير إلى مسألة قد تبدو عابرة على صعيد الوعي، لكنها ليست كذلك على صعيد اللاوعي، وهي أن المصريين يسمون القاهرة مصر بحيث تبدو الإسكندرية بالتحديد مناخاً نفسياً واجتماعياً وثقافياً مغايراً!

وأية مقارنة بين العوامة كمكان مطلق في «ثرثرة فوق النيل» والبانسيون كمكان مطلق أيضاً في رواية ميرامار قرينا الفارق بين رؤيتين تعامل بهما محفوظ على المكانين.

«ثرثرة فوق النيل» يتجانس الشخوص رغم اختلاف المهن في الهاجس العبثي، وفي الاستسلام لرؤى عدمية، وحين يتولى حشاش محترف قيادة العوامة رغم أنه وصلها بالصدفة فإن معنى ذلك ببساطة هو أن العوامة ليست رمزاً لواقع فاسد، بل هي كثافته، وقد استطاع الروائي تقطيرها في شخوص، لهذا فإن «ميرامار» تملك من إمكانات المسرحة الروائية أكثر مما تملك «ثرثرة فوق النيل»، لأن التناقضات بين الشخوص تصل إلى أقصاها، بل يكون الموت من حصة أحد النزلاء، أما في «ثرثرة فوق النيل»، فالموت يحدث خارج العوامة وبعيداً عنها، عندما تسحق السيارة التي يركبها الشخوص جميعهم فلاحة في الطريق.. وبالعودة إلى مفهوم البغي الفاضلة فإن «ميرامار» تخلو من هذا النموذج، بل هي على العكس من ذلك تقدم زهرة الفلاحة الأمية الخادمة في البانسيون والهاربة من زواج قسري من رجل عجوز إلى رمز مشحون بالمناعة، وكان بمقدورها أن تقيم علاقات مع كل الزبائن بدءاً من طلبة مرزوق الإقطاعي الذي يعيش على الذكرى حتى العاطل بالوراثة.. هكذا يصبح لدى محفوظ نموذج لامرأة أفضل من البغي الفاضلة، وهي التي تقاوم شروط التحول السلبي والاستسلام بسبب الحاجة أولاً، والأمية ثانياً..

نوبل بأثر رجعي

نلاحظ أن الخطاب الاحتفائي بنجيب محفوظ منذ عام ١٩٨٨ مقترن على الدوام بفوزه بجائزة نوبل، وبإضافة صفة «العالمي» إلى اسمه، وهنا لا نستطيع الحديث عن نوبل وشجونها ونجيب محفوظ بمعزل عن ثلاث قضايا، الأولى، هي المفهوم الرائج عربياً لهذه الجائزة، والثانية تأرجح الموقف العربي منها سلباً وإيجاباً تبعاً لمن ينالونها في كل عام! والثالثة دورها الحاسم في سيرة محفوظ أكثر من دورها في أدبه.

القضية الأولى: تتلخص في الريبة التقليدية من كل ما يصدر عن الغرب بسبب العلاقة غير الصحية بينه وبين بلدان العالم التي كان ولايزال يحاول الهيمنة عليها والتهامها!

ولم يخفف إلى حد ما من هذا الإحساس قدر تعلقه بالجائزة سوى فوز أدباء آسيويين وأمريكيين لاتينيين وأفارقة بها، أي أنها لم تعد حكراً على النطاق الجغرافي للغرب.

أما تأرجح الموقف منها، فهو تبعاً لمن ينالونها، فحين نالها الصهيوني يوسف عجنون أحس المثقفون العرب أن هذا يشكل انحيازاً أيديولوجياً وقوة كولونيالية، خصوصاً حين أشارت الجائزة إلى اللغة الطقوسية وشبه الغاربة التي كتب بها عجنون وهي اليديشية.

وحين نال بعضها أنصاف أو أثلاث ساسة عرب، بعد إنجاز اتفاقيات سلام مع الدولة العبرية، تصاعدت وتيرة الارتياب وعلق البعض خصوصاً من الراديكاليين العرب قائلين إن الغرب لا يكرمنا ولا يعترف بنا إلا حين نلبي رغائبه، ويكافئنا على ما نرضيه به وليس على ما يرضينا.

لهذا كان فوز نجيب محفوظ بالجائزة بمثابة إعادة النظر عربياً بها، والأمر لا يخلو من نزعة برغماتية ليس هذا مقام السجال حولها..

وما كتبه الناقد والكاتب الكبير رجاء النقاش في كتابه «في حب نجيب محفوظ» حول نوبل وشجونها المحفوظية يستحق الاستذكار.. فهو يرى أن نوبل ظفرت بأدب طالما تجاهلته هو الأدب العربي، ونحن نضيف أن نجيب محفوظ إذا حذفت من سيرته جائزة نوبل لن ينتهي إلى كاتب عادي، فهو أنجز أهم أعماله قبل فوزه بالجائزة بعقدين على الأقل، وكان يستحقها قبل موعد منحها، لهذا قلت لإذاعة صوت أمريكا بعد خمس دقائق فقط من إعلان فوز محفوظ بالجائزة أن التوقيت يستحق التأمل، وهذا ليس انتقاصاً من جدارة محفوظ بالجائزة، بل إشارة إلى استحقاقه لها قبل الموعد وفي حقبة عربية لم تكن قد دجنت بعد سياسياً وثقافياً وعسكرياً واقتصادياً!



وأكثر ما يفتضح النرجسية العربية الجريحة هو النعوت التي تطلق على أمثال محفوظ تعبيراً عن الرغبة في الاحتفاء ومنها أنه شكسبير العرب، أو بلزاكهم أو ديستويفسكي مصر.. وهذا النمط من التفكير يعود إلى تراث استشراقي تحدث عنه بقسوة وإلحاح درامي اثنان على الأقل من ضحايا الكولونيالية هما مالك بن نبي وفرانز فانون، عندما رأى كل واحد منهما بطريقته أن الغرب الاستعماري زرع قبل رحيله صورة المستعمر (بفتح الميم) عن ذاته، فأوقعه في وعي سالب واغترابي.. ولا أظن أن الإنجليز قالوا يوماً بأن تشوسر أو جون دن أو إليوت هو متنبي بريطانيا، أو أن الفرنسيين قالوا بأن ديكارت هو ابن رشد فرنسا أو ابن خلدونها!

وهذه مسألة تستحق التأمل لأنها ليست موسمية أو عابرة، فحين أصدر غاتيان بيكون وبواديفير معجمين عن الأدب الفرنسي، قال أحدهما بأن اللغة الفرنسية هي الإمبراطورية الفرانكفونية البديلة، لهذا أطلق على الكاتبة اللبنانية ليلى بعلبكي اسم فرانسواز اللبنانية وعلى كاتب سوري اسم ألبير كامو السوري، وكان هؤلاء العرب مجرد ظلال أو أصداء، ناسين بأن التكرار قدر تعلقه بالإبداع هو مجرد كاريكاتور يذكرنا بما قاله ماركس عن عودة التاريخ مرة بصورة الكوميديا وأخرى بصورة التراجيديا..

ميتافيزيقا محفوظ ملجومة بعض الشيء ولا تمضي حتى النهاية، بحيث يبدو نجيب أقرب إلى أسلوب الغزالي في الشك منه إلى ابن رشد

إن نجيب محفوظ هو كما هو.. مصري وعربي يكتب بلغة ذات مرجعيات جمالية غير إنجليزية وغير فرنسية، لهذا يستحق أن يطلق اسمه على كاتب فرنسي أو بريطاني في مثل حجمه الروائي إذا تجردت النوايا من ألغامها!

وإلى أن يبلغ الوعي السالب رشده الحضاري وتشتعل الإرادة المرتهنة ونصف المشلولة، فإن المشبه به سوف يبقى هنالك في نطاق آخر، لأنه النموذج الذي يجب احتذاؤه حسب أدبيات المحاكاة وما ترسب من الثقافة الكومبرادورية بعد قرون من التبعية! والسؤال الذي تمليه علينا هذه المناسبة، هو هل بدأ الناس يتبلون على محفوظ بعد نوبل، أم أنها اجتذبتهم بسحرها لإعادة اكتشافه؟

إن الإجابة ليست متاحة لنا أو لسوانا بسبب التباعد الهائل بين قارئ وآخر، وبين ناقد انباعي يعيش على نشارة الكتب لا الخشب وبين ناقد اجتراحي مغامر..

فما كتب عن نجيب غداة فوزه بنوبل وعشية رحيله كثيرة احتفائي يليق بالرجل، لكنه لا ينتفع به، كما لا ينتفع به روائيون قادمون من المستقبل، وما قيل عن النقد الأشبه بالنحل يصدق هذه الأيام على نقدنا، فثمة نحل يعلف بالسكر المطحون، وثمة نحل يقطع آلاف الأميال بحثاً عن الرحيق، وشتان بين شهد وشهد.. وأخيراً بين شاهد وشاهد!

نعرف أن عالمية محفوظ هي المرادف أو المعادل الموضوعي لمحليته، فهو ا ستنطق حتى الحجر الأصم في معابد وبيوت وأسوار وقلاع مصر، ولم يكن يخطر بباله أن يكون عالمياً إلا عبر طريق واحد يفضي إلى العالمية، هو محليته، وتشبثه بجمرة المكان الذي سقط عليه رأسه في حي الجمالية، الحي المهور بأزمنة لا يمكن اختزالها بكاميرا سائح أو بسحابة بخور أو بنشيد ليلي مفعم بالنشيج المدائحي!

البحث عن الخلاص

إن غودو الذي ينتظر ثلاثة على الأقل من أبطال محفوظ قدومه للخلاص، لا يأتي

على الإطلاق رغم أنه يتجلى أحيانا فى مظاهر سرعان ما يروغ منها، فى الطريق، يكون الخلاص الموعود عن طريق الأب سيد الرحيمى الذى زرع البذرة واختفى، لهذا يلوح الأب للابن الضال فى سيارات مسرعة وملامح بعض المارة. لكنه يبقى كينونة مشتتة لا تلتئم فى أى سياق آدمى.

وقد يكون البحث عن زعبلاوى فى دنيا الله أوضح بكثير من الطريق لأن زعبلاوى ليس مجرد أب موسر ينتقل بين العواصم والنساء، إنه بكل ما يرمز إليه ذو صلة ما بالغيب. وهناك قراءة نقدية لزعبلاوى قدمها كاتب إسرائيلى هو ماسون سوميخ، الذى ينتهى إلى القول بأن نجيب محفوظ أنجز نصا هو بمثابة إعادة إنتاج للخبرة البشرية، لكن عبر الواقع فى بعده المحلى، وكان الناقد ماهر شفيق فريد قد أشار إلى هذه الدراسة فى مقالته عن محفوظ ضمن العدد المكرس لمناسبة بلوغ محفوظ الرابعة والتسعين فى مجلة «الهلال» عدد ديسمبر ٢٠٠٥.

لكن دراسة سوميخ هذه تبقى فى النطاق الاستشراقى لأنها تلتقط من القصة مفردات وإيحاءات ذات مدلول صوفى فى الثقافة العربية، وإذا كان أحد أساتذة علم النفس فى جامعة الأزهر قرر رواية الشحاذ نموذجا للرواية السايكولوجية، فإن قصة زعبلاوى جديرة بذلك لأنها مشحونة بهواجس الوجود وسؤال الحياة البكر والجذرى..

والجرثومة التى أصابت البطل زعبلاوى وحولت حياته إلى بحث مستمر عن خلاص أو سلفادور بالمفهوم الدينى أصابت بطل الشحاذ، بحيث كانت حياته تسير على وتيرة رتيبة، ولا يشكو من شىء إلا الضجر، فجرب العبث بكل وسائله، وتنقل بين النساء ليكتشف أن المرض العضال الذى قضم عافيته الروحية لا شفاء منه، ومن خلال ثلاثة نصوص على الأقل لنجيب محفوظ حول سؤال الوجود ودهشة الحياة والضياع الآدمى فى زحام هذا الكون يتضح أن الرجل كان يكظم مكابدات حقيقية تتعلق برؤاه حول العالم والخلق وأسرار الوجود، لهذا تبقى شهوة القيامة ملازمة لأبطاله الذين يشعرون بأنهم من البشر الفانين، لكنها قيامة تأخذ أحيانًا بعداً رمزيا وتختفى أحيانًا أخرى وراء التماهى مع نماذج عليا، ذات وهج عقائدى أو جاذبية تاريخية!

من هنا يمكن مقاربة نصوص



محفوظية مع نصوص روائية ومسرحية كتبت فى أوروبا فى فترة ما بين الحربين العالميتين، فما كان لأبطال مالرو وكامو وسارتر أن يكونوا على ما هم عليه من إشكالية وتمزق ومراوحة بين اليقين والشك، لولا أن أوروبا مرت خلال نصف قرن بحربين عالميتين دمرتا من المعانى والمنظومات القيمية أكثر مما دمرتا من القلاع والمبانى.

وقد يذكرنا أبطال العوامة فى «ثرثرة فوق النيل» بمسرحية جلسة سرية لسارتر التى ترجمت بعنوان الحلقة المفرغة: حيث يجد عدد من الأشخاص أنفسهم سجناء فى مكان مغلق، وعليهم أن يمارسوا حياتهم على مرأى من بعضهم، بحيث أصبح كل واحد منهم يشعر أن الجحيم هو الآخر.

أبطال العوامة لا يستيقظون من سباتهم وغيبوبة الحشيش حتى بعد ارتكاب جريمة جماعية هى سحق الفلاحة الشابة أثناء القيادة النزقة للسيارة الفارهة، وكان لابد من شاهد صامت يفتضح عريهم الأخلاقى وعدميتهم سواء كان الصحفية المغامرة أو «أنيس» زعيم مملكة الحشيش فى العوامة.

ولا أدرى لماذا ذكرنى هذا الفارق بين أبطال الحلقة المفرغة لسارتر وأبطال العوامة بمقالة بالغة الأهمية كتبها سلامة موسى ذات يوم عن بيجماليون الحكيم وبجماليون شو.. وكان قد توصل إلى سمة أساسية فى العقل الشرقى أو بمعنى أدق فى الثقافة الشرقية كى لا نسقط فى فخ المصطلح الاستشراقى العرقى من خلال المقاربة بين أسلوبى توفيق الحكيم وبرنارد شو!

إن ميتافيزيقا محفوظ ملجومة بعض الشىء ولا تمضى حتى النهاية: بحيث يبدو نجيب أقرب إلى أسلوب الغزالى فى الشك منه إلى ابن رشد. لأن جاذبية الإيمان سواء كانت للعجائز أو للفتيان لم تضعف فى مجمل أعماله: وقد يعود ذلك إلى سببين أولهما التكوين الروحى والنفسى والثقافى لنجيب الذى ولد فى حى ممهور بنداءات الصوفيين، وثانيهما الاحتراز القطرى من محاكم تفتيش غير معلنة، لكنها قابلة للظهور إذا وجدت مناسبة، وهذا ما حدث مرارا منذ قرون: وبالتحديد ما حدث فى النصف الأول من القرن العشرين مع عبدالرازق وطه حسين وآخرين! حيث كانت التوبة شرط البراءة والتوبة ليست بمعناها الفقهى، بل بالمعنى الذى صاغه الاتباعيون بعد أن حذفوا منه هامش التسامح!

الديوث الراذل

النقيض المحفوظى للبغى الفاضلة هو الديوث الراذل أو غير الفاضل، وقد يظهر الديوث أو بمعنى آخر أكثر تداولاً (القواد) فى بعض الأعمال وقد أقصى إلى هامش ثانوى. لكنه فى «القاهرة ٣٠» يصبح البطل، الذى أضافت له السينما قرنين تناغماً مع المفهوم الشعبى: قد لا يراهما الآخرون، لكن محجوب عبدالدايم يراهما بوضوح، خصوصا عندما يختفى وراء باب العمارة كى لا يراه ولى نعمته الذى يعاشر زوجته بعلم منه: بل بمباركة منه.

محجوب عبدالدايم نموذج يثرى يصلح للتحليل النفسى: لأنه حزمة من المكونات المتضاربة التى تصهرها فى النهاية كيمياء الوظيفة وقوة الحاجة، وإذا كان من السهل العثور على الضحية فى الفتاة التى تزوجها محجوب رغماً عنه، لأنها عُرضت للبيع، فإن مساحة الضحية فى شخصية محجوب تبقى ضئيلة: بل تنحسر حتى توشك على التلاشى بعد لقائه الدراماتيكى بأبيه الذى يضبطه متلبساً بالعار والكذب معا!

وبشىء من التحوير والتوسع يمكن لشخصية الديوث أن تستوعب شخوصا كانت بضاعتهم السياسة ودم الناس وليس المرأة فقط.. سرحان البحيرى فى ميرامار ديوث سياسى، خدع الدولة والمرأة سواء كانت ريفية ساذجة أو راقصة محترفة، ثم خدع نفسه أيضا وسرق، وخدع العمال الذين كانوا يرون فيه أمثولة فى النضال والصدق من خلال انتسابه للاتحاد الاشتراكى وهو حين يقتل مرتين: مرة بالانتحار وأخرى بالركل على الرأس من الفتى الماركسى، لا يشبه «كانكان» العوام الذى مات مرتين فى إحدى روايات آمادو.. لأن الموت المزدوج بالنسبة لسرحان كان بمثابة عقاب مزدوج من الذات والآخر.. إن مجمل السياقات التى يرد فيها دور الديوث عند محفوظ تخضع لموقف أخلاقى: وبالتحديد لمثقف هو ربيب الطبقة الوسطى المصرية لا يفلت على الإطلاق من المحددات والمرجعيات والأعراف إلا ليعود بعد قليل، وهذا ما يسميه البعض الاعتدال أو الوسطية عند نجيب محفوظ: فالليبرالية كموقف عام وسياسى أحيانًا لها معادل اجتماعى وأخلاقى! وإفادة علم النفس من منجز محفوظ الروائى ليست مجالاً للسجال، فمن المعروف أن أبطال ديستويفسكى استبقوا علم النفس الإكلينيكى بأوضاعهم الإشكالية وكينوناتهم القلقة ولدى نجيب محفوظ كائنات كتبت رسائلها أيضا من أعماق الأرض أو من العالم السفلى: لكنها لم تصل إلى المرسل إليه.. وهو حين يتعاطف على نحو مضمر وبالغ الخفاء مع النماذج الشاذة، فذلك لقناعته بأنهم أيضا ضحايا، سعيد مهران ضحية رغم كونه مجرما، وكذلك نور وزيرى ومحجوب

نساء رواياته نماذج متباينة حد التضاد باستثناء الأم، وذلك لهدف محدد هو توضيح خطوط الطول والعرض الأنثوية فى واقع ملغوم بالتناقضات وتحكمه أيديولوجية ذكورية

الإسكندرية في روايات محفوظ التي اتخذت من المكان بطلاً، تلعب الدور ونقيضه في آن، عيسى الدباغ بطل «السمان والخريف» يهرب إليها من ماضيه، وقد يكون نداء المستقبل هو ما اجتذبه إليها ليجرب حظه

عبدالدايم، لأن المجتمعات تستحق ما تفرزه من المجرمين والقضاة، كما يقول أحد الفلاسفة..

كتابة المكتوب وآفة الاختزال

إذا كان النقد موازيا للإبداع، يسلفه بدلاً من أن يقترض منه حتى الإفقار، فهو بالشمل كما وصفه جراهام هيو العصى القابع في قعر النهر وليس النهر، وقد لا يكون مبدعونا الكبار محظوظين بالنقد الذي يجدر بإنجازهم، وهناك ظاهرتان يمكن رصدهما حول ما أسميه كتابة المكتوب وآفة الاختزال.. الأولى، هي النأي قدر الإمكان عن المغامرة لأنها تجازف بالتورط بطرقات غير معبدة، والثانية هي ما أشار إليه د. مصطفى حجازي في كتابه القيم «سيكولوجيا الإنسان المقهور» ومن أهم سمات هذا الإنسان النزوع إلى الاختزال.

ويضرب مثالاً بالمرأة التي تختزل من كائن إلى جنس، وبالتالي إلى عضو ومن ثم إلى وظيفة، وهناك فيض من الكتابات عن نجيب محفوظ يتناول المرأة والعامل والسياسة والتاريخ والجريمة في أعماله على نحو تجزيئي أي بلا سياقات رؤيوية، وهذا النمط البدائي من النقد يخلو من الاستبصار بمعنى ربط الأجزاء والتوصل إلى الفائض الناتج عن حاصل جمعها.

وهنا يمكننا بقدر من التعميم المبرر ولو على صعيد إجرائي أن نضع التجزئة مقابل التفكيك، أو الحفريات التي تستفيد من منجزات العلوم كلها بدءاً من الأناسة حتى علم النفس الاجتماعي.

وهناك كتابات أخرى عن محفوظ تستلهم آراءه سواء في مقابلات أو مقولات متداولة في المقهى، وحقيقة الأمر أن ما قاله أحد النقاد وهو: لا تثق بالقاص وثق بالقصة يصدق على نجيب محفوظ، كما يصدق على أمثاله، فأحيانا يكون التضليل البريء تحريضاً على المزيد من الكشف وأحيانا تملي ظروف سياسية أو اجتماعية على كاتب يعيش تحت إضاءة ساطعة أن يصرف الانتباه عن موقف ما.. فما أراد محفوظ أن يقوله قاله سرداً روائيا وقصصياً، وعلى ناقده أن يبدأ من مصدره الخاص، بعيداً عن عكازات مستعارة من أحاديث ومقابلات ودردشات!

فلو أخذنا للمثال فقط رواية «حضرة المحترم» فإنها تنطوي على بعد من السيرة الذاتية لموظف محترم، وما يسمى نقد البيروقراطية المترسبة من عهود العثمنة في هذه الرواية يغفل بعداً نفسيا بالغ الأهمية، وأزعم أن هذه الرواية خطرت ببالي على الفور بعد قراءة كتاب موريس عن القرد العاري.. لأن الموظف بمعناه التقليدي يصلح مدخلاً للعثور على ما يسمى الحلقة المفقودة في الداروينية المؤولة سيكولوجيا، واستغرب كيف لم تجد استراتيجية التسمية، وهذا المصطلح يعود للكاتب مطاع صفدي حيث أصدر كتابا بهذا العنوان، مجالاً رحباً في أعمال محفوظ خصوصاً عندما ترد بعض الأسماء للتضليل وعلى نحو مضاد لمعانيها المتداولة والمعجمية.. قاسم أمينة عندما يرد في الثلاثية يكون مطابقا للنموذج، لكن أسماء سعيد سعيد ونور وكامل تعني عكسها تماما في «اللص والكلاب» و«السراب»، حتى اسم الفندق الذي يخونه أحد العاملين فيه ويهرب زبائنه إلى بانسيون ميرامار هو «الأمين»، كي تكون المفارقة ساطعة الدلالة، وقد يبدو الإفراط في التأويل تقويلاً قسريا للنصوص، أو على طريقة بروكوست الإغريقي الذي كان يعذب ضحاياه: فيبتر سيقانهم إذا غاضت عن السرير ويمطها إن قصرت.. لكن العمل الإبداعي كما وصفه برادلي متعدد، وقابل للتكاثر وقد يصبح مع مرور الزمن بعدد القراء أنفسهم لأنه ليس مجرد بصلة تقشر بحثا عن لب قد لا يكون موجوداً. ولعل أسوأ ما تورط به النقد الاتباعي في ثقافتنا هو التأنق النظري، الذي يعقبه تعثر عندما يترجل الناقد عن المنصة



النظرية إلى النقد التطبيقي، وهذا ما شعرت به ذات يوم في ندوة عقدت في الرباط المغربية حول نجيب محفوظ ويحيى فوزه بنوبل، فقد لاحظت أن المشاركين يتراشقون بمصطلحات فرانكفوتية وأنجلو ساكسونية تبعاً لاختلاف المرجعيات ومحفوظ خارج المدار.

النجيب والأنجب!

راجت قبل ثلاثة عقود مقولة ليست من النقد في شيء، وقد تكون مستعارة من أدبيات السباق، هي أن قامة روائية باسقة كقامة نجيب محفوظ تحولت إلى عقبة كأداء أمام الروائيين العرب، بل حاصرتهم من الأفق، ومن المستقبل أيضاً، لأن قدرهم هو الارتطام بأفقه الروائي.. ولا أظن أن نجيب محفوظ كان سعيداً بهذه المقولة لأنه كمبدع كبير يعي بأن جزءاً أصيلاً من دوره هو أن ينتج من معطفه من سيصبحون ذات يوم أطول



قامة، لكن حسب المعنى الذي قصد إليه بول فاليري وهو يؤبن أندريه جيد، فقد قال إن من هم أطول قامة منه.. إنما يجلسون على كتفيه فهو يحملهم كما يفعل الآباء مع أبنائهم.. ولن يتقلب نجيب محفوظ ذات يوم في قبره إذا علم بأن بلاده ولدت الأنجب، لأنه من معطفه الروائي أولاً، ويشكل قامته الإبداعية ثانيا!

أما أن يتكرر نجيب محفوظ على النحو الذي يحلم به أسرى إبداعاته وسيرته ورؤاه، فذلك أمر ليس مضاداً فقط للتاريخ، بل للإبداع أيضاً، وليس المطلوب في ثقافة تودع واحداً من أعز رموزها أن ترتجي تكراره، لأنها عندئذ تعتدي عليه مرتين.. مرة لأنها تريده أن يكون شاحبا ومضجراً أو فاقداً لمغناطيسيته، ومرة لأنها تحكم بالإعدام على القادمين، وما نقوله هنا لا ينتقص مقدار أنملة من مكانة الرائد العظيم، الذي عرب فن الرواية بامتياز، وحرره من التعريف الذي يحتكره بين قوسين.. فالرواية بعد محفوظ لم تعد ملحمة البرجوازية الأوروبية فقط، كما قال جورج لوكاتش، إنها ملحمة الطبقة الوسطى المصرية، والعربية إلى حد ما، رغم أن هذه الطبقة شهدت غسقها قبل أن يشهد شاهدها غسقه، وقد تكون سبقته في تابوت بسعة قارة!

أخيراً، بل أولاً وهذا ترتيب يليق بالرائد الذي اجترح أفقا عربيا للرواية فإن من كتبوا عنه بوصفه خصوصاً من سدنة الثقافة الرسمية، جعلونا نشعر بأنهم يعتذرون عن عدم قراءته، فأهمية محفوظ يعرفها من قرأوه حياً وتابعوا إقلاعه حتى اختفى بين الغيوم.

لهذا نتمنى أن يكون هذا الرحيل العاصف درساً لكي لا نرثي «نجيبنا» وننكل بالنجباء الأحياء على امتداد العالم ومنه هذا القوس الملتهب الذي يسمى الوطن العربي وهو في حقيقته المنفى العربي، حيث يغترب الناس في عقر دورهم، وحيث ينقسمون إلى من ينتظرون البرابرة تحت الأسوار ومن يقاتلون البرابرة حتى الموت!

إن من شاركوا في جنازة محفوظ عن بعد يتيح لهم رؤية المشهد على نحو بانورامي لابد أنهم لمحوا أبطاله وهم يتسللون إلى الجنازة ويختطفون التابوت، كي يحولوا دون دفنه، فكرامة الروائي إذا كان من طرازه هي في نشره وقيامته المعرفية وليست في دفنه!! ■

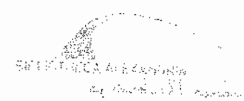




فـــــــاروق عبد القـــادر

عن «الأصداء» و«الأحلام»

إن ضاق الخارج بقى الداخل رحبا ثريا



ليست هناك «انقلابات» فى إبداع نجيب محفوظ. بعبارة أخرى: إن إبداعه يجرى متدفقاً، مثل نهر تحدد الشطآن مجراه، قد تتمايز فيه موجة أو موجات، لكنها تبقى متصلة بما سبقها، مفضية لما تلاها

** عندى، فإن الأعمال الإبداعية لنجيب محفوظ يمكن أن تندرج فى «منظومات» أربع كبرى: تبدأ الأولى بروايته الأولى «عبث الأقدار، ١٩٣٩»، وتنتهى إلى ثلاثية «بين القصرين» (فرغ من كتابتها فى أبريل ١٩٥٢، لكنها لم تنشر كاملة إلا فى ١٩٥٧)، الثانية تبدأ «بأولاد حارتنا» (نشرت مسلسلة فى ١٩٥٩، وصدرت طبعتها الأولى فى بيروت فى ١٩٦٦)، وتنتهى إلى «ميرامار، ١٩٦٧». الثالثة تبدأ برواية «حب تحت المطر، ١٩٧٣» وتنتهى إلى «قشتمر، ١٩٨٩». وأعتقد أن أعمال عقد التسعينيات وما بعده تمثل المنظومة الأخيرة ويتميز فيها عملان. هما موضوع هذا الحديث.: «أصداء السيرة الذاتية» (نشرت مسلسلة فى ١٩٩٢، وصدرت كاملة فى ١٩٩٦). و«أحلام فترة النقاهة» (وهذه لها حكاية صغيرة: منذ أصبحت مجلة «نصف الدنيا» القاهرية هى المسئولة عن نشر أعماله، أصدرت ثلاث مجموعات: أسمت الأولى منها «كتاب القرن» ووصفته بأنه «يضم ٥٩ قصة آخر ما كتب صاحب نوبل (٢١/٢/١٩٩٩)، والثانية والثالثة تضمان «أحلام فترة النقاهة»، واحدة فى نهاية ٢٠٠٠، والثانية بعدها بعام. ومازالت المجلة المذكورة توالى نشر مجموعات «الأحلام» (المجموعة الأخيرة منها صدرت فى ٣/٩/٢٠٠٦)، غير أن هذه الإصدارات - على وجه العموم - تفتقد الدقة، كما أن الأخطاء الطباعية الكثيرة التى تحفل بها، تزيد من عدم اكتمالها وصعوبة اعتبارها نصوصاً «معتمدة Standerdised» لهذه الأعمال، والطبعة المعتمدة فى هذه القراءة هى الصادرة عن «دار الشروق» فى ٢٠٠٦، وتضم مائتى حلم، أضيفت لها ست أخرى، نشرت - للمرة الأولى - فى ديسمبر ٢٠٠٥.

وعندى أيضاً، فإننى أفضل استخدام كلمة «منظومات» بدل «مراحل» التى دأب النقاد على استخدامها، فهذه الأخيرة قد توحى بوجود «انقطاع» أو «انفصال» بين المرحلة والتى تليها، كأن المؤلف قد أغلق درجاً وفتح درجاً آخر، وكل مغلق على ما فيه، ولا صلة له بالدرج الآخر، وليس هذا التصور صحيحاً، وليست هناك «انقلابات» فى إبداع نجيب محفوظ. بعبارة أخرى: إن إبداعه يجرى متدفقاً، مثل نهر تحدد الشطآن مجراه، قد تتمايز فيه موجة أو موجات، لكنها تبقى متصلة بما سبقها، مفضية لما تلاها، قد تعترض هذا المجرى عقبات موضوعية، فيتوقف زمناً، أو يتخذ مسارب أخرى كى يواصل التقدم (لمزيد من التفاصيل عن هذه المنظومات وسماتها وعلاقاتها بالواقع، راجع - من فضلك - : «نفحات من عطر نجيب محفوظ» فى «فى الرواية العربية المعاصرة» كتاب الهلال، سبتمبر ٢٠٠٣).

كلمة «أصداء» تشير إلى صميمه: إنه لا يقدم سيرته أو أحداث حياته، لكنه يقدم انعكاسات تلك الأحداث على عقله وروحه ووجدانه

ولحسن قراءة أعماله الأخيرة، علينا أن نضع فى اعتبارنا ما أصبح عليه خلال العقد الأخير من حياته، وربما أكثر قليلاً: وهَن منه السمع والبصر وهناً شديداً، ثم جاءت تلك الحادثة الرهيبة التى تعرض لها فى أكتوبر ١٩٩٤ لتزيده وهناً على وهن: فأصبحت يمناه عاجزة عن الإمساك بالقلم، إضافة إلى ما تركته طعنة الخنجر فى روحه من آثار دامية (وهو ما يبدو واضحاً فى أحلامه، كما سيجىء)، وفى نظام حياته الذى اعتاده لأكثر من خمسين سنة، فقد شُددت عليه الحراسة حتى أصبح عاجزاً عن الخروج فى مشواره الصباحى المعتاد (حدث بعض خلصائه أنه يظل يمشى داخل شقته الصغيرة جيئة وذهاباً حتى ينال منه التعب!).

بعبارة ثانية: إنه أصبح عاجزاً عن كتابة أعماله، فهو يمليها على غيره، ثم إنه لا يراجع تجارب الطباعة كما اعتاد، لهذا نجد أخطاء طباعية عديدة فى أعماله الأخيرة، بل إن إحدى مقطوعات «أصداء السيرة..» تتكرر بنصها دون أن يلتفت إليها أحد من مراجعيها («القبر الذهبى» ترد فى صفحة ٤١، ثم تتكرر بنصها فى صفحة ١٣٤). إن نجيب محفوظ أبدع أعماله هذه فى ظل أقسى الشروط الإنسانية لمبدع كبير.

إذن: وهَن منه السمع والبصر، وضاقت معرفته بالعالم الخارجى وبالواقع من حوله: إلا ما يترامى إليه منهما عن طريق جلسائه، وهو قليل، وغير محايد بالضرورة، فماذا بقى له؟ الجواب فى عمل من أعمال نهاية الثمانينيات: فى «صباح الورد، ١٩٨٨» يكتب: «إنها لنقمة أن تكون لنا ذاكرة، لكنها أيضاً النعمة الباقية..» وأكاد أضيف: والوحيدة أيضاً، فمن معين تلك الذاكرة يمتح نجيب أعماله الأخيرة: إن ضاقت معرفته بالخارج، بقى له الداخل رحباً ثرياً..

من هنا تأتى «أصداء السيرة الذاتية» فى مكانها تماماً. وقد كانت قضية السيرة الذاتية دائماً قضية مثارة وسؤالاً مطروحاً بين نجيب ومحاوريه، وكانت إجاباته عن السؤال تأتى حسب تقديره لصاحبه وحسب حالته المزاجية حين يُطرح السؤال. فى مرة قال لى: «أنا من عائلة معمرة، ولست أحب أن أسىء لأحد.» ولم يقنعنى الجواب بطبيعة الحال، إذ لماذا يتحتم أن يسىء كاتب السيرة لذويه؟ وهل من الضرورى أن يفعل الجميع ما فعل لويس عوض حين كتب «أوراق العمر» وخُيل لكثير من قارئيه أنه لم يكتبه إلا تصفية لحُسابات قديمة ظلت معلقة فوق رأسه بينه وبين بعض أفراد عائلته؟ ومرة أخرى قال لسائله: (لا تنس أنه ابن بلد قاهرى، ومن سماته أن يزوغ من المأزق بالنكتة): «وماذا يجديكم لو قلت لكم إن حياتى كانت، زمناً ما، «هلساً وصرمحة»؟» ثم أطلق ضحكته الممتدة.

وأقول لك - من البداية - إنك لن تجد فيها «سيرة ذاتية» لصاحبها، فلا تتوقع أن يقول لك - كما يقول كتاب السير فى العادة -: «ولدت لخمس خلون من شهر كذا عام كذا...» فسيرة نجيب - بهذا المعنى المباشر - منتشرة - مثل أشعة الشمس -



تتخلل الكثير من أعماله (أشير - بوجه خاص - إلى الجزء الثانى من الثلاثية: «قصر الشوق، ١٩٥٧» و«المرايا، ١٩٧٢»، ثم هذا العمل من نهاية الثمانينيات «قشتمر، ١٩٨٩»، وفى هذا الأخير يحدثنا الروائى عن التكون الوطنى والسياسى والفكرى والعاطفى له ولجيله، فكل أبطاله مولودون فى عام واحد: ١٩١٠، وهم يحتفلون - زمن الكتابة - بانقضاء سبعين عاماً على بدء صداقتهم، أما حياته الوظيفية، أو حياته فى الوظيفة، فإنك واجدها فى عدد كبير من الأعمال كذلك، وإن كانت «حضرة المحترم، ١٩٧٥» تحظى بأهمية خاصة فى هذا السياق).

وكلمة «أصداء» فى عنوان العمل تشير إلى صميمه: إنه لا يقدم سيرته أو أحداث حياته، لكنه يقدم انعكاسات تلك الأحداث على عقله وروحه ووجدانه. إنه يصفيها ويستقطر دلالاتها ويستخلص دروسها ومعانيها، ثم يصوغها تلك الصياغة الخاصة. أكثر من مائتى مقطوعة (٢٢١ على وجه التحديد، قد لا يتجاوز أطولها الصفحة الواحدة، وقد تقف عند السطر أو السطرين) يلخص فيها الكاتب ويركز ويكثف ويوجز رؤيته للحياة والناس. وفى عقد ينتظم أكثر من عشرين ومائتى حبة: أليس طبيعياً أن تجد بينها كثيراً من الجوهر الحر الكريم، وألا تخلو - كذلك - من حبات زائفة وأصداف فارغة؟

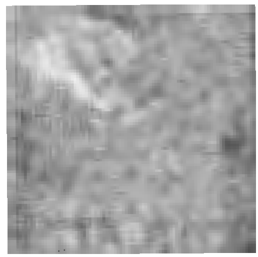
النصف الأول منها ينطلق فيه الراوى حراً يحدثنا بما رأى وسمع وعرف وتذكر وحلم وتخيل، حتى يظهر «الشيخ عبد ربه التايه» فى النصف الثانى على وجه التقريب (أول ظهوره فى المقطوعة الخامسة عشرة بعد المائة)، ويقدمه لنا الراوى: «كنا نلقاه فى المقهى أو الطريق أو الكهف، وفى كهف الصحراء يجتمع الأصحاب، حيث ترمى بهم فرحة المفاجأة فى غيبوبة النشوات، فحق عليهم أن يوصفوا بالسكارى، وأن يسمى كهفهم الخمارة، ومنذ عرفته داومت على لقائه ما وسعنى الوقت وأذن لى الفراغ. إن فى صحبته مسرة، وفى كلامه متعة، وإن استعصى على العقل أحياناً...». وقدم الراوى إليه صديق خطاط (اقرأ: فنان) بعد أن اخترقا صحراء المماليك إلى الكهف (يأبى نجيب الابتعاد عن أرضه الأثيرة، وإن فى خرج من قلبها فإلى أطرافها، وقد لا ننسى أن فى هذه الصحراء ذاتها دارت معظم معارك «ملحمة الحرافيش، ١٩٧٧»). من هذه المقطوعة سوف يشغل عبد ربه مكان الراوى، وتأخذ المقاطع كلها ذلك الشكل الأدبى الذى عرفه الإغريق باسم «الابيجرام Epigram»، والكلمة - فى معناها الأصلى - تعنى الكتابة بالنقش البارز، لكنها أصبحت تطلق على قول يتسم بالبلاغة والإيجاز، وعادة ما يكون ساخراً لاذع السخرية، سواء جاء شعراً أو نثراً، وأقرب وصف له ما جاء فى «ابيجرام» شهير يشبه هذا الشكل بالنحلة: ذات جسم رشيق دقيق جميل، لكن فى ذيلها

لسعة حادة. وقد مارس هذا الشكل كتاب غربيون قدامى ومحدثون كثيرون فى الآداب الإنجليزية والفرنسية والألمانية وسواها، وكانوا - عادة - يقسمون «الابيجرام» - حسبما قال المسرحى والشاعر والناقد الألمانى ليسنج (١٧٢٩ - ١٧٨١) إلى جزءين: الأول يلفت انتباه القارئ، والثانى يفاجئه بقول غير متوقع (ساخر فى الغالب).

وفى أدبنا العربى سبق أن حاول هذا الشكل طه حسين فى كتابه «جنة الشوك» ١٩٤٥، وكتب فى تقديمه: «الذين يقرأون ما أذعت فى الناس من الكتب.. يستطيعون أن يتبينوا - فى وضوح وجلاء - أننى أستجيب حين أكتب - وحين أكتب فى الأدب خاصة - لشيئين اثنين: أحدهما ما أرى أو أجد من عاطفة وشعور، والآخر امتحان قدرة اللغة العربية على أن تتقبل فنونا من الأدب لم يطرقها القدماء...» وكان هذا الأخير دافعه لكتابة «ابيجراماته» التى كان يبدأ كلاً منها بجملته التى أصبحت شهيرة: «قال التلميذ الفتى لأستاذه الشيخ...».

هكذا إذن: سيصبح الراوى هو التلميذ الفتى، وعبد ربه أستاذه الشيخ. فماذا فى مصفى النص: ما يرويه الراوى عن نفسه، وما يرويه عن شيخه؟ لن يجدينا، وليس بوسعنا - بطبيعة النص ذاته - أن نقف عند كل مقطع من مقاطعه، لكننا نتلمس أهم الألحان المترددة فى النص كله، أو «البنى» المتكررة فيه. ومن البداية سأله الشيخ: «ماذا يدفعك إلينا؟ فقلت بعد تردد: أكاد أضيق بالدنيا، وأرجو الهرب منها...» فقال بوضوح: الدنيا محور طريقتنا، وعدونا الهروب.» تلك البداية سوف تتكرر فى صياغات مختلفة. ولكن: ماذا فى الدنيا جدير بأن يصبح موضوعا للحب؟ مرة ثانية: «سألت الشيخ عبد ربه عما يقال عن حبه للنساء والطعام والشعر والمعرفة والغناء، فأجاب جاداً: هذا من فضل الملك الوهاب...».

وما أكثر ما قاله الراوى وشيخه فى المرأة والحب! أسوق لك أمثلة قليلة، وأحيلك إلى الباقى: «سألنى صديقى الحكيم عن حلم لا أنساه فقلت: وجدتنى فى خمارة وسط جماعة من أهل الخير والبركة، نشرب ونغنى. وسأل سائل: ترى من يكون صاحب الحظ السعيد؟ وانزاحت الستار المسدلة على باب الخمارة، ودخلت امرأة عارية تموج بوحيق الحياة وفتنتها، ووقفنا ذاهلين ننظر وننتظر، واتجهت المرأة نحوى حتى التصقت بى وحلت عقدة شعرها المعقوص، فانصب حولنا كموجة عاتية



فغطانا، وشمل الجميع بسعادة شاملة، أنشدنا معا: بشرى لنا: تلنا المنى...» وأكثر من مرة يوجز الشيخ رأيه فى الحب فى كلمات قليلة، فمرة يقول: «الحب مفتاح أسرار الوجود...» وأخرى يقول: «خفقة واحدة من قلب عاشق جديرة بطرد مائة من رواسب الأحزان...» وثالثة: «كنا فى الكهف نتناجى حين ارتفع صوت يقول: أنا الحب: لولاي لجف الماء وفسد الهواء وتمطى الموت فى كل ركن...» (راجع كذلك: «هيمان» ص ٤٨، «الثابت والمتغير» ص ٧١، «شكوى القلب» ص ٨٦، «مأوى النعمة» ص ١٠٠، «الرقص فى الهواء» ص ١١٠، «الواعظة» ص ١٢٠، «لقاء فى الظلام» ص ١٣٧، وسواها).

مع الحب يأتى الفن. ومادمنا فى رحاب المتصوفة نسير سهراتهم وننشد أناشيدهم ونتناجى بنجواهم ونستخدم قاموسهم، فالفن يأخذ شكل السماع والطرب. انظر لهذه المقطوعة «يا له من زمن، زمن الطرب! ترسل الحناجر الذهبية أنغامها فتنتشر النشوة كالشذا الطيب النفاذ، وتتخلق فى حالة الطرب امرأة جميلة تعشقها القلوب البيضاء، لكنك لا تعثر لها على أثر فى غير دنيا الطرب، لقد اختارت قلب الطرب مكانا لها لا تبرحه...» كذلك: «حدثنا الشيخ عبد ربه فقال: أغرتنى نشوة الطرب ذات مرة بالتمادى فى الطرب حتى طمعت أن أثب من الطرب الأصغر إلى الطرب الأكبر فسألت الله أن يكرمنى بحسن الختام، عند ذلك همس فى أذنى صوت: لا بارك الله فى الهاربين...» (راجع كذلك: «عبير من بعيد» ص ١١١، «خطبة الفجر» ص ١٤٩، «الطائر الأخضر» ص ١٥١، «الغناء» ص ١٥٤، وسواها).

ولكن.. لا تحسبن الشيخ وصاحبه يدعوان إلى التضرع للحب والفن، أو العشق والطرب، بل إن العمل قيمة كبرى فى عالم الأصداء؛ قال لصاحبه العاكف على العبادة كأنه يعتذر: «فى زحمة هموم أسرتى ومطالب الشئون العامة ضاع عمرى فلم أجد وقتاً للعبادة...» فى تلك الليلة زاره فى المنام من أهدى إليه وردة بيضاء وهمس فى أذنه: «هدية لا يستحقها إلا العابدون الصادقون...» والمرأة الجميلة «ست الحسن» لا ترحب بمن يجيئون إليها هاجرين عملهم فى السوق، وهذا الراوى يقول لشيخه إنه يرحب بتعب عام متصل، لكنه يضيق بعطلة شهر واحد، فيجيب شيخه: «طبعنا على حب الحياة وكره الموت...» وفى نهاية الأصداء يهنئ الشيخ مريديه: «هنيئا لمن قام بواجبه فى السوق وتحدى الكدر» بعبارة من عندنا: من عمل على الاهتمام بشئونه الخاصة من جانب، ولم يهمل الشئون العامة من الجانب الآخر.

ويشغل الموت: تأمله والتفكير فيه، وتذكر الراحلين، والتأهب للقائه، حيزا كبيرا فى الأصداء. فى المقطوعة الثانية يقول الراوى: «كانت أول زيارة للموت عندنا لدى وفاة جدتى، كان الموت مازال جديداً، لا عهد له بى، عابراً فى الطريق(..) انتزعنى النحيب من طمأنينتى، فأدركت أنه تسلل فى غفلة منا إلى تلك الحجرة التى حكت لى أجمل الحكايات، ورأيتنى صغيراً كما رأيته عملاقا...» لكن تلك رؤية الطفولة، والمواجهة الأولى للموت، لكن رؤية الأعوام المتقدمة سوف تختلف كثيرا: هذا هو الشيخ عبد ربه يقول: «رأيت الموت فى هيئة شيخ فان وهو يقول: لو كففت من عملى عاما واحدا لانتزعت منكم الإقرار بفضلى...» ويقول أيضاً: «استلقيت فوق الأرض الخضراء تحت ضوء القمر أهيم فى الرؤية، فهمست الأرض فى أذنى شاكية: يفقسون على لقمتى اليومية، وما فعلت سوى أن استرددت ما سبق أن وهبت...» الموت حتم ومقدور، الخطوة الأخيرة التى يجب أن يخطوها من عاش وعمل واستمتع بالحياة دون خوف أو وجل. ولعل من أجمل ما يصوغه لنا الراوى هنا تلك المقطوعة بعنوان «همسة عند الفجر»: «فى مرحلة حاسمة من العمر عندما تسنم بى الحب ذروة الحيرة والشوق، همس فى أذنى صوت عند الفجر: هنيئا لك، فقد حم الوداع، وأغمضت عينى من التأثر فرأيت جنازتى تسير، وأنا فى مقدمها أسير حاملا كأساً كبيرة مترعة برحيق الحياة...» (راجع كذلك: «التلقين» ص ١٥، «الصور المتحركة» ص ١٧، «النداء» ص ٤٢، «الهجرة» ص ٤٧، «المعركة» ص ٥٥، «المتنبى» ص ٨٥، «شهد الضحك علينا» ص ٩٨، «صوت القبر» ص ١٢٨، «بلا ترحيب» ص ١٤٨، وسواها).

ولأن الذاكرة هى المصدر الوحيد لما يرويه الراوى عن نفسه وعن شيخه فطبيعى أن تشغل قضية الذاكرة والنسيان مكانها فى الأصداء. يقول الراوى: «رأيت شخصاً هائلاً ذا بطن تسع المحيط وفم يبلع الفيل، فسألته فى ذهول: من أنت يا سيدى؟ فأجاب باستغراب: أنا النسيان، فكيف نسيتنى؟» ويقول له صديقه الحكيم: إن قوة الذاكرة تتجلى فى التذكر كما تتجلى فى النسيان، وما أكثر ما يتعرض الراوى لمراوغات الذاكرة ومعابثاتها، فيلتقى برجال ونساء يعرفونه ويعرفهم، ويحاول كل أن يذكره بما كان بينهما، لكنه لا يذكر شيئا، ليس الراوى وحده، هذا معلمه القديم، وقد أنسى كل شىء، الحى يعرفه والناس يحبونه، ولكن نادراً ما يحييه أحد لضعف ذاكرته وحواسه، أما هو فقد نسى الأهل والجيران والتلاميذ وقواعد النحو، وما دمنا فى عالم المتصوفة نرى رؤاهم ونستخدم كلماتهم فى السكر والفناء والنشوة ومقام الحيرة ومقام التعرف ومقام الرضا.. إلخ، ألا يحق لنا أن نقول قولة واحد منهم: وما سمى الإنسان إنسانا إلا لأنه نساء؟ (راجع كذلك: «الطرب» ص ١٣، «التسول» ص ٢٣، «الندم» ص ٦٧، «النسيان» ص ٨٠، «رجل الأقدام» ص ٨٨، وسواها).

وما كان لصاحب الأصداء أن يغمض عينيه عن الواقع المعيش مهما غاص فى أعماق الذاكرة، ثمة مقطوعات عديدة تشى بأن الكاتب الكبير بقى مهموما بهذا الواقع الثقيل وهمومه الرازحة، خذ هذه المقطوعة وتأمل كلماتها القليلة ما شئت: «سألت الشيخ عبد ربه التائه: متى ينصلح حال البلد؟ فأجاب: عندما يؤمن أهلها بأن عاقبة الجبن أوخم من عاقبة السلامة». وهذا الراوى فى قافلة تقطع الصحراء، عن له أن يتساءل عن المكان الذى يحب صاحب القافلة أن يكون فيه، اختلف الرأى عند سامعيه لكنهم أجمعوا على استنكار سؤاله، ثم وجدت الرؤوس تتقارب، والأعين تسترق النظر إلى، والريبة تتفشى فى الجميع.. رباه.. كيف أقنعهم بأننى لم أقصد سوءا، وأننى لا أقل عن أى منهم ولاء للرحلة؟ ودنا منى رجل صارم الوجه وقال لى: اترك القافلة، ودعنا فى سلام.. ولم أر بداً من الخروج لأجد نفسى فى خلاء مطبق وكرب عظيم.» كل هذا لأنه جرؤ على التساؤل - مجرد التساؤل - عن صاحب القافلة!

ثم.. من أولئك الأشباح الذين يراهم

ربما كان أهم ما يلفت النظر في شخصية الحالم في هذه الأحلام كلها أنه محاصر، محاط بسه موضوع ملاحقة وتربص، يعاني الخديعة المرة بعد المرة، وتسلب نقوده المرة بعد المرة أيضاً، بل يتعرض للإيذاء الجسدي أو التهديد به، ويحكم عليه بالإعدام أكثر من مرة

الراوي: «وسرح بصري في متاهة الصحراء المسربلة بالظلمة الرقيقة وسرعان ما خيل إلي أن أشباحاً تتحرك نحو المدينة. قلت: لعلهم من رجال الأمن، ولكن مر من أمامي أولهم فتبينت فيه هيكلاً عظمياً يتطاير شرر من محجريه. واجتاحني الرعب فوق الصخرة، وتتالت الأشباح واحداً في إثر الآخر، وتساءلت وأنا أرتجف عما يخبئه النهار لمدينتي النائمة...». ومن يعرف الواقع المصري حق المعرفة لن يصعب عليه أن يعرف من كان يعنى بتلك الأشباح التي تنفث الشرر، ألم تمتد يد أحدهم بالخنجر إلى رقبته؟

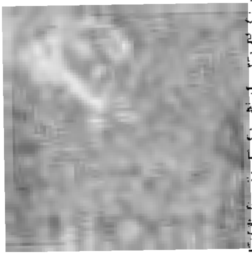
ولا يتخلى الكاتب العظيم أبداً عن الأمل، وهذه رؤية شيخه للمستقبل: «سيجيء الطوفان غداً أو بعد غد، سيكتسح الفساد والفاسدين والعاجزين، ولن تبقى إلا قلة من الأكفاء، وتنشأ مدينة جديدة تنبعث من أحضانها حياة جديدة، ليت العمر يمتد بك يا عبد ربه لتعيش ولو يوماً واحداً في المدينة الآتية...» (راجع كذلك: «التحدي، ص ٣١»، «المخبر، ص ٧٥»، «الرحلة، ص ٧٠»، وسواها).

تلك أهم الألحان المترددة في الأصداء: الحب والفن والعمل والموت والنسيان وهموم الواقع المعيش، اختار الكاتب أن يصوغها في شكل الحكايات الصغيرة الدالة، وأن يستخدم أدوات تعبيرية مختلفة: الرؤى والرموز والأحلام، وأن يستعين بلغة المتصوفة، حيث لا تعني الكلمة دلالتها الشائعة، بل تحيل إلى عالم آخر تتماسك مفرداته ويفضي بعضها إلى بعض، ولا تقف بعض الحكايات عند حدود هذا العالم، بل تتجاوزها إلى ما وراءه.

حقاً: كلما اتسعت الرؤية، ضاقت العبارة!

وتضم «الأصداء» عدداً من الأحلام، يحلمها الراوي: التلميذ النشيء أو أستاذ الشيخ (راجع المقطوعات: «٦١»، «٦٢»، «٦٨»، «٧٩»، «١٢٠»، «١٧٠»، والأخيرة حلم الشيخ عبد ربه نفسه)، وهي تشغل مكانها الملائم في نسيج «الأصداء»، من حيث دلالتها في الكشف عن جوانب معينة من شخصية صاحبها. أما «أحلام فترة النقاهة» فتتجاوز المائتين؛ فكيف يمكن أن «نقرأ» هذه الأحلام أو «نفسرها»؟

وإن قلنا «تفسير الأحلام» تداعى - على الفور - سيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) وكتابه الشهير بهذا العنوان (صدرت طبعته الأولى - بالألمانية - في ١٩٠٠، ومنها ترجم إلى لغات العالم، وله ترجمة عربية ممتازة، قام بها الأستاذ الدكتور مصطفى صفوان، راجعها وقدم لها الأستاذ الراحل مصطفى زيور، وصدرت في ١٩٥٨)، ولا شك عندي في أن فرويد هو صاحب أوفى نظرية متكاملة في تفسير الأحلام، ولا شك عندي أيضاً في أن هذا الكتاب أحد أهم الكتب المؤسسة في الثقافة الغربية والإنسانية المعاصرة، ولعل شأنه في هذا لا يقل عن شأن «أصل الأنواع» أو «رأس المال»، أو كما يقول زيور في تقديم الطبعة العربية: «كان «تفسير الأحلام» يضم - في الحقيقة - أخطر الاكتشافات في تاريخ معرفة الإنسان بنفسه، وكان صدوره فتحاً لا يدانيه فتح في العلوم الإنسانية، ونقطة تحول بالغة الأثر في تطور علم النفس والطب النفسي جميعاً، حتى شبهه البعض بكتاب كوبر نيكوس الذي طلع بثورة فكرية أرست قواعد علم الفلك الحديث...». وشأن الأعمال الكبرى التي أشرنا لبعضها، ذاع «تفسير الأحلام» ومنجزاته في نسيج الثقافة الإنسانية المعاصرة.



فإلى أي مدى يمكن أن يفيدنا في قراءة أحلام نجيب محفوظ؟

هنا نلاحظ، أولاً، أن جوهر النظرية التي جاء بها هو أن «الحلم لغة» لها قواعدها ونحوها وصرفها ودوال المعنى الخاصة بها، وطرائقها في التعبير والصياغة. وأن «ميكانيزمات» الحلم في التحول من «المحتوى الكامن» إلى «الصورة الظاهرة»، إنما هي ذوات الميكانيزمات التي يستخدمها الإبداع الفني بوجه عام، والأدبي بوجه خاص. أعني ميكانيزمات مثل: التكثيف والنقل والإبدال والرمز والصياغة الثانوية. وليس هذا هو الرابط الوحيد بين تلك النظرية والإبداع. وأقصر الحديث هنا على الإبداع الأدبي، فثمة تراث هائل من الدراسات التطبيقية لفرويد وتابعيه عن أدباء أو أعمال أدبية، وفي ثقافتنا العربية تراكم قدر كبير من هذه الدراسات، سواء ما التزم منها بالمنهج الفرويدي أو أضاف إليه سواه من المناهج، منذ أنجز الدكتور مصطفى سويف دراسته الرائدة عن «الأسس النفسية للإبداع الفني - في الشعر خاصة» في ١٩٥١، تتابعت بصدد دراسات الدكاترة: عز الدين إسماعيل وروز غريب وعبدالحليم محمود ومصري حنورة وعلي زيعور وسواهم، ورغم أن المجال لا يتسع للإفاضة في الحديث عن هذه الدراسات، إلا أننا لا نستطيع إغفال الإشارة إلى أشملها فيما يتعلق بالرواية العربية، وهي التي قدمها الأستاذ جورج طرابيشي في كتبه: «عقدة أوديب في الرواية العربية»، «الرجولة وأيديولوجيا الرجولة في الرواية العربية»، «شرق وغرب، رجولة وأنوثة»، «الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية»، «أنثى ضد الأنوثة»، حتى آخرها - فيما أعرف: «الروائي وبطله، ١٩٩٥».

ثاني ما نلاحظه أن الإفادة من منهج التحليل النفسي لفهم الإبداع لا تقتضي - بالضرورة - الالتزام بحرفية النظرية الفرويدية بكل ما فيها وحولها من نقاط الجدل والاختلاف، بعبارة أخرى: إن الدارس لهذا الإبداع قد لا يلتزم بما جاء فيها خاصا بغلبة الدافع الجنسي أو سيادة «المركب الأوديبي» أو سواهما من قضاياها الخلافية، وإذا كان فرويد نفسه قد تحدث، في مقال شهير عنوانه «الشعر وأحلام اليقظة»، بأن الشاعر يعمد إلى حلم يقظته بهدف جذب قرائه وإغرائهم على مشاركته فيه، مستخدما أدواته الشعرية، فإن هذا الفهم يسري على كافة المبدعين، لا الشعراء وحدهم بطبيعة الحال، في مثل هذه الدراسات لا يجب أن يغفل الدارس لحظة واحدة عن أنه يتعامل مع إبداع فني له شروطه وجمالياته الخاصة - ما بالك إذا كان مبدعاً في قامة نجيب محفوظ؟

ولتوضيح ما أعني، لندخل عالم الأحلام ونضرب الأمثلة: حدثنا فرويد عن «الأحلام النمطية» أو «النموذجية» أي تلك التي يراها الناس جميعاً، ومن أكثرها شيوعاً أحلام الارتباك من جراء العري، يكتب: «والمألوف أن يكون نوع العري ومداه بعيدين عن الوضوح.(..) والنقص في الثياب لا يكون في العادة خطيراً إلى المدى الذي يبدو معه مبرراً لما يصحبه من الخجل..(..) أما الناس الذين يستشعر المرء قبالتهم هذا الخجل فيكادون أن يكونوا دائما غرباء، ولا يحدث أبداً في الحلم النمطي أن تلقى طريقة الارتداء التي توقع صاحبها في كل هذا الارتباك اعتراضا، ولا هي تعير التفاتاً، بل تحمل الناس، على العكس، وجوهاً لا تبالي...».

في الحلم (٤) من أحلام نجيب يرى الحالم نفسه مع رفيقين له يقضون في ركن من بهو مترامي الأركان... «صاحباي يرفلان في كامل حلتيهما حتى رباط العنق على حين اكتفيت أنا بالجلباب...» (هو بديل العري)، ثم جاء رجل بملابس رسمية فهجس الحالم بأن حفلة ستقام، ثم جاء رجلان مماثلان له انضما إليه فزال كل شك، حاول الحالم الهرب فوجد وراء كل باب جداراً موصدا (أي أنه محاصر بلا فرصة في الإفلات)، «رجعت إلى صاحبي فاندسست بينهما كأنني أستتر بهما، طمأنني بعض الشيء أن الرجال الثلاثة لم يعيرونا أي التفات» (يقصد أنهم لم يعيروه هو أي التفات)، ثم تتابع مجيء الناس ودخل رجل كأنه زعيم، هتفوا له ثم اختفى...».

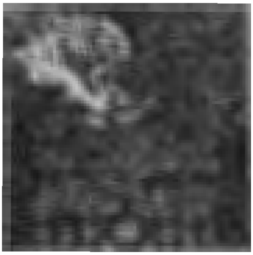
كذلك يمكننا أن ننظر في الحلم (٦) باعتباره حلماً نموذجياً للتوهان: يدخل الحالم ومعه الفتاة إلى الشقة، وخلفهما البواب يحمل الحقيبة كأنهما زوجان (رغم قوله إن الصلة بينهما غير محددة)، وللشقة شرفة تطل على البحر، وينزل الحالم إلى السوق كي يبتاع بعض الأشياء، وحين رجع وجد باب الشقة مفتوحاً ولم يجد الفتاة، وقال له البواب: «حضرتك أخطأت الطريق، وهذه ليست شقتك..(..) وملت إلى الاعتقاد بالخطأ متذكراً أنه توجد ثلاث عمارات متشابهة في صف واحد...، وحين هبط إلى الطريق رأى الفتاة تسير في طرفه المفضي إلى الميدان، فجريت نحوها حتى أدركها قبل أن تذوب في الزحام...».

ومن الأحلام النموذجية كذلك أحلام الاستعجال والطيران والامتحان وعدم اللحاق بالقطار أو الطائرة، وهذا كله لا تخلو منه أحلام نجيب محفوظ ولنكتف بحلم واحد: في الحلم (١١٩) يحدثنا الحالم: «وصلت إلى المحطة في الوقت الحرج، واتخذت موقعي في الطابور الممتد إلى شباك التذاكر، ظللنا بين القاطرة والشباك حتى انطلقت صفارة الإنذار الأخيرة، ومازلت على مبعدة من الشباك، وهكذا فاتني القطار...».

تلك، وغيرها (راجع الأحلام «٦٥»، «٦٧»، «١٦٢»..) أحلام نموذجية أو نمطية، استطاع المبدع العظيم أن يحولها لنصوص أدبية، بإضافة تفاصيل لا تخرج عن

سياقاتها، ثم بتلك العملية التى أسماها المحللون «الصياغة الثانوية»، ولا ننسى أن أدوات المبدع فى هذه الأحلام وفيرة، فإلى جانب وسائل عمل الحلم فى تحويل المحتوى الكامن إلى الصورة الظاهرة، ثمة تكنيكات الصياغة الأدبية فى القصة والرواية.

وربما كان أهم ما يلفت النظر فى شخصية الحالم فى هذه الأحلام كلها أنه محاصر، محاط به، موضوع ملاحقة وتربص: يعانى الخديعة المرة بعد المرة، وتسلب نقوده المرة بعد المرة أيضاً، بل يتعرض للإيذاء الجسدى أو التهديد به، ويحكم عليه بالإعدام أكثر من مرة، وقائمة الأحلام هنا طويلة جداً، سوف نقف عند أكثرها دلالة: هو - فى أول الأحلام - جائع يبحث عن مطعم «مناسب لذوى الدخل المحدود».. ويطوف بدراجته طويلاً، ويلمح صديقه إلى جوار الساعة فى الميدان، ويطلب منه صديقه أن يترك معه الدراجة حتى لا تعيقه فى البحث، وبعد رحلة خائبة رجع إلى الميدان فلم يجد الصديق ولا الدراجة. والحلم (١٦) عملية سلب وقهر لا شك فيها: الحالم يسير لكنه يحس أن شخصاً يتبعه، وهطل المطر بقوة فعاد إلى بيته مهرولاً.. «لكن شعوراً غريباً اجتاحنى بأن شخصاً غريباً مختفياً فى المسكن..» واستفزنى استهتاره فصحت به أن يسلم نفسه، ففتح باب حجرة الاستقبال وبرز رجل لم أر مثيلاً فى مساحته وقوته، وقال بهدوء وسخرية: سلم أنت نفسك، وملكنى الإحساس بالعجز والخوف.. (..) أما هو فأمرنى بتسليمه محفظتى ومعطفى..» وبعد أن تسلمهما دفعه فألقاه أرضاً، وحين نهض كان الرجل قد اختفى، وخوفاً من أن يصبح سخرية لم يستغث بأحد ولم يبلغ الشرطة!. وفى الحلم (٣٦) تتم خديعة الحالم فى صفقة فيخسر نقوده، وفى الوقت ذاته تخلو وظيفة المدير العام فى المكان الذى يعمل به، فيتقدم لها ويفشل فى الحصول عليها.. «قابلت الوزير لكنه قال لى: «إنك لم تستطع أن تحافظ على مالك الخاص، فكيف آتمنك على المال العام؟..» ولم يجد أمامه سوى أن يطلب إحالته للمعاش كى يجد الطمأنينة!. ومن ذكريات جو الموظفين أيضاً الحلم (١٦٨): يذهب الحالم إلى «مدير المستخدمين» يشكو تخطيه فى الترقية رغم أن القانون فى صفه، فينصحه الرجل بأن يرفع قضية، فذهب إلى «مدير التحقيقات» وقدم شكوى.. ولكن أذهلنى أن وجهه نسخة دقيقة من وجه مدير



المستخدمين..» ومن فوره ذهب إلى المحامى شرح مشكلته ودفع مقدم الأتعاب.. «ولكنى ذهلت أن وجهه نسخة من وجه مدير المستخدمين ومدير التحقيقات» وكذلك سوف يكون الطبيب الذى يذهب إليه فى المساء، فحصه بدقة.. «ولكن لاحظت أن وجهه نسخة طبق الأصل من سابقيه..» وسوف يلاحقه لص يسلب نقوده وهو عائد إلى بيته فى الليل، لم ير وجهه لكنه سمع صوته: «فسألت نفسى: ترى.. أين سمعت هذا الصوت من قبل؟» وهل نحن بحاجة للجواب؟

فى هذه الأحلام، وسواها، نرى الحالم يعانى الحصار والملاحقة (حتى فى النهر، ثمة من يلاحقه، راجع الحلم (٤٥)..)، يتعرض للإيذاء الجسدى والمعنوى أكثر من مرة، وتشتعل النار فى بيته أكثر من مرة كذلك، وتنتهى به أحلام كثيرة وهو قلق، متوجس، متخوف مما يمكن أن يحيق به من فضيحة أو اتهام: الحلم (٨) ينتهى بهذه العبارة: «وعاد الهدوء لليل، ولكننى لم أزل أتوقع فضيحة أو شراً من ذلك..» وفى الحلم الذى يليه مباشرة تسلب نقوده امرأة فى ثياب الرجال.. «وتم كل شىء بسرعة، ولما وقف المصعد وفتح بابه أمرتنى بالخروج، وهبط المصعد، وجدتنى فى طرقة مظلمة، وقهرنى شعور بأننى قد فقدت أصدقائى وأن حوادث كالتى وقعت لى فى المصعد تتربص بى هنا أو هناك...».

وثمة أحلام تحولت لقصص ذات طابع رمزى خالص. إن محتواها الكامن ينطلق من الواقع، لكنه يقدم صوراً ومعادلات رمزية لهذا الواقع، والقائمة تطول هنا أيضاً: فى الحلم (١١) امرأة «فارعة الطول، ريانة الجسد، تستلقى فى ظل نخلة على شاطئ النيل..» تكشف عن صدرها وتنادى الأطفال، فتتدافع نحوها أطفال لا يحصرهم عد وتزاحموا على ثدييها ورضعوا بشراهة غير معهودة، وكلما انتهت جماعة جاءت أخرى، وبدا أن الأمر قد تجاوز كل الحدود وخرج عن كل تنظيم وأصبح يقتضى التنبيه أو الاستغاثة، لكن الناس يغطون فى النوم على شاطئ النيل، ويحاول الحالم الاستغاثة لكن صوته لا يخرج من فمه، أما الأطفال والمرأة فقد تركوها جلداً على عظم «ولما يئسوا من مزيد من اللبن راحوا ينهشون اللحم حتى تحولت بينهم إلى هيكل عظمى، ثم راحوا يتقاتلون بضراوة فيما بينهم، ولمحه بعضهم فاتجهوا نحوه وهو «فى رحاب الرعب الشامل». هل ثمة شك فى هوية المرأة «فارعة الطول، ريانة الجسد التى تستلقى فى ظل نخلة على شط النيل؟ هذا ما فعله بمصر أبناؤها الشرهون النهمون القساة، ثم استداروا يتقاتلون، والويل للشاهد الوحيد لأن الباقين «يغطون فى النوم على شاطئ النيل..».

وخذ أيضاً هذا الحلم (١٢٧): أصحاب يجتمعون فى حديقة الفيللا للسهر والسمر «فى حرية شاملة» لكن صاحب الحديقة تغير فجأة فاستبد بكل شىء.. «فهو يختار موضع الجلسة وموضوع الحديث والأكل والشرب، وحسبناها دعابة لكنه استمر وتمادى فضقنا به ذرعاً غير أننا أخفينا مشاعرنا إكراماً للموقف» غير أن واحداً منهم لم يستطع أن يخفى مشاعره، وذات مساء انفجر غضبه فأخرج مسدسه وراح يطلق عليهم النار!

لعلنى أغامر بالتفسير: الحالم وفدى لا شك فى وفديته واقتناعه بأنهم كانوا يعيشون فى حرية شاملة، أما صاحب الحديقة فأغلب الظن أنه عبدالناصر دون سواه، والحلم يصور كيف تتقبل الشعوب التنازل عن حريتها، والعيش فى ظل الديكتاتورية!

وأخيراً.. هذا هو الحلم (٥١): وقف القطار حيث لا محطة، وسرعان ما طوقه الجنود، وأنزلوا منه العسكريين وبعض المدنيين الذين كانوا فيه، ومن بينهم الحالم.. «أمرنا الجنود المسلحون بخلع بدلنا والبقاء بملابسنا الداخلية.. (..) وتساءل صوت منا: هل تقتلوننا بلا محاكمة؟ فأجاب القائد بصراحة: الأمر لا يحتاج إلى محاكمة!».

أليست هذه صورة رمزية للحياة فى أية بلاد يحكمها العسكر؟

وكما تعكس الأحلام تفاصيل من حياة صاحبها، فنحن نتلمس فى هذه الأحلام بعض ثوابت عالم نجيب محفوظ الذى عرفناه فى أعماله السابقة. وعلى نحو من الأنحاء يمكن القول بأنه إذا كان المحللون يستعينون بالتداعيات الحرة للحالم كى يصلوا لمعنى حلمه، فإن أغلب مستدعيات حالمنا هنا مثبتة ومنشورة، فالبيت الذى تدور فيه كثير من الأحلام هو «بيت العباسية»، لكنها العباسية التى كانت حتى عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضى، والتى صورها نجيب أكثر من مرة (يمكن أن تعد روايته «قشتمر، ١٩٨٩» بكائية رقيقة لهذا الحى الذى كان جميلاً، بكلمات نجيب: «واحة فى قلب صحراء مترامية، فى شرقيها تقوم السرايات كالقلاع، وفى غربيها تتجاور البيوت الصغيرة مزهوة بجدتها وحدائقها الخلفية، تكتنفها من أكثر من ناحية حقول الخضر والنخيل والحناء وغابات التين الشوكى، يشملها هدوء عذب وسكينة سابغة، ويهب عليها هواء الصحراء الجاف فيستعير من الحقول أطيابها مثيراً فى الصدور حبها المكنون.. إلخ»، حيث تجتمع العائلة: الأم والإخوة والأخوات. وثمة ملاحظة مهمة هنا هى أن الأب يغيب عن هذه الأحلام غياباً كاملاً، فى أكثر من مائتى حلم (٢١٢ على وجه التحديد) نرى الأم والأخوة والأخوات عدة مرات، لكننا لا نرى الأب مرة واحدة. لست أعرف تفسيراً لهذا الغياب أو الإقصاء، ولأننى أحاول التعامل مع هذه الأحلام باعتبارها نصوصاً أدبية قبل أن تكون أى شىء آخر، ولأننا لا نعرف - على وجه اليقين - ماذا رأى الحالم حقاً وماذا أضاف الكاتب إلى ما رأى، فلست أولى هذا الأمر أهمية كبيرة.

وفى عالم نجيب محفوظ إن جاء ذكر العباسية جاء حبه الأول. هى حبيبة الصبا والمراهقة وأول الشباب، صاغها أكثر من مرة وأعطاها أكثر من اسم: هى عايدة شداد «بين القصرين»، وهى صفاء الكاتب «المرايا»، وهى فاطمة العمرى «صباح الورد»، وهى - فى كل الأحوال - «حلم الطفولة المجهول، وموعد اللقاء النافذة، وإذا توارت يوماً فإنما لتلقننى الألم قبل أوانه..»، وجوهر العلاقة حب من طرف واحد، فى حين يبقى الطرف الآخر جاهلاً بهذه العاطفة أو لا مبالياً بها، وها هو نجيب - كان على أعتاب التسعين - لا يزال وفياً لذكراها. ها هو فى الحلم (١٤): «هامت روحى حول أركان العباسية المفعمة بالياسمين والحب، ووجدت نفسى تردد السؤال الذى يراودها بين حين وآخر: لماذا لم تزرنى فى المنام ولو مرة واحدة منذ رحلت، على الأقل لأتأكد من أنها كانت حقيقة وليست وهماً من أوهام المراهقة؟»، وجاءت (القاعدة

هل ثمة شك فى هوية المرأة «فارعة الطول، ريانة الجسد التى تستلقى فى ظل نخلة على شط النيل؟ هذا ما فعله بمصر أبناؤها الشرهون النهمون القساة، ثم استداروا يتقاتلون، والويل للشاهد الوحيد لأن الباقين «يغطون فى النوم على شاطئ النيل..».

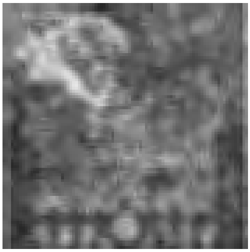
الأساسية فى الحلم أنه تحقيق لرغبة)، لكنها جاءت وراء فرقة موسيقية من تلك التى كانت تتقدم الجنازات، وهمّ صاحب الحلم بأن يلمسها، لكنه سرعان ما أيقن أن الفستان ينسدل على فراغ.. «وسرعان ما هوى الرأس البديع إلى الأرض، وتدحرج إلى النهر، وحملته الأمواج مثل ورد النيل، تاركة إياه فى حسرة أبدية..». وها هو يراها فى سياق آخر، فى الحلم (١٨): فى قارب بخارى، وهى الملاح.. «ارتعش لمراها قلبى، أطللت من النافذة وأنا واقف تحت الشجرة، وكان الوقت بين الصبا ومطلع الشباب..» وحين همّ بأن يسير إليها ليرى كيف يكون استقبالها له رأى نفسه فى حى شعبى، لعله الغورية، وهو مكتظ بالخلق فى مولد الحسين.. «ولمحتها تشق طريقها بصعوبة عند أحد المنعطفات فصممت على اللحاق بها..». هل نحن بحاجة للقول إنه حين رجع لمكانه فى القارب وجد الملاح عجوزا متجهم الملامح؟

أليس نجيب نفسه هو القائل لنا: «ما أشد معابثة الأحلام»؟ ها هى تعابثه بحبيبة الصبا، التى يصفها - فى الحلم (١١٠) بأنها «الوجه الذى علمنى العشق وألهمنى الخلود..» وفى الحلم (١٤٤): «نظرت فى ظلمات الماضى فرأيت وجه حبيبتى يتألق نوراً بعد أن دام غيابها خمسين سنة..».

وفى الأحلام عدد كبير من الشخصيات العامة التى عرفها الراوى وارتبط معها بعلاقات شتى: ثمة - بطبيعة التكوين الثقافى والسياسى - سعد زغلول ومصطفى النحاس ومكرم عبيد، وثمة أيضاً زكريا أحمد وحسين فوزى وسعد الدين وهبة وأصدقاء يذكرهم بأسمائهم وآخرين يرمز لهم بالحروف الأولى، لكن الشيخ مصطفى عبدالرازق هو أكثر الشخصيات العامة تردداً، فهو يرد فى أحلام ثلاثة: (١٢٣) و(١٥٥) و(١٨٠). ونحن نعرف أنه كان أستاذاً لنجيب محفوظ، درّس له الفلسفة الإسلامية فى كلية الآداب، كان أستاذاً مجدداً مستنيراً، قضى فى باريس زمناً وحصل على الدكتوراه من السوربون. وفى وقت من الأوقات سجّل نجيب رسالته للماجستير فى الفلسفة الإسلامية تحت إشرافه ثم انصرف عنها، وحين أصبح الشيخ وزيراً للأوقاف، قبل أن يصبح شيخاً للأزهر فى إحدى وزارات النصف الثانى من أربعينيات القرن الماضى، أخذ نجيب معه كى يعمل معه «سكرتيراً برلمانياً» (لهذا ترد وظيفة السكرتير البرلمانى هذه فى حلمين من الأحلام). المهم أن اثنين من هذه الأحلام الثلاثة يتضح فيها دور مصطفى عبدالرازق كما يراه نجيب محفوظ. فى الحلم (١٨٠): «رأيت أستاذى الشيخ مصطفى عبدالرازق - وهو شيخ للأزهر - يهم بدخول الإدارة، فسارعت إليه ومددت له يدى بالسلام فصحبنى معه، ورأيت فى الداخل حديقة كبيرة جميلة، فقال إنه هو الذى أمر بغرسها، نصفها ورد بلدى والنصف الآخر ورد أفرنجى، وهو يرجو أن يولد من الاثنين وردة جديدة كاملة فى شكلها، طيبة فى شذاها..». إنها صياغة جميلة للدور الذى ألقى على عاتق الشيخ وسواه من جيل الأحياء: المواءمة بين العلم الحديث والتراث، أو الغرب والشرق على التحليل الأخير. يؤكد هذا الفهم ما يقوله نفس الشيخ فى الحلم (١٥٥): ألمت به وعكة وقرر صاحب الحلم أن يعوده. قال الشيخ: «عندكم كثير من الصيدليات مليئة بالأدوية، إضافة إلى الوصفات الشعبية المجربة..». لا تناقض إذن بين العلم (الأدوية) والتراث (الوصفات)، ولا ينفى أحدهما الآخر ولا يقصيه.

وأود أن أقف لحظة عند حلمين عن اثنين من الشخصيات العامة ذكرهما بأسمائهما: حسين فوزى وسعد الدين وهبة. الحلم (٨٦) عن أولهما: «كلفت بحمل رسالة إلى المرحوم الدكتور حسين فوزى، فقلت له إن معى عرضاً لإعادته إلى الخدمة مع زيادة ملموسة فى الراتب وتخصيص حجرة فاخرة لمقامك، ضحك الدكتور وقال إنه لا يهمه الراتب ولا الحجرة، ولكن يهمه احترام فكره وكرامته..».

ويخيل إلىّ أن هذا الحلم يستعيد تلك الأزمة التى تعرض لها الدكتور فوزى بعد زيارته لإسرائيل، وتعرضه للنقد والهجوم، آنذاك وصفت هذه الزيارة بأنها «سحابة معتمة غشت وجه القمر: قبل الدكتور فوزى الدعوة لزيارة إسرائيل، وزارها مرتين: فى ديسمبر ١٩٧٩، ثم فى أبريل ١٩٨٠، حيث ألقى بعض المحاضرات فى جامعاتها، وتقبل الدكتوراه الفخرية من جامعة تل أبيب..» فى رحيل الدكتور فوزى (١٩٨٨)، كتبت: «عندى، وقد مضى الرجل عن عالمنا بكل ما فيه من شر وخير، إن الدكتور فوزى لم يكن يلتمس - بهذه الزيارة - رضا أصحاب الحل والعقد، الذين لم يتوقفوا لحظة عن الحث على «التطبيع» و«إزالة الحاجز النفسى»، ولا



كان يبغى تحقيق مصلحة عابرة شأن الكثيرين ممن فعلوا. لكنه كان مخلصاً - كل الإخلاص - لاقتناعاته الرفيعة التى شكلت أسس تكوينه الفكرى، وأهمها - فى هذا السياق - الإيمان التام والمطلق، الذى لا يأتيه الباطل من أى مكان، بصحة النموذج الحضارى الغربى وسلامته، وبأنه النموذج الذى علينا احتذاؤه، إن شئنا أن يكون لنا مكان تحت الشمس. وما أيسر أن يؤدى مثل هذا الإيمان التام والمطلق إلى إسرائيل، هى التى قامت دعايتها - منذ بدء البدء - على أنها طليعة تلك الحضارة، وواحتها المتقدمة فى صحراء العرب والشرق والتخلف.

هذه واحدة. الثانية أن الدكتور فوزى كان عاشقاً مخلصاً لمصر، لكنها مصر المكتفية بذاتها، المكتملة كالجوهرة، التى لم يحدث - طوال تاريخها الذى عرفه الرجل حق المعرفة - أن انقسمت أو انقصمت أو انقصفت، أو انتفض فيها جزء على جزء أو جزء على الكل، أو فقدت تكاملها المنغلق - بصحاريه وجنادله - عما حوله.

بعبارة أخرى: إن الدكتور فوزى كان يحمل مصر، وحدها، فى قلبه، لم يتسع ليحتويها من حيث هى قلب العالم العربى، وواسطة عقده: رائدته وقائدته إلى الصلاح أو إلى الفساد، ولم يكن الرجل بدعاً فى هذا: كثيرون من مثقفى جيله الكبار كانوا كذلك، يشاركونه الاقتناع بتكامل مصر واكتفائها، وإن توجهت للخارج فإنما نحو الغرب، وعبر المتوسط، يجب أن تتوجه!

هى سحابة غشت وجه القمر، لا تنسينا ضوءه الذى ظل يسطع أكثر من خمسين عاماً متوالية: كاتباً ومبدعاً وباحثاً ومؤرخاً ومسئولاً، عاشقاً للفنون والآثار، متذوقاً وممارساً للأدب والموسيقى، وقبل هذا كله: مدافعاً صلباً عن قيم العقل والحرية والإبداع..» (راجع من فضلك: «حسين فوزى: فى رحيل السندباد»، فى «أوراق أخرى من الرماد والجمر»، القاهرة، ١٩٩٠، ص٢٣٩ - ٢٤٠).

وهذا نجيب محفوظ، يمسح على رأس صديقه الكبير، متفهماً ومتعاطفاً ومواسياً.

وعن سعد الدين وهبة الحلم (١٥٩): «تلقى بعض الحرافيش دعوة من الأستاذ سعد الدين وهبة فذهبنا إلى مقابلته، وهناك رحب بنا وأطلعنا على بيان سيرفعه إلى كبار المسئولين لتطهير الهيئة من الساسة المنحرفين، ودعانا إلى التوقيع عليه بإمضاءاتنا فاستجبنا بحماس، وعند فجر ذلك اليوم اخترق بيوتنا زوار الفجر وساقونا معصوبى الأعين إلى المجهول..».

فهل كان نجيب محفوظ يعرف عن سعد الدين وهبة أكثر مما يعرف الناس؟ لست أدرى بطبيعة الحال. ما أعرفه هو أن سعد الدين هبة كان - على وجه اليقين - رجل السلطة بامتياز، منذ جاء القاهرة نقيباً فى الشرطة ومحرراً فى المجلة التى كانت تصدرها وزارة الداخلية باسم «البوليس» ثم رئيساً لتحريرها قبل منتصف الخمسينيات، وحتى رحل فى نوفمبر ١٩٩٧، مهما تغير الجالسون على قمة هذه السلطة، أو تغيرت توجهاتها.

وحين رحل كان رئيس اتحاد الكتاب المصريين، واتحاد الفنانين العرب، ومهرجان القاهرة السينمائى، وكاتباً جهير الشهرة له صفحته الأسبوعية فى «الأهرام» وصاحب مشروعات خاصة، ولا تنس - من فضلك - عضو الأمانة العامة، المسئول عن الثقافة، فى الحزب الوطنى الحاكم!

فى الحلمين (١٧٩) و(٢٠٦) يعرض نجيب محفوظ حاله. فى أولهما يقول: «زارنى المرحوم صديقى الحميم، وسألنى عن أسباب حزنى، فقلت له: إن ضعف السمع والبصر حال بينى وبين مصادر الثقافة المقروءة والمسموعة والمرئية..» وفى الثانى يقول: «ذهبت إلى مقابلة المرحوم الرئيس السادات، وهناك أخبرنى بأنه قرر تعيينى محافظاً للإسكندرية، فأطلعته على حالتى الصحية من ضعف البصر والسمع ويدى اليمنى المشلولة.. إلخ».

ألم أقل لك إنه كان يبدع أعماله الأخيرة فى ظل أقسى الشروط الإنسانية التى يعانيها مبدع كبير؟





عفـــــاف عبد المعطـــى

روايتان

نادين جورديمر.. نجيب محفوظ

في عام ١٩٩٣ كانت الزيارة الثالثة للكاتبة الجنوب إفريقية نادين جورديمر إلى مصر سبقتها زيارتان في (١٩٥٤ و١٩٥٨)، وفيهما حاولت اللقاء مع فارس جائزة نوبل الراحل الكبير نجيب محفوظ لكنها لم تستطع نظراً لإخفاق الوساطة بينهما، ثم كان أول لقاء على الأوراق إبان تقديم نادين جورديمر لأصداء السيرة الذاتية للكاتب الكبير نجيب محفوظ التي صدرت عن قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٩٧ بترجمة دينيس جونسون ديفز وقد تحقق لجورديمر لقاء محفوظ أخيراً إبان زيارتها لمصر كضيفة لمعرض الكتاب الدولي بالقاهرة عام ٢٠٠٥.

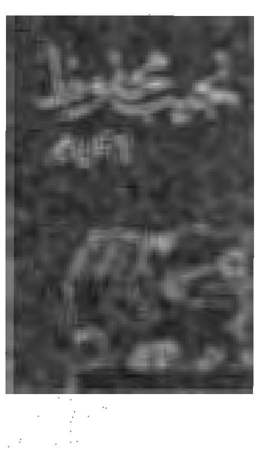
لا يحتاج نجيب محفوظ إلى تعريف ولا تحتاج نصوصه إلى تقديم، بينما لا تزال نادين جورديمر تحتاج إلى ذلك في العالم العربي. فهي روائية وكاتبة قصة قصيرة من جنوب أفريقيا حصلت على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٩١. وهي مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب نجيب محفوظ (أصداء السيرة الذاتية) «وهي صاحبة مقالة عن أقصوصة (زعبلاوي) نشرت تحت عنوان (زعبلاوي الجانب الخفي) في كتابها المسمى (الكتابة والكينونة) «منشورات جامعة هارفارد ١٩٩٥». ولدت نادين جورديمر في

> نصوص محفوظ وجورديمر تعد سجلاً حياً للمجتمع المصري عند الأول ومجتمع الفصل العنصري في جنوب إفريقيا عند الثانية

سبرنجز بإقليم الترانسفال في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣ وتلقت دراستها في مدرسة الدير، وفي جامعة «ويتوتر ستاند» بجوهانسبرج، تزوجت لأول مرة من ج. جافرون في ١٩٤٩ ثم من رينولد كاسيرر في ١٩٥٤ حيث أنجبت ولداً وبنتاً. عملت محاضرة زائرة في معهد الفنون المعاصرة بواشنطن عام ١٩٦١، وفي جامعة هارفارد عام ١٩٦٩ وفي جامعة برنستون بنيوجرسي في ١٩٦٩، وفي جامعة نورث وسترن بإيفانستون بولاية إلينوي في ١٩٦٩، وفي جامعة متشجان في ١٩٧٠، ثم عملت أستاذاً مساعداً للكتابة الإبداعية بجامعة كولومبيا «نيويورك» في ١٩٧١، وقد حصلت خلال حياتها الأدبية على العديد من الجوائز: جائزة سميت الأدبية ١٩٦١، جائزة توماس برتجل ١٩٦٩، جائزة بلاك التذكارية ١٩٧٢، جائزة بوكر ١٩٧٤، جائزة النسر الذهبي الكبرى في فرنسا ١٩٧٥، الجائزة الأدبية لوكالة الأنباء المركزية بتايوان ١٩٧٥. تعيش جورديمر في جوهانسبرج الآن. وتشمل نصوص نادين جورديمر القصصية مجموعات: «وجهاً لوجه» ١٩٤٩، «وصوت الحية الناعم» ١٩٥٢، و«الأيام الكاذبة» ١٩٥٣. «ستة أقدام من البلد» ١٩٥٦ و«عالم من الغرباء» ١٩٥٨، و«أثر قدم فرايداى» ١٩٦٠ و«مناسبة للحب» ١٩٦٣، و«ليس للنشر» وقصص أخرى ١٩٦٥ و«العالم البرجوازي الزائل» ١٩٦٦، و«ضيف شرف» ١٩٧٠ و«رفاق لفنجستون» ١٩٧٢، «المحافظ» ١٩٧٤، و«قصص مختارة» ١٩٧٥، و«يوم اثنين ما على سبيل المثال» ١٩٧٦، وقد ترجم بعض هذه الأعمال الى اللغة العربية في سلسلة «روايات الهلال». ومن أعمالها الأخرى «حول المناجم» بالاشتراك مع ديفيد جولد بلات ١٩٧٣، و«المفسرون السود» وهو كتاب في النقد الأدبي ١٩٧٣ وقد حررت بالاشتراك مع لايونل إبرامز كتاب «الكتابة في جنوب إفريقيا اليوم» ١٩٦٧. ومما عرف عن نادين جورديمر أنها كاتبة عصامية تنشر على نطاق واسع في المجلات والدوريات وقد بدأت تكتب بانتظام في سن



> محفوظ في نص أمام العرش جعل من حوار رجال مصر ذريعة لمحاكمة تاريخ تلك البلد، ومنهم بالطبع أنور السادات لأنه جزء من تاريخ هذا الوطن







نادين جورديمر - نجيب محفوظ

التاسعة، ونشرت لها بعض قصص قصيرة وهي في الخامسة عشرة. ومن المعروف أن جورديمر كانت ضيف شرف معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠٠٥ وأثناء ذلك التقت بالراحل الكبير نجيب محفوظ لقاءً حميمياً.

في منزل نجيب محفوظ نظرت نادين طويلا في وجه محفوظ قبل أن تقول له: «في مثل هذا اليوم ٢٩ يناير/ كانون الثاني قبل واحد وخمسين عاما تزوجت.. إنه عيد زواجي.. وقد أخذني زوجي الراحل في رحلة إلى مصر وكانت أول دولة أزورها في حياتي.. والآن يا أستاذ محفوظ أشعر بأن لقائي بك الذي كنت أسعى إليه منذ سنوات هو أثمن هدية أتلقاها بهذه المناسبة.. إنني أرى دائما أنك من أعظم المواهب الإبداعية في العالم.. وأحتفظ بكل أعمالك في مكتبتي مترجمة إلى الإنجليزية.. وكلما قرأت قصة أو رواية وأنهيتها تأخذني بلا وعي إلى الأخرى».

وقال نجيب بهدوء ومن خلال ابتسامته الودودة: سأقدم لك الآن كتابا لي لم تقرئيه.. فها هي النسخة الإنجليزية من كتابي «أحلام فترة النقاهة» الذي صدرت ترجمته الشهر الماضي وصدرت نسخته العربية منذ أيام. اختطفت نادين الكتاب وراحت تتأمل غلافه الأزرق وتقلب صفحاته وقالت بسعادة غامرة: عجبا لم أر هذا الكتاب من قبل.. فقال نجيب وهو يحتفظ بابتسامته الرقيقة: إنه يضم مجموعة قصص قصيرة استوحيتها من أحلامي[1].

ذكرت نادين جورديمر في مقدمة أصداء السيرة الذاتية أنها أميل إلى تصديق أن تقييم الكاتب ربما يتحقق تطبيقاً على السيرة الذاتية، حيث عبر تتبع الكاتب/ الكاتبة للظواهر الإنسانية حوله عبر كتابة سيرته الذاتية تظهر موهبته أو موهبتها. وبفضل الخيال الإبداعي الذي يستحضر توهج الحياة وزينتها بالألوان الزاهية أو بالإفراط في وصف طريقة معيشته في المغامرات أو حياة السكر والمرح، أو عبر التجارب الجنسية.

فعلى أية حال السيرة الذاتية تثار متلاحقة لكيفية مثول أحداث الحياة للعيان كي تكون مكرسة للحقيقة. إنها تحتوي تدفقاً من السرد الصريح قد يكون ذلك أحياناً نكاية في الكاتب وبالطبع هنالك استثناءات. عامة ترى جورديمر أن الكُتّاب هم نتاج لسيرهم الذاتية ومن تكون سيرهم الذاتية أفضل من رواياتهم لديهم شيء يشير إلى موهبتهم.

وترى أن أثر كُتّاب السيرة الذاتية يمتد إلى تدوين تاريخ الحياة منذ ظروف الميلاد الأولى مرورا بجمال الصبا حتى التواري في الثرى. فكيف ينتج الكاتب ذلك المدى الزمني الذي يكون موجودا بالفعل وينتقل فيه بحرية بين الزمان والمكان؟ ترد جورديمر نفسها في مقدمة أصداء السيرة الذاتية: يظهر ذلك خلال الأقوال المأثورة والأمثال والحكايات في نص نجيب محفوظ التي لم تُذيَّل بتاريخ، فهي لم تكن محسوبة تاريخياً عندما كتبها. دونت منذ زمن بعيد فصاعداً إلى آخره حيث كان الذهن الإبداعي لمحفوظ متسعا متيقظاً، بدلا من التجول بين الماضي والحاضر مع جموع من الأحداث لا تُعد سوى مجرد فعل تذكر. فأصداء السيرة الذاتية تجربة تمثل نزوة مصغرة أو ومضة من التعمق في جميع معتقدات نجيب محفوظ. فمحفوظ ذاكرة متخمة مثل (شخص عملاق ذي معدة تتسع لكميات كبيرة وفم يستطيع أن يبتلع فيلاً) لذا، تخيلت أنني أسأله بذهول: من أنت يا سيدي؟ فيجيب فجأة «أنا النسيان»، كيف يمكن أن تنساني؟. عامة كان محفوظ مدركاً للماضي وخبرة تجربة الحاضر. تلك القطع الأدبية في أصداء السيرة الذاتية ما هي إلا تأملات تمثل رجعا الصدى للذي حدث وكيف كان الكاتب نجيب محفوظ آنذاك؟.

كما تجسد اكتشاف محفوظ وإمعانه للنظر في الحياة، والاستغراق في تلك التأملات يستكشف روعتها ويظهر للعيان رموز قص محفوظ حيث الكلمة المفردة أو العبارة تنهض على الدرس الأخلاقي: العدالة، الزمن، الدين، الذاكرة، الملهفة، الحركة، الجمال، الطموح، الحرية، الصفح وأخيراً الفرح. كل ذلك يلاحظ عبر التركيز على اللغة الساخرة واتخذ موقعاً وسطاً بين المرح والعاطفة.

- يوم قتل الزعيم

تقدم هذه الدراسة المقارنة بين رواية «يوم قتل الزعيم» لنجيب محفوظ، ورواية «شعب يوليو» لنادين جورديمر لاعتبارات عدة أهمها صدور الروايتين في الثمانينيات ثم حصولهما (نجيب محفوظ (١٩٨٨) ونادين جورديمر (١٩٩١)) على جائزة نوبل العالمية في الأدب. ثانياً لكون جورديمر امرأة كاتبة من العالم الثالث حصلت على نوبل نتيجة لشرف مواقفها العامة ولأنها ومحفوظ يشتركان في الاهتمام بالواقع الاجتماعي لوطنيهما خاصة ما يخص تصوير القهر الإنساني. وثالثا أنها كاتبة قدمت السيرة الذاتية لكاتب. وربما لأن كتابات محفوظ قد تشابهت في غايتها مع غايات جورديمر في الكتابة، حيث كلاهما يكتب عن البشر والبشر غاية من التعقيد والتناقض والغموض. إذن ثمة سر إنساني يحاول كل منهما أن يكتشفه عبر الكتابة التي هي هدف لكل منهما للوصول إلى السر الكامن في الحياة. آخر ما صدر عن نجيب محفوظ كتاب «نجيب محفوظ في سيدي جابر - انعكاسات تتويج جائزة نوبل» صدر عن قسم النشر بالجامعة الأمريكية ٢٠٠٦، وآخر ما صدر لنادين جورديمر كتاب تحت عنوان «لنحكي حكاية» يضم قصصاً مشتركة مع مجموعة من الكتاب العالميين ممن حصلوا على نوبل أمثال ماركيز وجونترجراس وتشينو أتشيبي و وولي سوينكا أو غير الحاصلين على نوبل أمثال سوزان سونتاج وقد ترجم إلى خمس عشرة لغة كما بيع منه ٥٠ ألف نسخة خصصت عائدها لصالح مرضى الإيدز في العالم.

صدرت رواية «يوم قتل الزعيم» للكاتب الكبير نجيب محفوظ في منتصف الثمانينيات من القرن المنصرم أي بعد اغتيال الرئيس أنور السادات ومن ثم يجب إلقاء الضوء على الخلفية السياسية التي صدر عنها النص.

حيث إن التزام السادات بالديمقراطية وترديده لها ككلمة كان يلازمه منذ البداية لإسقاط خصومه وهي الديمقراطية التي وصفها نجيب محفوظ على لسان مصطفى النحاس إبان محاكمة السادات في نص أمام العرش بأنها: ديمقراطية قبلية تمارس فيها سلطاتك الدكتاتورية، ثم عقب سعد زغلول بأن: الديمقراطية الحقيقية تؤخذ ولا تمنح. وبمرور الوقت زاد عدد معارضي سياسة السادات خاصة في الحياة الثقافية وبسبب إهمال السادات للثقافة وموقفه من آراء المثقفين وهجرة عدد كبير منهم إلى الدول العربية والأجنبية فقد قدراً كبيراً من الثقة التي كان قد حققها بين المثقفين بإصلاحاته الديمقراطية. وفي ١٩٧١ كان قد بدأ بالفعل في تفكيك الصرح الثقافي الذي تشيد قبله: فأغلق معظم المجلات الثقافية التي كانت تصدر عن وزارة الثقافة والهيئة المصرية العامة للكتاب في وقت واحد تقريبا، أغلقت أولا مجلة «المسرح والسينما» ثم «المجلة» و«القصة» و«الكتاب العربي» و«الفكر المعاصر» و«الفنون الشعبية» في أكتوبر ١٩٧١. ليحل محلها جميعا مجلة واحدة هي «الجديد» برئاسة رشاد رشدي. ثم جاءت في أكتوبر ١٩٧٣ مجلة «الثقافة» برئاسة الوزير يوسف السباعي، لكن أيا من المجلتين لم يصل إلى المستوى الرفيع وظلت مجلة «الكاتب» صوتا مستقلا حتى سبتمبر ١٩٧٤ عندما قدم محرروها استقالة جماعية احتجاجا على تدخل الوزارة في تحريرها ومن ثم أغلقت بعد شهور قليلة، كما قررت الهيئة العامة للكتاب إيقاف السلاسل التي كانت تصدر سابقا: مثل «المكتبة الثقافية» و«كتابات جديدة» و«أعلام العرب» و«روايات عالمية» و«روائع المسرح العالمي». لكن بدءاً من ؟

جورديمر تذكر أحداثاً حقيقية تضمنها النص كي تؤكد أن ما يحدث (الصراع الأسود ضد الأبيض) ما هو إلا نتاج طبيعي لأحداث سياسية اجتماعية متتالية



فبراير ١٩٧٤ ألغيت الرقابة على الصحف والمجلات، ومع ذلك لم يستتبع هذا الإلغاء حرية التعبير المتوقعة. إذ باختفاء الرقباء من مكاتب التحرير انتقلت مهامهم الرقابية إلى رؤساء التحرير ورؤساء مجالس الإدارة الذين كانوا يعينون بواسطة الرئيس. وبالتالي يكونون مسئولين أمامه، وحلت التعليمات اليومية الصادرة من المكتب الصحفي للرئيس محل أوامر الرقباء، وحدثت تغيرات كبيرة في الصحافة، صحفيون محترمون حل محلهم أشخاص كل مؤهلاتهم الولاء للسادات وسياسته.

وبمرور السنوات تفاقم الصراع مع تزايد عدد الكُتّاب والصحفيين الذين غادروا مصر بإرادتهم أو متنفيين. وفي أكتوبر ١٩٨٠ وجه المدعي الاشتراكي الاتهام إلى ١٢٠ صحفيا بتهمة كتابة مقالات ضد النظام السياسي للدولة، وفي عملية واسعة في السادس من سبتمبر عام ١٩٨١ ألقي القبض على الآف بزعم الفتنة الطائفية، ومن بين المعتقلين ٢٥٠ من أبرز الشخصيات العامة: قيادات نقابات المحامين والصحفيين وأحزاب المعارضة، كما تم فصل الكثير من الأساتذة الأكاديميين من الجامعة، وما فعله هؤلاء المثقفون لم يكن إثارة لخلافات دينية، وإنما نقد لاتفاقية كامب ديفيد ولسياسة السادات الاقتصادية القائمة على الانفتاح الذي لازال المجتمع المصري يعاني مما خلفه من طبقية حتى يومنا هذا، ثم اغتيل أنور السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١ و أكثر من ثلاثة آلاف من معارضي سياسته في المعتقلات.

«... وانتهى الأمر بمأساة المنصة»

لم ترد هذه الجملة على لسان مصطفى النحاس في نهاية نص أمام العرش، لتجيب محفوظ احتياطياً، بل إن محفوظ (وفدي الهوى) قد جعل من نصه السالف محاكمة لتاريخ مصر السياسي كاملا متمثلاً في حكامها منذ الفراعنة ثم زعمائها في العصر الحديث، فقد وردت محاكمة لعصر أنور السادات لينتهي به النص، وإذا كان النص يُخضع السادات لمحاكمة باعتباره الزعيم الأخير لهذا البلد فإن الحياة المصرية لا تزال تعاني من قدر كبير من سياساته، وهو ما جسده محفوظ عبر الحوار الذي حدث مع رجال مصر أمام العرش بين أنور السادات وكل من الملك اخناتون وتحتمس الثالث ورمسيس الثاني والملك امنتحتب الثالث وكأن الماضي الذي يمثل البدايات يحاكم الحاضر الذي ورث عنه بنية الدولة وعلى ذلك يتجلى سؤال ماذا فعل حاكم العصر الحديث في الدولة؟ ومن هنا تأتي أهمية كلمات الملك حور محب في نص أمام العرش عندما قال للسادات اعترف بأنك تهاونت في معاقبة الفساد والمفسدين حتى أوشكوا على أن يحيلوا انتصارك إلى هزائم، فلا قيام لدولة إلا على الانضباط والأخلاق. ثم مناظرة المونولوج السردي التي قامت بين حاكمي مصر بعد تحولها إلى النظام الجمهوري وهما جمال عبد الناصر وأنور السادات خاصة اللغة التي يدين بها كل منهما الآخر وهي بلا شك رؤية محفوظ لكل من العهدين وقد أراد أن يقدمها في نوع من الكلام شبه المباشر أو السرد الأستبدالي الذي أطلق عليه جيرالد برنس في قاموس السرديات[٢] مصطلح Substitutionary Narration. وهو ما تم في نص أمام العرش بين عبد الناصر والسادات (سأله جمال عبد الناصر: كيف هان عليك أن تقف من ذكراي هذا الموقف الغادر. فقال السادات: اتخذت ذلك الموقف مضطراً إذ قامت سياستي في جوهرها على تصحيح الأخطاء التي ورثتها عن عهدك. فقال ناصر: ولكني عهدتك راضياً ومشجعا وصديقاً. فقال السادات: من الظلم أن يحاسب إنسان على موقف اتخذه في زمن رهيب اسود خاف فيه الأب ابنه والأخ أخاه (يقصد أفعال مراكز القوى في زمن عبد الناصر) فقال ناصر: وما النصر الذي احرزته إلا ثمرة استعدادي الطويل له! فقال السادات: ما كان لمهزوم مثلك أن يحقق انتصاراً، ولكني أرجعت للشعب حريته وكرامته فقال ناصر: ثم تنازلت عن كل شئ في سبيل سلام مُهين فطعنت وحدة العرب طعنة قاتلة وقضيت على مصر بالانعزال والغربة واندفعت في الانفتاح حتى أغرقت البلاد في موجة غلاء وفساد وبقدر ما كان عهدي أماناً للفقراء كان عهدك أماناً للأغنياء واللصوص. ولأن محفوظ كما سبق (وفدي الهوى) فقد لخص مزيداً من نقده لعصر السادات في مقولة على لسان مصطفى النحّاس (الذي حاول السادات اغتياله في يوم ما) فقال النحاس: اشتدت الضائقة بالناس وحدث ما يحدث عادة في مثل تلك الظروف من أعراض الفتن والتطرف، فتركت الأمور تستفحل كأنك لا تبالي، ثم انفجرت بغتة فألقيت بالجميع في السجون فأغضبت المسلمين والمسيحيين والمتطرفين والمعتدلين، وانتهى الأمر بمأساة المنصة!؟.

وإذا كان محفوظ في نص أمام العرش قد جعل من حوار رجال مصر ذريعة لمحاكمة تاريخ تلك البلد، ومنهم بالطبع أنور السادات لأنه جزء من تاريخ هذا الوطن، فقد كانت رواية «يوم قتل الزعيم» محاولة لتقطير رأي المواطن العادي في حكم السادات وما وقع عليه من جراء هذا الحكم.

ثلاثة أجيال مروى عنهم في النص هم الجد محتشمي زايد والابن فواز محتشمي، والحفيد علوان فواز محتشمي زايد تظهر الحياة المصرية برخاء ما قبل السادات ثم فساد ما بعد السادات. وعلى الرغم من أن الجد من مخلفات زمان سابق إلا أن الراوي يجعل منه أيقونة دالة قادرة على فرز الفروق بين عصرين، خاصة أنه يجلس في المنزل في مرحلة ركود ما بعد المعاش ومنذ الصفحة الأولى يصف الجد حال حياته وسط أسرة الابن قائلاً: «ما أكثر نعم الله في دنياه اللهم جنبني المرض والعجز لا أحد ثمة للعناية بالآخرين ولا فائض مال للتمريض الويل لمن يسقط يجمعنا في الصباح المدمس وحده أو الطعمية، هما معاً أهم من قنال السويس: سقيا لعهد البيض والجبن والبسطرمة والمربى ذلك عهد بائد أو (ق. ا) أي قبل الانفتاح: الأسعار جنت كل شيء قد جن».

هنا تبدو دلالة مساوئ الانفتاح

عندما نقرأ شخصيات رواياته، حتى الشخصيات الإجرامية مثل «سعيد مهران» فى رواية «اللص والكلاب» لا نملك إلا أن نشعر بالعطف والحزن والمشاركة الإنسانية لشقاء هذه الشخصية الإجرامية

الاقتصادى جلية عبر المروى. وهذا ما يتأكد على لسان حفيده علوان -ويظهر بالطبع تأثر الجيلين فى تلك المرحلة على الرغم من الفارق الزمنى بينهما- إذ يقول: صباح يوم جديد.. جديد قديم. قديم جديد. دوخينى يا ليمونة: إن لم يوجد قديم حسن فليوجد جديد سيء... منذ الصغر منذ الشباب ونحن فى البيت القديم الضائع بين العمائر الشاهقة دسيسة بين الأغنياء. صباح الخير أيها المكدسون فى الباصات، وجوهكم تطل من وراء الزجاج المشروخ مثل المساجين فى يوم الزيارة، والسائرون على عجل يلتهمون سندوتشات الفول بِنَهم وبلا تذوق.

تتضح عبر اللغة التحسُّرية للشاب درجة تردى الواقع الاجتماعى من جانب وتشرذمه من جانب آخر، وقد اعتمد محفوظ على ما يعرف بالمحور الدلالى، أو topic كما يعرف فى اللاتينية بـ topos بمعنى المحور الموضوعى اللازم للكشف عن جميع الدلالات المتعلقة بالسرد والذى ثبت معناه لدى امبرتو ايكو بمعنى تمكن القارئ من الخروج بتفسير متسق مع النص. فإذا كان محفوظ يلمس على واقع اجتماعى أليم يراه الجد بعين متعالية تحمل خبرة السنوات وهو قار فى المنزل، فإن الحفيد الملتصق بهذا الواقع يرصده بكل تفاصيله العينية الأكثر ألماً.

وإذا تساءلنا عن جيل الوسط الذى يمثله الابن (فواز محتشمى ولننظر إلى السخرية الواضحة فى الاسم حيث فواز هو صيغة المبالغة من فائز أو من الفعل الثلاثى فوز وهو كثير الفوز على حين أنه فى النص ذلك المواطن العادى المطحون بين عملين كى يحقق للأسرة حد الكفاف) نجد أن دوره فى النص لا يعدو ثانوياً مفعولاً به فى السرد، حيث يأتى الكلام عنه على لسان الابن قائلاً: فقدت أبوى بعد أن فقدا نفسيهما فى عمل يتواصل من الصباح حتى المساء موزعين بين الحكومة والقطاع الخاص فى سبيل اللقمة والضرورة لا نلتقى إلا خطفاً.

هذا إلى جانب معاناة الحفيد من عدم اتمام الزواج بمن اختارها قلبه وتعانى من نفس المرض الذى يعانى منه وهو داء الفقر فيقول الحفيد: «أعلنت الخطبة فى عهد عبد الناصر وواجهنا الحقيقة فى عصر الانفتاح» بل إن حبيبته راندا سليمان مبارك -التى يدفعها أهلها دفعاً إلى ترك علوان وبيع نفسها إلى مديرها الثرى- لا تكف عن السخرية من الشعارات المسموعة من النظام فى الدولة فتصف حبيبها علوان بأنه فى ثورة غضبه «يسب الدين ربما استغفر الله إرضاءً لى كشعار ليس إلا كسائر الشعارات الجوفاء التى تنهال علينا من أفواه المسئولين، زمن شعارات مقزز حتى الراحل البطل لم يكف عن ترديد الشعارات». وفى مقولة أخرى لها ترثى لحال حبيبها علوان «ماذا يفعل المسكين علوان؟.. محرومون وسط سيرك من اللصوص فى زمان رمى ببهلوان يطلق فى العطسة عشر شعارات عقيمة.

فيرد علوان فى جزء السرد الخاص به وكأن بينه وبين راندا مونولوج لكن لكل منهما كلامه على حدة يقول: احنا الشعب اخترناك من قلب الشعب والحب كان باقة من الورد فى قرطاس من الأمل. فقدنا زعيمنا الأول ومطربنا الأول - كناية عن عبد الناصر- ويخرجنا من الهزيمة زعيم مضاد فيفسد علينا لذة النصر. نصر مقابل هزيمتين». وهكذا جعل نجيب محفوظ من رواية يوم قتل الزعيم وثيقة لإدانة عصر حكم انور السادات فى لغة متقشفة جافة لا تحمل سوى مرارة كل راو من الشخصيات عن نفسه التى لا يجدها فى زمن الطبقية وتوحش الثروات وقهر الشعب بالجوع.

شعب يوليو

صدرت رواية نادين جورديمر «شعب يوليو» عام ١٩٨١ وربما كانت حقبة الثمانينيات هى أول الجوامع بينها وبين رواية محفوظ «يوم قتل الزعيم» لكن قبل تفاصيل ذلك ينبغى إلقاء الضوء على نصوص نادين جورديمر التى يربطها جميعاً خيط واحد فى تصوير القهر الإنسانى فى المجتمع نظراً للمساوئ السياسية، وهو الأمر نفسه الذى طالما عبرت عنه روايات نجيب محفوظ.

فى رواية نادين جورديمر الأولى «الأيام الكاذبة» ١٩٥٣ تتحدث عن فتاة تكبر فى مدينة صغيرة بجنوب إفريقيا، لا تعرف شيئاً مما يدور حولها، وتدريجياً تصطدم بحقائق عن العالم المحيط بها الذى كانت غافلة عنها، وتتكشف لها أكاذيب وشرور نظام الحكم القائم على التمييز العنصرى، ويتسع مجال الرؤية أمام جوردير فى روايتها التالية «عالم الغرباء» ١٩٥٨ لتكشف عن القطيعة الكبيرة بين السود أصحاب الأرض الأصليين فى جنوب إفريقيا وبين الأقلية البيضاء الحاكمة، وعن زيف الليبراليين البيض.

ومع صدور قوانين الفصل العنصرى فى جنوب إفريقيا التى كرست للقطيعة والانقسام والكراهية بين البيض والسود فى الستينيات. ومن خلال النقاش والجدل مع الكُتّاب السود الذين اكتسبت صداقتهم، ازداد وعى «نادين جورديمر» بعمق المأساة التى يعانى منها سود جنوب إفريقيا. وارتفع صوتها بالتنديد بالممارسات العنصرية. وبالدفاع عن النخبة السوداء الذى أصبح مصيرها المنفى أو السجن أو الموت.

ثم تتابعت روايات نادين جورديمر مُعبرة عن عمق الصراع العنصرى المجسد لطبيعة الروح الإنسانية، وعن خيانة النظام السياسى لقيم الحرية والعدالة والسلام. ومع انتفاضة سويتو فى عام ١٩٧٦، اتجهت نادين جورديمر فى كتاباتها اتجاهاً آخر يتسم بالعداء الصريح للعنصرية فى جنوب إفريقيا مؤكدة فى روايتها «شعب يوليو» ١٩٨١[٣] على الدور الذى يمكن أن يقوم به البيض فى جنوب إفريقيا من أجل الإصلاح السياسى. وعن السود ضحايا دولة العنف فى جنوب إفريقيا الذين أخرجوا من ديارهم واقتيدوا إلى أقسام الشرطة وضُربوا، وأُلقى بهم خلف جدران السجن، وعن انعدام الفهم والكراهية والقسوة وافتقاد الحب فى مجتمع منقسم على نفسه يفرز قوانين التميز العنصرى.

فى رواية «شعب يوليو» التى صدرت قبل عشر سنوات من حصول صاحبتها على جائزة نوبل، وبعد خمس سنوات من الانتفاضة التى شهدتها شوارع وأزقة مدينة «سويتو» وامتدت حتى شملت كل مدن جنوب إفريقيا، تروى نادين جورديمر فى رواية «شعب يوليو» قصة عائلة سميلز البيضاء التى لم تجد الملجأ والحماية إلا فى الهروب بمساعدة خادمهم الأسود «يوليو» الى بيته بإحدى القرى المنعزلة التى يسكنها السود الفقراء. وهو ما يقرره الراوى قائلاً: «بدأت الأحداث عادية مبتذلة تبعث على التشاؤم. جاءت اضطرابات عام ١٩٨٠ فى بطء وتثاقل.. إضراب يلى إضراباً الى أن أصبحت الإضرابات والانفجارات وإطلاق الرصاص من مفردات الحياة اليومية، وبينما كانت الحكومة فى محاولات مستمرة لتقديم تنازلات لاتحاد العمال السود على شكل كلمات متقنة الصنع، تخفى بداخلها قيوداً جديدة، كان العمال السود يكابدون الجوع والغضب والبطالة.. والمتاجر والمصانع تشمل فيها النيران».

ولمزيد من إضفاء وجود الواقعية فى النص نجد الكاتبة تذكر أحداثاً حقيقية تضمنها النص كى تؤكد أن ما يحدث (الصراع الأسود ضد الأبيض) ما هو إلا نتاج طبيعى لأحداث سياسية اجتماعية متتالية يقول الراوى: «وللمرة المائة منذ حرائق الخمسينيات ومنذ «شاريفيل» و«سويتو» ١٩٧٦، ونهر «إلسى» ١٩٨٠، يبدو الأمر وكأن كل هذه الاضطرابات ليست إلا محاولات للتنفيس عن الغضب».

وعبر ثنايا النص تتراوح لغة القص بين وصفية تعتنى بسرد التفاصيل، وتعبيرية تصويرية مشحونة بالرمز والسخرية، فتظهر جورديمر وقد جردت الرجل الأبيض من سلطته الاقتصادية وأحالتها الى الرجل الأسود مرة بعد أخرى. بعد المرة المائة. السود ينتصرون. الزجاج المُهشم يتم إزالته من أمام المبانى العامة والمحال التجارية، إصلاح الخطوط التليفونية، تأكيدات الراديو والتلفزيون أنه تم إحكام السيطرة على الموقف... «بام» و«مورين» أدركا أنه من الحماقة ترك أموالهما المسحوبة من البنك فى المنزل وكانا على وشك إيداعها فى البنك».

وبام ومورين هما عضوا الأسرة البيضاء التى لا تجد ملاذاً وسط ثورة السود على البيض إلا اللجوء الى منزل خادمهما الأسود «يوليو» الذى تتكفل لغة السرد بوصف الواقع الذى يعيش فيه والذى يمثل لبام ومورين صدمة كبرى عند الالتحاق بالحياة فيه، نظراً للفروق الحضارية الكبيرة بين حياة يوليو الخادم الأسود الفقير وحياة «بام ومورين» سادته البيض. وقد وصف الراوى ذلك فى لغة معبرة عن تلك الفروق الحضارية والطبقية كذلك: يوليو الخادم الذى يعيش فى فناء المنزل منذ زواجهما، ويحصل منهما على راتب جيد، وله كسوتان واحدة لأعمال المنزل، والأخرى بيضاء يرتديها عند تقديم وجبات الطعام، هذا الخادم الذى تحول الى ذلك الشخص الذى اختير لأن يضعوا أرواحهم بين يديه، هو الأسود المنقذ «يوليو». ولمزيد من التفاصيل التى تكشف الواقع الأدنى الذى انتقل اليه «بام»

وسورين، تخدم لغة السرد الواقع المعيش الذي انتقلا اليه وسط بيوت السود: يقول الراوى: «موطن «يوليو» لم يكن قرية، بل هو تجمع سكنى من بيوت طينية يقطنها أعداد من عائلته ممتدة الفروع، من المسلم به أن ما أقدم عليه «يوليو» مخاطرة، إذا استطاع أن يضمن قبول عائلته لذلك التواجد الغريب لعائلة بيضاء بينهم، وأن يحملهم على التزام الصمت، فهو لا يمكنه أن يمنع الآخرين الذين يعيشون في الجوار من اكتشاف غربة لرجل أبيض، ونقل تلك المعلومة الى قوات الدورية السوداء.. هذا إذا لم يقوموا أنفسهم باتخاذ اللازم».

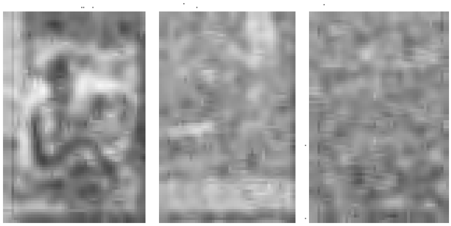
ومن الفروق الحضارية بين حياة البيض التي كانت وحياة السود الآنية التي ينتقلون إليها، إلى رفض السود إقامة البيض بينهما لما تحمله حياتهما معا (البيض والسود) من إرث طويل من المرارة؛ إذ كيف يسامح المجنى عليه (السود) الجانى (البيض) بل ويجعل له مأوى، تظهر معارضة أم «يوليو» لوجود «بام» و«سورين» وسطهما وكأن هذا الوجود عار على القرية السوداء، تقول الأم:

- البيض هنا؟! كيف ألم تخبرنا كيف يعيشون هنالك.. البيض لهم البيض أمثالهم في مكان ما. أليسوا يعيشون فى كل مكان من هذا العالم؟ جير مستون، وكيب تاون. أنت عشت فى أماكن كثيرة يا بنى، ألا يستطيعون أن يذهبوا الى أى مكان يريدون؟.

- الاضطرابات فى كل مكان، إنهم يطردون البيض من منازلهم، والبيض يخوضون المعركة معهم ويحدث الشىء نفسه فى كل المدن، اين يمكنه الفرار بعائلته؟ أصدقاؤه أيضاً يفرون، اذا هو أراد أن يذهب إلى صديق فى المدينة فلن يجد الصديق هنالك، وربما عند وصوله الى هنالك يلقى مصرعه».

وعبر الكثير من المواقف- المتضاربة بالفعل نتيجة صدام الأسود صاحب المكان بالأبيض المثبت فى المكان تحدث الكثير من المفارقات التى تؤدي فى النهاية الى التأكيد على ان الحياة بينهما (البيض والسود) طالما كانت قائمة فلابد ان تكون على التعايش بينهما. فكأن نادين جورديمر كانت ترى ببصيرتها وقت كتابة رواية «شعب يوليو» ما سوف تسفر عنه السنوات من متغيرات تجبر حكومة جنوب إفريقيا على السير فى بدايات الطريق الى الإصلاح السياسى.

وإذا كانت الدراسات المقارنة تعتمد أساساً على دراسة وتحليل العلاقات وأوجه التشابه والاختلاف والعوامل التشكيلية لآداب الأمم والشعوب المختلفة[4]، فإن نصوص كل من نجيب محفوظ ونادين جورديمر تعد سجلاً حياً للمجتمع المصرى عند الأول ومجتمع الفصل العنصرى فى جنوب إفريقيا عند الثانية. فتكتب نادين جورديمر خبرات حياتها اليومية الممتلئة بالأحزان فى أعمال روائية غنية بالتفاصيل الدلالية، والصور المضيئة؛ باحثة عن إجابة تنير لها طريقها على أرض الكراهية التى لا تنمو فيها غير أشجار السموم، فلا تملك إلا أن تقبض بنفسها على جمر الإيمان والثقة بالشباب الأسود المتعلم الواعى، وببعض



الليبراليين البيض الذين لم يخونوا ما عاهدوا الناس عليه من انحياز لقيم السلام والحرية والعدل.

تكشف كتابات نادين جورديمر الروائية عن الانكسار الذى أصاب روح الرجال السود تحت وطأة التمييز العنصرى، مؤكدة ذلك فى رواياتها «ابنة برجر» ١٩٧٩، وعن الدمار الذى يلحق بالعلاقات بين البشر فى حياة يومية تتغذى على البغضاء والعنف مثل رواية «رياضة الطبيعة» ١٩٨٩، ضمن وصف سياق من العلاقات المتيرئة والشخصيات التى يتجاذبها وضع قائم لا طاقة لها على احتماله، ولا قدرة لديها على تغييره، وأحداث تكرس للقطيعة بين أفراد المجتمع الواحد، وتفاصيل تقطع بفقدان الأمل فى الوطن الذى لم يعد لأبنائه اية حقوق فيه.

أما نجيب محفوظ، فقد استطاع ان يسبر غور المشاعر الإنسانية المتلاطمة مع واقعها، ويعبر عنها على لسان شخصياته فى رواياته وقصصه، فإذا هو يهدى إلينا، ويهدى الإنسانية جمعاء، أجمل هدية، هى الكشف وإضاءة جوانب الذات المظلمة، هدية معرفة النفس، ومعرفة الآخر، ومعرفة الوجود، والسعى الدائم لمعرفة خالق هذا الوجود. وقد فعل ذلك ليس بأسلوب الوعظ المباشر المعنف الذى لا يلمس قلب الإنسان وبالتالى لا يؤثر ولا يجدى كمعظم الخطب المباشرة المعنفة المقرعة بلا جدوى.. وإنما فعله بأسلوب الطبيب الجراح الذى يبحث عن اصل الداء، ويضع يده على الجزء المريض المتعب من الجسد.. لكى يمكننا بعد هذا ان نقدم العلاج، أو الراحة المسكنة. كما فعله بأسلوب المحب لكل الناس.

فعندما تقرأ شخصيات رواياته، حتى الشخصيات الإجرامية مثل «سعيد مهران» فى رواية «اللص والكلاب» لا تملك إلا أن تشعر بالعطف والحزن والمشاركة الإنسانية لشقاء هذه الشخصية الإجرامية. وتلمس فيما يكتبه نجيب محفوظ أن طاقته على محبة الجميع تشمل حتى المجرمين الذين يصورهم ببراعة وإنسانية بالغة فى رواياته.

ولنجيب محفوظ كلمات أخرى بها نقد عظيم للشخصية المصرية وللمصريين - على قدر حبه العظيم الواضح لهم - نقرأها على لسان شخصياته الروائية، ومنها: «كان كالثور المصرى عظيم الخوار عديم الأذى»، كما تمنحه الروايات فرصة استخدام كلمات قد لا تكون لائقة لا يقولها هو ولكن تقولها شخصياته الروائية بشكل معبر قوى.. فنقرأ فى «السكرية»: «الحق إن الاستبداد هو مرضهم (المصريين) المتوطن.. كل ابن كلب غرته قوته يزعم لنا أنه الوصى المختار وأن الشعب قاصر.. نحن شعب قليل الأدب!.. لا أعرف شعباً كالشعب المصرى ولعاً بالخوض فى أعراض الأمهات!.. إن الزمن أدبنا أكثر مما ينبغى، والشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، ولذلك فنحن غير مؤدبين! ولكن تغلب علينا الطيبة رغم ذلك..».

أما فى «ميرامار» فيصرخ «عامر وجدى» فى غضب: «أيها الأنذال، أيها اللوطيون، ألا كرامة لإنسان عندكم إن لم يكن لاعب كرة؟».. ويقول عامر وجدى ايضا فى نفس الرواية: «لقد سلبت (الثورة) البعض اموالهم وسلبت الجميع حرياتهم».. أما حسنى علام، شخصية أخرى من شخصيات ميرامار فيخاطب المصريين قائلا: «إنى أتبرأ منكم!.. أتبرأ منكم يا فتات العصور البالية!».

وفى «المرايا» نقرأ على لسان شخصية «عبدالرحمن شعبان» هذه السخرية اللاذعة: «هكذا أنتم أيها المصريون، لن تزالوا غارقين فى أوهام الكلمات حتى تموتوا.. لو لم أكن مصرياً لتمنيت أن أكون مصرياً! ولم لا تتمنى أن تكون حماراً فيكون لك نفع على الأقل؟!».. وفى موضع آخر من «المرايا» ايضا يقول عبدالرحمن شعبان: «أتعرف ما هى أكبر نعمة أغدقت علينا؟ هى الاستعمار الأوروبى، وسوف تحتفل الأجيال القادمة بذكراه كما تحتفلون بمولد النبى».

مما سبق فى ضوء كتابات نادين جورديمر ونجيب محفوظ نتأكد من كل نقدهما اللاذع عبر الكتابة، أن الذين يحملون للوطن حبا حقيقياً هم الذين ينتقدونه اشد النقد ويسعون الى تغييره عبر الكتابة. ■

هـــوامـــش:

(١) التقطنا لك المقاطع من مجموعة من الدوريات التى نشرت اللقاء التاريخى بين الكاتبين (نادين جورديمر ونجيب محفوظ) من الدوريات التى سجلت ذلك اللقاء منها مجلة نصف الدنيا - جريدة أخبار الادب- جريدة الأهرام ويكلى.

(٢) للقاموس ترجمتان الأولى صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة-المشروع القومى للترجمة رقم ٣٦٨، تحت عنوان «المصطلح السردى» بترجمة لعابد الجابرى. والثانية عن دار ميريت تحت عنوان «قاموس السرديات» ترجمة: السيد إمام.

(٣) الدار المصرية اللبنانية - ترجمة: أحمد فريدى.

(٤) راجع دليل الناقد الأدبى لميجان الرويلى وسعد البازعى- المركز الثقافى العربى- بيروت- ط٣-س-٢٠٠٢-ص٢٢، راجع كذلك معجم المصطلحات الأدبية لإبراهيم فتحى- دار شرقيات- ط١-س٢٠٠٠-ص٢٠.



Naguib Mahfouz: The Pursuit of Meaning

(نجيب محفوظ: البحث عن معنى)

Rashid El-Enany

Routledge, $40.95, 288PP., 1993

يقدم هذا الكتاب تاريخ نجيب محفوظ الأدبي للقارئ الغربي كتجسيد مثالي لتطور الرواية العربية. ويقوم الكاتب رشيد العناني بتحليل العديد من العوامل المتعلقة بحياة وأدب نجيب محفوظ لرسم صورة أكثر وضوحا للمؤثرات التي صاحبت تطور أعماله. من ضمن تلك المؤثرات أمور تتعلق ببيئته المحلية وبالتأثيرات الأجنبية عليه. كما يحلل العناني تطور أفكار نجيب محفوظ وأدواته ككاتب. ويتناول العناني بعض أعمال نجيب محفوظ بشكل منفرد ولكنه يركز أيضا على استمرارية بعض المواضيع وبعض الجماليات الأدبية عبر عدة أعمال.

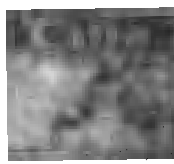


(نجيب محفوظ وطني مصر)

محمد سلماوي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ١٠٤ صفحات

النسخة العربية من الكتاب الذي صدر باللغة الفرنسية في باريس عن دار «لاتيس»، والذي ترجم بعد ذلك إلى العديد من اللغات الأخرى. الكتاب هو عبارة عن سلسلة من حوارات متصلة أجراها الكاتب محمد سلماوي مع الأديب الراحل نجيب محفوظ استغرقت أكثر من ٤٠ ساعة تحدث فيها محفوظ عن مصر التي يعرفها، عن الجمالية التي ولد فيه والعباسية التي انتقل إليها، وعن الحواري والأزقة التي كانت أبطالا لرواياته، وعن القيم والمبادئ التي تميز الشعب المصري والتي طالما دعا إليها محفوظ في رواياته. سلماوي كان من أقرب المقربين إلى الراحل الكبير مما ساعده على إخراج ما بداخل محفوظ في سلاسة شديدة، ليصور مصر التي عرفها محفوظ والمجتمع المصري وتحولاته لما يقرب من قرن من الزمان. الكتاب هو النص الأصلي للحوار الذي دار باللغة العربية وليس مترجما عن الكتاب الأصلي الذي جاء بالفرنسية.



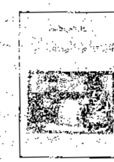
The Cairo of Naguib Mahfouz

(قاهرة نجيب محفوظ)

Gamal El Ghitani; Britta Le Va (photos)

AUC Press, $19.95, 82p., 2000

يعتمد هذا الكتاب بشكل أساسي على صور التقطتها المصورة المحترفة بيرتا ليه فا لأحياء وتفاصيل من القاهرة القديمة لتمثل المدينة كما وردت في كتابات نجيب محفوظ. تحمل المصورة إعجابا كبيرا بكتابات محفوظ يسبق البدء في مشروع الكتاب. قدم لهذا الكتاب الكاتب المصري جمال الغيطاني بمقال طويل يعيد فيه، سرد تفاصيل نزهة مطولة قام بها مع محفوظ في شوارع الجمالية. والغيطاني ليس فقط من أقرب الكتاب لنجيب محفوظ على المستوى الشخصي والأدبي ولكنه يشترك معه أيضا في الانتماء إلى حي الجمالية الذي كان مسرح أهم أعمال نجيب محفوظ. لذا كان من السهل جدا على الغيطاني أن يختار مقاطع من كتابات محفوظ لتمثل أفضل تعليق على الصور.



(المجالس المحفوظية)

جمال الغيطاني

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٢٢٠ صفحة.

جمال الغيطاني، تلميذ نجيب محفوظ، يعتبر وفاته «خسارة كبيرة له شخصيا» على حسب تعبيره في كتابه المجالس المحفوظية، وهو الكتاب الذي يجمع فيه الغيطاني ملخصات لأحداث جلسات كان يحضرها مع أستاذه نجيب محفوظ. يقول الغيطاني في تقديمه للكتاب: «خلال لقاءاتنا عبر السنوات الأخيرة، بدأت أنتبه إلى نفاسة ما يبديه الأستاذ من آراء. حرصت بعد عودتي إلى البيت أن أدون ما قيل: إما بنصه كما أتذكره أو خلاصته في (المجالس المحفوظية)».

الكتاب يأتي في ثلاثة أجزاء، متجل فيها أربعة وأربعين عاما رافق فيها الغيطاني نجيب محفوظ: الأول يدون فيه الغيطاني المحاورات التي دارت بينه وبين محفوظ وبعض من رفاقهم خلال مجالسهم التي امتدت من الستينيات من القرن الماضي حتى عام ٢٠٠٤، أما الجزء الثاني، فيدون فيه الغيطاني نص المجالس التي دارت بينه وبين أستاذه كل يوم اثنين على امتداد أربعة شهور صيفية عام ١٩٧٨ بمقهى الفيشاوي، وفي الجزء الثالث يسرد الغيطاني العديد من المجالس المتنوعة ونصوصا تتابع محفوظ في القاهرة القديمة.



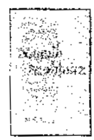
Naguib Mahfouzs Egypt

(مصر نجيب محفوظ)

Haim Gordon

Greenwood Press, $85.95, 152PP., 1990

مع أن المتفق عليه أن مهارة نجيب محفوظ الأساسية تكمن في قدرته المذهلة على الحكي، إلا أنه يعطي القارئ متعة إضافية بتنوع شخصياته وعمق تحليله لها. لهذا فإننا نقف في كتاباته كثيرا عند الأزمات والتساؤلات الوجودية لأبطاله. بل إن من أهم كتب نجيب محفوظ: المرايا، التي هي عبارة عن بورتريهات منفصلة لشخصيات يرى البعض لها صدى في الواقع بين من أثروا في حياة نجيب محفوظ ولكنها في آخر الأمر نتاج قدرة محفوظ على إضافة خياله وابتكاراته على شخصيات قصصه ورواياته. هذا الكتاب نتاج لعدة حوارات أجراها الكاتب حاييم جوردن الأستاذ بجامعة بن جوريون مع نجيب محفوظ الوجودية كما تجلت في شخصيات ومواضيع وأحداث رواياته. إلا أن النتيجة الإجمالية لهذا العمل هي نظرة متعمقة للحياة في القاهرة كما يراها محفوظ.



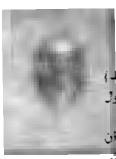
Early Novels of Naguib Mahfouz

(الروايات الأولى لنجيب محفوظ)

Matti Moussa

University Press of Florida, 304PP, 1994

قدمت ماتي موسى، نجيب محفوظ للقارئ الغربي بعد حصوله على جائزة نوبل بفترة قصيرة. ولم يكن نجيب محفوظ معروفا في الغرب قبل نوبل إلا في نطاق المتخصصين في الأدب. وفي بداية معرفة القارئ الغربي بأعمال محفوظ كان من المهم بالإضافة إلى ترجمة الأعمال نفسها أن يطلع القارئ الغربي على عالم محفوظ المتكامل. وقد أضاف كون نجيب محفوظ أول عربي يحصل على جائزة نوبل أهمية مضاعفة لدى القارئ الغربي للاطلاع على كتابات تبحث في عالمه بما أنه عالم جديد نسبيا على هذا النوع من القراء. وبحثت موسى في تناول محفوظ للدين والأمور الاجتماعية والسياسية على خلفية القرن العشرين بدءا من أعماله الأولى وحتى «أولاد حارتنا».



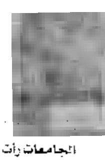
(في حب نجيب محفوظ)

رجاء النقاش

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٢٥٢ صفحة.

الطبعة الثانية من كتاب رجاء النقاش (في حب نجيب محفوظ) التي أضاف النقاش إليها ستة فصول جديدة تتناول قضايا لم تتناول من قبل في الطبعة الأولى.

الكتاب الذي يعتبر دراسة في أدب نجيب محفوظ، نجح في أن يكون سيرة لحياته أيضا، نظرا للعلاقة التي جمعت بين النقاش ومحفوظ منذ عام ١٩٥١ وحتى وفاة محفوظ. وفصول الكتاب تعتبر رحلة طويلة مع نجيب محفوظ فنانا وإنسانا، وتقوم كلها على أساس من الحب الذي يسعى إلى الفهم على حسب تعبير النقاش. الكتاب يأتي في أربعة أقسام. الأول «من الجمالية إلى نوبل» ويتناول حصول محفوظ على جائزة نوبل عام ١٩٨٨، وأصداء هذا الحدث. ويتناول الجزء الثاني «الفن والإنسان في أدب نجيب محفوظ» قراءة أدبية في عدد من روايات محفوظ. أما الجزء الثالث «قضايا ومواقف» فيتناول النقد الذي تعرض له محفوظ، والقضايا التي أثيرت حوله أو كان طرفا فيها، أما الرابع «متفرقات» فهو يضم مجموعة من المتفرقات التي كتبها النقاش حول محفوظ.



Naguib Mahfouz's "Half a Day": A Study Guide from Gales "Short Stories for Students"

(مرشد دراسي لقصة نجيب محفوظ «نصف نهار» من سلسلة «قصص قصيرة للطلبة» من جايل)

Gale Group,$3.95, 25P., 2002

لم يثر نجيب محفوظ فضول واهتمام وإعجاب القراء فقط ولكن الجامعات رأت في أعماله مادة تستحق الدراسة الأكاديمية. لذا صدرت عدة كتب متخصصة من دور النشر التابعة للجامعات عن محفوظ. وقد صدرت في هذا السياق عدة كتب جامعية موجهة للطلاب تناقش أعمالا منفردة من أعمال محفوظ، ضمن سلاسل تعتني بأعمال منفردة لكتاب مختلفين، لكي تساعد الطلاب في فهم العمل والكتابة الأكاديمية عنه.

نجيب محفوظ

LE FIGARO MAGAZINE

المقال الأخير

رحابة حلم







هذا هو آخر مقال نشر باسم أديبنا الراحل نجيب محفوظ فى الصحافة الأجنبية، وقد نشر فى مجلة «الفيجارو» الفرنسية بتاريخ ١٢ أغسطس الماضى حينما كان محفوظ مازال فى المستشفى، وقد أشارت المجلة فى تقديمها إلى أن المقال كتبه الأديب المصرى الكبير بمعاونة الكاتب محمد سلماوى صديقه المقرب على مدى سنوات.

** إن عملية الكتابة ليست بريئة تماماً، فهى تسمح أحياناً للأفراد الذين يأتون لمقابلتى، والذين لم يقرأوا كتاباتى بتمعن، بالتطرق للحديث فى أمور شخصية بدلاً من أن ينصب النقاش حول الأحداث الجارية. لقد تسنى لى مقابلة صحفى فرنسى انصب اهتمامه على إحدى قصصى القصيرة التى تحمل عنوان «الرجل» والتى كنت أصور فيها صحفياً يكتب مقالاً حول رجل من الجيل القديم، أليست تلك مصادفة غريبة؟

كان الصحفى فى هذه القصة القصيرة يقوم بوصف أحد جيرانه الذى كان يراقبه عن بعد وهو يتنزه على طريق الحرية. وكان هذا الشخص الذى تقلد مناصب مهمة خلال مشوار حياته كمهندس ناجح ومسئول حكومى رفيع يعيش حالة وحدة مميتة بعد أن فقد زوجته وبعد هجرة أولاده للولايات المتحدة.

وهنا يتساءل الصحفى: «طوال عمره المديد لم يتبق له سوى الذكريات؟ ترى فيمن يفكر فى وحدته هذه؟ وكيف يقوم بالترفيه عن نفسه؟ كيف يتسنى للمرء أن يتآلف مع شيخوخته بدلاً من أن تكون عائقاً له؟ حين قرأ الرجل هذه السطور تعرف على نفسه على الفور، وكان مندهشاً لأنه أُختير كموضوع باعث على التفكير والتأمل وإن كان قد أحس ببعض الضيق. ذلك لأن هذا المؤرخ وليد اللحظة قد أخطأ. إذ إن تقدمه فى السن لم يكن عائقاً له على الأحلام ولم يكن حاله مثيراً للشفقة. فقد كانت حياته دوماً مبعثاً للشجاعة والإصرار. تلك الصفات التى علمه إياها والده - رحمة الله عليه - الذى كان معلماً عظيماً وكان حبه للقوة يصل لدرجة العبادة.

وكانت قوة ملاحظة والده وشدته المغلفة بالحكمة قد جعلت منه رجلاً فى صلابة الحديد، عندما تأمل الهدف الذى يفترضه الآخرون فيه قال: «يا لها من تخيلات كتاب».

وفى اليوم التالى عند مقابلته لكاتب المقال أثناء نزهته المعتادة ذهب لمصافحته، شكره ودعاه فى بيته لكى يشرح له حقيقة الموقف، اندهش الصحفى قائلاً: «أصحيح هذا؟».

ثم تتناول القصة القصيرة «الرجل» الحوار الذى دار بين الرجلين، والذى انصب على الرغبة فى الحياة وفى التغلب على كل الصعاب.

وبعد سنوات عديدة من نشر هذا النص، طرح على صحفى فرنسى سؤال: «كيف نصنع من شيخوختنا نعمة وليس نقمة؟».

سوف تكون إجابتى هنا، وفى هذا الوقت مختلفة عن إجابة بطلى المنتصر، فليس معنى أن نكتب شيئاً أننا بالضرورة نؤمن به حتى تكون الشيخوخة نعمة، يجب أن نعلم قيودها، وأن نعيش فى قلب هذه القيود دون أن نحاول أن نتخطاها من فوقها أو من تحتها، يجب على كل منا، أن يكون مدركاً لحدوده.

فى شقتى الصغيرة بشارع النيل بالقاهرة، أعيش أحلامى، فالضعف الذى أصاب جسدى، لم يؤثر قط على روحى وخيالى، بالعكس فقد سمح بظهور نوع آخر من الحرية لدى كل شىء تغير منذ ذلك اليوم فى أكتوبر ١٩٩٤، حين حاول اثنان من المنتمين إلى الجماعة الإسلامية اغتيالى.. كنت خارجاً من البيت حينما هاجمنى أحدهما من الخلف، أحسست بأن وحشاً يغرز أظافره فى رقبتى. والحقيقة أنه كان يغرز السكين مرتين، وقد هربت من الموت بعد سبع ساعات قضيتها فى غرفة العمليات ثم استمرت إقامتى فى المستشفى لعدة أسابيع. ولكن إصابة أحد الأعصاب تسببت فى شل يدى اليمنى، اليد التى أكتب بها، وتطلب الأمر ثمانية عشر شهراً من إعادة التأهيل، لكى أستطيع أن أكتب مرة أخرى حروفاً مقروءة. لقد تعلمت من جديد كيف أكتب اسمى، يا له من رمز! الرجلان اللذان هاجمانى كانا ينفذان فتوى تبيح دمى بسبب إعادة إصدار إحدى رواياتى التى كانت صدرت لأول مرة عام ١٩٥٩، وهى رواية «أولاد حارتنا». عند صدورها لأول مرة كان علماء الدين قد اتهموها بنشر أفكار ملحدة. وكان يمكن من خلال أحداث الرواية استشفاف شخصيات الأنبياء موسى وعيسى ومحمد، وهو ذنب لا يغتفر فى عيون المتشددين الإسلاميين، والشىء المفجع أنه خلال محاكمة الجانيين، اتضح أنهما لم يقرآ الرواية. يا لهما من إرهابيين بائسين يرفضان فكر الآخرين فى حين أن الإسلام دين الحرية.

بعد إعدامهما، ظللت أشعر طويلاً بمزيج من الحزن والغضب. كنت أفكر فى الحياة التى كان من الممكن أن يعيشاها. لقد كانا شابين صغيرين، ثم كنت أفكر فى إعاقتى، لأن هذه الحادثة، بخلاف الشلل الذى أعانيه، كانت قد أدت إلى تدهور فى حالتى العامة، فقد أدت إلى صمم وشبه عمى، كيف يمكن أن تصبح الشيخوخة نعمة؟ لقد غفرت لهما هنا فى هذه الحياة الدنيوية.

أنا، الذى كتبت أكثر من خمسين رواية ومجموعة قصص قصيرة بخلاف المسرحيات، ما عدت أستطيع تأليف سوى حكايات قصيرة جداً، مبنية على أحلام، لكن الأحلام بلا حدود.

هى خواطر حقيقية نابعة من الأحلام أو شكل من أشكال التأمل أقوم بتحويلها بعد ذلك إلى قطع أدبية. لا أكتبها كما أستقبلها. إنها تدور فى ذهنى وتتحول، إنها كيمياء غريبة، فهناك الفكرة المجردة ثم الإنتاج الأدبى.

إن العملية تنجح كثيراً ولكن أحياناً لا تنجح، هذه العملية الداخلية تستمر من أسبوع إلى أسبوعين، لكن إذا لم تؤد إلى شىء لا أصر.

الحلم الذى يسكن رأسى الآن هو أنى رأيت جمال عبدالناصر يعطى لى خبزاً من الصعيد، وهو نوع من الخبز شديد الصلابة ينضج على حرارة الشمس (عيش شمسى) لقد قدمه لى وطلب منى تناوله. لم أفعل شيئاً بعد هذه الرؤية، سوف أكتبها إن وجدت فى نفسى القوة إلى أتركها تسكننى. إنها لا تزال فى طور التكوين.

نعم، إن الحلم هو حدود عالمى. **



فروع
أكثــــر لراحتكــم

المركز الرئيسى
١٠ شارع طلعت حرب – القاهرة.

١. فرع القاهرة
١٠٨٧ كورنيش النيل – جاردن سيتى.

٢. فرع عدلى
٩ شارع عدلى – وسط المدينة.

٣. فرع جاردن سيتى
٤ شارع أحمد باشا – جاردن سيتى.

٤. فرع مبنى اتحاد الاذاعة و التلفزيون
ماسبيرو – كورنيش النيل.

٥. فرع حلوان
١٠٠ شارع المنصور – حلوان.

٦. فرع المعادى جراند مول
٢٥٠ ميدان كلية النصر – المعادى الجديدة.

٧. فرع المهندسين
٤ شارع سوريا – المهندسين.

٨. فرع الجيزة
٣٢ ب شارع مراد – الجيزة.

٩. فرع فيصل
٧،٦ مساكن المنصورية – كفر نصار – نهاية فيصل.

١٠. فرع القرية الذكية
الكيلو ٢٨ طريق مصر اسكندرية الصحراوى– مبنى ١١٥ ب.

١١. فرع ٦ أكتوبر
٤٣ ب المنطقة الصناعية الثالثة مدينة ٦ أكتوبر.

١٢. فرع جامعة ٦ أكتوبر
مدينة الثقافة والعلوم – مجمع معاهد قناة السويس للتكنولوجيا.

١٣. فرع نزيه خليفة
٥٢ شارع نزيه خليفة – مصر الجديدة.

١٤. فرع روكسى
٨٠ شارع الخليفة المأمون – روكسى.

١٥. فرع جنينة مول
٤٩ شارع البطراوى – مدينة نصر.

١٦. فرع العاشر من رمضان
المركز التجارى – مدخل ١ – مدينة العاشر من رمضان.

١٧. فرع باتريس لومومبا
٢ شارع باتريس لومومبا– باب شرق – الاسكندرية.

١٨. فرع سموحة
٢٨ شارع توت عنخ آمون – سموحة – الأسكندرية.

١٩. فرع العطارين
١٥ شارع محمود عزمى – العطارين – الأسكندرية.

٢٠. فرع زهران مول
٣٦ شارع فيكتور عمانويل – باب شرق – الأسكندرية.

٢١. فرع قرية بدر
الكيلو ٨٣ – الساحل الشمالى – الأسكندرية.

٢٢. فرع قرية خليج غزالة
الكيلو ١٤٢ الساحل الشمالى – فندق موفينبيك العالمين – قرية خليج غزالة – الأسكندرية.

٢٣. فرع السويس
١ شارع البرج – تقاطع ٢٣ يوليو.

٢٤. فرع الغردقة
طريق النصر – مركز الغردقة التجارى – الغردقة.

٢٥. فرع شرم الشيخ
شارع صلاح الدين – فندق هوليداى أمفورس– شرم الشيخ.

٢٦. فرع أسيوط
برج الهدى – شارع التحرير متفرع من يسرى راغب – أسيوط.

٢٧. فرع الأقصر
شارع معبد الكرنك – أمام الإدارة التعليمية – الأقصر.

٢٨. فرع أسوان
٨٢ شارع أبطال التحرير – بندر آسوان – أسوان.

والآن فرع جديد

فرع بور سعيد: شارع الجمهورية وحافظ إبراهيم – بور سعيد

PIRAEUS BANK
بنك پيريوس - مصر

البنك بنكك

إتصل بـ **19322**

Animation Advertising